شمال إفريقية

دراسة فى الجغرافية التاريخية

دكتور
يسرى عبد الرازق الجوهرى
أستاذ الجغرافيا المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الناشر
دار الجامعات المصرية
تليفون ٢٢٤٦٩ بالاسكندرية

شمال إفريقية

إهداء

إلى أستاذى

الدكتور محمد السيد غلاب

ى. الجوهرى

شمال إفريقية

دراسة فى الجغرافية التاريخية

دكتور
يسرى عبد الرازق الجوهرى
أستاذ الجغرافية المساعد
كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

١٩٧٠

الناشر
دار الجامعات المصرية
تليفون ٢٢٤٦٩ بالاسكندرية

تقـــديم

دراسة الجغرافية التاريخية لهذه المنطقة — فى وطننا العربى — شىء حديث الأمر الذى دعا المؤتمر الجغـــرافى العربى الذى أنعقد فى مدينتى القـــاهرة والاسكندرية فى عام ١٩٦٦ إلى أن يوصى الباحثين العرب بالمزيد من دراسة هذا الفرع من فروع المعرفة الجغرافية . ولعل الصعوبة التى تواجه الباحث فى هـذا الصدد هى الصعوبة التقليدية التى حاول معالجتها كثير من الباحثين فى ميدان الجغرافية والتى تتلخص فى تحديد القدر الذى يجب أن يأخـذه باحث الجغرافيا التاريخية من المادة التاريخية ، وكذلك تحديد الحد الفاصل بين التاريخ والجغرافية إذ أن هـــذا الحـد يبدو فى بعض الأحيان وكأنه شىء مجهول يحيط به كثير من علامات الاستفهام . ولـكن المسألة لا تعدو أن تـكون مشكلة بهـذه الصورة إذ على الباحث وأيضاً على القارىء أن يدرك أن الجغرافيا التاريخية يختلف مضمونها اختلافاً كلياً وجـزئياً عن « التاريخ » ، وأن كلمة « تاريخية » تدفع الجغرافية نحو التاريخ لتنهل منه ما تشاء ولـكن إلى حــــد يتفق مع المفهوم لدراسة تغير المظهر الحضارى أو المظهر الطبيعى للمنطقة فى فترة زمنية معينة . وبعبارة أخرى هناك فرق جوهرى بين التاريخ الذى يهتم بتتابع الأحداث وتاريخها كهدف فى حد ذاته وبين الجغرافيا التاريخية التى تهتم بالربط بين البيئة والأحداث التى تأخذ دورها عـــلى المسرح الجغرافى لتغير من مظهره الطبيعى أو البشرى بالاضافة أو النقصان وذلك فى فترة محدودة ومعروفة . أى أن العلاقة بين التاريخ قائمة على أن الأخير يعتمد على الوثائق التاريخية فى إلقاء الضوء عـلى الظاهرة أو الظواهر الجغرافية التى يرغب الباحث فى بيانها خـلال مـدة زمنية واضحة . ولذلك فقد يختلف الغرض كما تختلف الظاهرة من فترة لأخرى . وهذه نقطة هامة يجب على

القارىء ، غير المتخصص ، أن يدركها حين ينتقل بين سطور وصفحات هذا الكتاب حتى لا يخلط بين مادة الجغرافيا التاريخية والتاريخ وحتى لا يتساءل ما هو الحد بين الاثنين ؟ فقد يكون الهدف دراسة تغير البيئة الطبيعية ، أو تكوين المحلات العمرانية ، أو التكوين الجنسى ، أو النشاط التجارى ، أو التطور الحضارى ، أو تغير الحدود السياسة ، أو كل هذه التغيرات مجتمعة .

إذن فالطريق واضح مادامت الغاية محدودة والفترة الزمنية معروفة . حتى فى الدراسات الأقليمية التى ظلت لفترة طويلة من الزمن تتمثل فى عناصر معينة مرتبة ترتيباً لا ينحرف عنه الباحث فى دراسته مما دفع كثيراً من القراء إلى أن يهجروا الكتب الجغرافية بعد ما تصوروا أن الجغرافية عبارة عن أشياء جامدة تتمثل فى الموقع والمناخ والتضاريس ، وفى الرياح والأمطار والجبال والهضاب الأمر الذى لم يعد بهذه الصورة ، إذ أن الوضع الحالى لأى أقليم ما هو إلا نهاية مطاف وخاتمة نعيش نحن فيها ـ لم نصل إليها إلا بعد مرحلة تطور أو مراحل نضج . ومن ثم فلكى ندركها إدراكاً صحيحاً لابد أن ندرسها فى طبيعتها الديناميكية لا الاستاتيكية لانها إذا كانت تمثل اليوم حاضرنا فسوف تمثل غداً ماضينا أى أنها صورة متحركة هدف دراستها هو معرفة مشاكل البيئة وإمكانيات التغلب عليها ، وليس مجرد تعديد الألوان التى تتكون منها ، فهذا عمل بسيط ، ولكن الأفضل البحث عن كيفية حدوثه والعوامل التى ساهمت وتساهم فى تكوينه حتى نخطط للمستقبل ولإمكانية العيش فى مجتمع أفضل . ولهذا فى الدراسة الإقليمية لدول شمال إفريقية يجب أن يكون هدف الباحث معرفة الحاضر على ضوء الماضى ، والاهتمام بالمشاكل الحالية والمشروعات المستقبلة هذا مع تركيز الاهتمام على النواحى البشرية دون أهمال ما للعوامل الطبيعية من أثر فى تشكيل الحياة .

وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول تعرض الفصل الأول منها لدراسة المسرح الجغرافى لشمال إفريقية أثناء عصر البلايستوسين . وفى هذا الفصل وجه الاهتمام لدراسة الأدلة الفيزيوجرافية والنباتية والحيوانية التى تلقى ضوءاً على مناخ وطبيعة الظروف الجغرافية فى الزمن الرابع الذى فى ظله بدأت الحياة الإنسانية فى شمال إفريقية .

أما الفصل الثانى فقد اختص بدراسة التطور الحضارى الذى حدث فى هذا الجزء من العالم أثناء العصور الحجرية . وكيف أرتقت الحضارات من العصر الحجرى القديم نحو العصر الحجرى الحديث ؟ ونوع إنسان هذا العصر ،وكيفية نشأة الزراعة والاستقرار حول موارد المياه بعد أن تغيرت الظروف نحو الجفاف وظهرت الصحراء بشكلها الحالى .

وقد تناول الفصل الثالث التغيرات التى طرأت على المجتمعات الزراعية فى مصر والمجتمعات الرعوية الزراعية فى شمال إفريقية إبان عصر المعدن والدور الذى لعبته الشعوب المهاجرة والغازية فى التكوين السلالى لشعوب هذه المنطقة ، وكيفية إنتشار المدن الفينيقية على طول الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ،فى حين أحتوى الفصل الرابع على دراسة تغلغل الحضارة اليونانية والرومانية فى شمال إفريقية عقب إنتهاء الحضارة الفينيقية ، وعلى كيفية إنتشار المدينة الرومانية بواسطة طرقها الحربية ومدنها العسكرية فى كل المنطقة الممتدة من مصر شرقاً إلى المغرب العربى غرباً . ويبين هذا الفصل أيضاً كيف أصبحت مصر وتونس مستودعات قمح لروما بعد أن أستغلت الأراضى الزراعية بهما وبعد أن أقيمت مشروعات مختلفة للرى على طول الساحل الشمالى لإفريقية وذلك لاستغلالها فى الزراعة وزيادة إنتاجية الأرض .

أما الفصل الخامس فيبحث إنتشار العرب إلى شمال إفريقية ونتائج أحتكاكهم

بجماعات البربر أو السكان الأصليين ، كما يبحث أيضاً أسباب نشأة المدن العربية فى هذه المنطقة ، وكيفية قيام دولة موحدة للبربر فى شمال إفريقية ، وأثر العناصر البدوية فى انحلالها ودور العرب فى تجارة الصحراء الكبرى والربط بين سكان السودان الغربى ومراكش ، وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتم هذا الفصل أيضاً بوفود الأسبان والبرتغال إلى شمال إفريقية ، وتغلغل النفوذ المملوكى فى أرض مصر وما ترتب على ذلك من أهمال العناية بأمور الرى والزراعة التى تعتبر دعامة الثروة المصرية ، كما أهتم أيضاً بالآثار الاقتصادية والمشاكل السياسية التى صاحبت الاحتلال العثمانى لشمال إفريقية ، وكيفية بداية تغلغل النفوذ الفرنسي في هذه المنطقة من العالم .

ويستطرد الفصل السادس فى دراسه شمال إفريقية فى العصر الحديث منذ أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن ١٩ حتى الوقت الحاضر حيث تعرض لآثار التنافس الأوروبى على الوضع السياسى لدول شمال إفريقية التى أصبحت ملجأ لمئات الألوف من المهاجرين الأوربيين الذين أستولوا على أحسن الأراضى الزراعية وأوفرها إنتاجاً ، وضيعوا فرص الاستغلال الاقتصادى الأخرى على المواطنين ، ومن ثم تناول دراسة الفرنسيين فى المغرب الكبير ، والايطاليين فى ليبيا ، والانجليز فى مصر والسودان ، والأسبان فى مراكش. كما تناول أيضاً التغيرات التى حدثت على خريطة شمال إفريقية فى القرن العشرين والتى أنتهت باستقلال دولها .

أما الفصل السابع الخاص بأثر التطور التاريخى على التكوين الحالى لسكان شمال إفريقية فيعتبر خلاصة للهجرات التاريخية المختلفة التى وفدت على المنطقة . وفى نفس الوقت تأييداً لوجهة النظر المتضمنة الربط بين الحاضر والماضى فى المكان والزمان معاً .

هذا قد زودت الدراسة بعدد كبير من الخرائط والصور لكى تعطى صورة صادقة ومؤيدة لما ورد بين السطور .

هذا وإذا نقدم هذا الكتاب نرجو أن نكون قد وضعنا لبنة جديدة فى البناء الجغرافى الذى يساهم فى تشييده الجغرافيون العرب بجهودهم المتواصلة .

والله ولى التوفيق ؟

د. يسرى الجوهرى

مقدمة

تضم دول شمال إفريقية المغرب « مراكش » والجزائر وتونس وليبيا والجمهورية العربية المتحدة والسودان إلى جانب أفنى والصحراء الاسبانية والجيوب الاسبانية فى مراكش (١) . وتشترك هذه الدول جميعا فى مقومات حياتها العامة إذ تمثل الزراعة والرعى أساس حياتها الاقتصادية مع إختلاف أهمية هاتين الحرفتين من بلد إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى تبعا لتوفر المقومات الرئيسية لقيام كل حرفة وتبعا لأنماط إستغلال الأرض فى شتى أنحاء المنطقة ، أما الصناعة فما زالت فى معظم دولها فيما عدا الجمهورية العربية المتحدة فى المراحل الأولى من تطورها إذ تعمل كل دولة بقدر مالديها من قوة أقتصادية على تدعيم وتنشيط هذا الفرع الحيوى من مجالى الحياة .

ويشبه شمال إفريقية بقية أجزاء القارة الإفريقية فى كون دول نامية تشغل معظم مساحته غير أن لهذه المنطقة أهمية خاصة تتمثل فى موقعها الجغرافى الممتاز الذى تتمتع به إذ تطل على البحر المتوسط شمالا كما تشرف على كل من المحيط الاطلسى غرباً والبحر الأحمر شرقا ذلك بالاضافة إلى أن الصحراء الكبرى تتاخمة من الجنوب لتتداخل فى جزء كبير من دولة .

وشمال إفريقية فى هذا الموقع مكنه من أن يكون أقرب أجزاء القارة الإفريقية لأوربا وآسيا ومن ثم تأثر بها وأثر فيها . وقد ساعد المدخل الشرق للقارة ومضيق جبل طارق على تحقيق أواصل الربط والاتصال بين هذا الجزء من العالم وبين القارات المجاورة . فعن طريقها طبع التشكيل السلالى لسكان

(1) Demographic Year book, U.N., 1965, P. 15.

هذه المنطقة بطابع خاص جعله يختلف إختلافاً بيناً عن بقية القارة التى عرفت باسم «القارة السوداء» نسبة لانتشار العناصر السوداء أو الزنجية فى معظم أجزائها

كما أنه عن طريقها - أيضاً - وفد الطامعون والغزاة إلى أرضها ليضعوا أيديهم فوق ممراتها الحيوية الممثلة فى قناة السويس التى تربط بين البحر الأحمر وما وراءه من أقاليم موسمية فى جنوب شرق آسيا وبين البحر المتوسط بدول شمال غرب أوربا كظهير له ، والممثلة أيضاً فى مضيق جبل طارق المنفذ المهيمن على مصائر أمور البحر المتوسط . وحتى بعد إنتهاء عهد الامبراطوريات ، وغيبة شموسها تكالبت الدول الأوربية - من أجل أهمية هذه المنطقة وتوسط موقعها - على الاحتفاظ بموضع قدم أو قاعدة حربية فيها لعل تستطيع منها يوما ما أن تعيد ما فقدته من نفوذ فى هذه المنطقة غير أن تيار القومية جارف يكتسح أمامه باستمرا القلاع الأوربية من دول شمالى إفريقية العربية .

ولا تقتصر أهمية دول شمال إفريقية على مميزات موقعها الجغرافى فحسب بل أنها تضم عدداً كبيراً من سكان القارة الافريقية إذ تحتوى حسب إحصاء عام ١٩٦٤ على ما يقرب من ٧٢ مليون نسمة من جملة عدد سكان القارة البالغ حينئذ حوالى ٣٠٣ مليون نسمة أى أنها تشمل حوالى ٢٣٫٧ ٪ من جملة عدد سكان القارة وبذلك تحتل المرتبة الثالثة بعد دول غرب إفريقية وشرقها من حيث عدد السكان إذ سجل نفس التعداد ٩٦ مليوناً لسكان دول غرب إفريقية و٨٣ مليوناً لسكان دول شرق إفريقية (١) . وإذا كانت هذه الأرقام تلق ضوءاً على الحقيقة إلا أنها لا توضحها برمتها إذ أن الصحراء تشمل مساحات كبيرة من معظم دول شمال إفريقية ولذلك فلا بد أن نأخذ فى الاعتبار أن أغلبية هؤلاء

---

(1) Ibid, P. 103.

السكان يتركزون فى النطاق الساحلى أو حول مجارى الأنهار الدائمة الجريان كنهر النيل أو فى بطون الأدوية والواحات حيث تقترب المياه الباطنية من السطح وتتفجر العيون والآبار . أى أن الكثافة العامة لسكان المنطقة لا تعطى بأى صورة من الصور التوزيع الحقيقى أو الفعلى لسكان الدول الإفريقية إذ تصل الكثافة العامة فى شمال إفريقية إلى ٩ أشخاص فى الكيلومتر المربع فى مقابل ١٦ شخص/ك.م٢ فى غرب إفريقية و١٣ شخص / ك. م٢ فى شرق إفريقية و٥ أشخاص/ ك. م٢ فى وسط إفريقية و٧ أشخاص/ك. م٢ فى جنوب إفريقية . ولتوضيح ذلك نذكر — على سبيل المثال — أن مساحة تونس ومراكش والجزائر دون الصحراء تشغل ما يقرب من ٢٦٪ من جملة مساحة إفريقية غير أنها تضم ما يقرب من ١٠ر١ ٪ من جملة سكانها، وفى نفس الوقت تساهم بـ ١٢٫٥٪ من جملة صادراتها وبحوالى ٢١٫٤٪ من جملة وارداتها وذلك تبعا لإحصاء عام ١٩٦١ (١) .

وتختلف أهمية دول شمال إفريقية — من الناحية الاقتصادية — من دولة إلى أخرى فبينما كانت تعد ليبيا قبل أكتشاف البترول قطراً فقيراً يمد يده لقبول المعونات الخارجية من أصحاب القواعد العسكرية فى أرضها (٢) إذ نجدها تتحول بعد تفجير ينابيع البترول بها فى عام ١٩٥٥ إلى دولة من الدول الهامة لانتاج البترول هذا فى نفس الوقت الذى تمثل فيه مراكش وتونس والجزائر أهمية كبرى لفرنسا إذ أحتلت الجزائر المركز الثانى بين الأسواق الفرنسية فى عام ١٩٦١ لأنها تستورد ما بين ٧٠ و ٨٠ ٪ من حاجاتها من فرنسا ، بينما تصل النسبة فى تونس ومراكش ما بين ٤٠٪ و ٦٠٪ من مجموع واردات كل منهما .

(1) Hance, W. A., The geography of Modern Africa, London, 1965, P. 81.

(٢) بلغت ما تلقته ليبيا من معونات عام ١٩٥٨ حوالى ١٤ مليون جنيه استرلينى ساهمت الولايات المتحدة الأمريكية فيه بحوالى ثلاثة أرباع المبلغ وساهمت بريطانيا بالقدر الباقى .

وبعض صادرات شمال إفريقية تذهب إلى فرنسا مثل الفوسفات والحمضيات والزيوت والخضروات والحديد الخام والنبيذ[١] (شكل ١) .

مراكش: فوسفات، موالح
الجزائر: بترول، نبيذ
تونس: زيت زيتون، نبيذ، فوسفات، حديد
ليبيا: بترول، فول
ج. ع. م: قطن، مصنوعات
السودان: قطن، صمغ، غزل، حبوب زيتية
منتجات حيوانية — منتجات زراعية — منتجات معدنية

(شكل ١) الصادرات الرئيسية لدول شمال إفريقية حسب الأرقام فى ١٩٦١

أما الجمهورية العربية المتحدة فتظهر أهميتها بوضوح فى علاقاتها التجارية مع العالم الخارجى ، ونظرة واحدة إلى خطوط الطيران التى تتفرع من مدينة القاهرة أو عدد الطائرات الهابطة فى مطاراتها أو السفن التى تعبر قناتها أو تلجأ إلى ميناءى الاسكندرية وبور سعيد أو عدد السياح الوافدين اليها لكافية على القاء الضوء على أهمية موقعها الجغرافى ومركزها الاقتصادى .

ونفس الشىء ينطبق على جمهورية السودان التى تمثل أغلب أراضيها سهلا متسعاً كبيراً يتوقف أستغلال الأرض به كثيرا على العوامل المناخة ؛ والتى تساهم بحوالى ٧٥٪ الى ٨٥٪ من جملة صادرات الصمغ العربى فى العالم وحوالى ٨٠٪ من جملة انتاجية العالمى ، كما تساهم أيضاً بنحو ٣٥٪ من الانتاج العالمى بالنسبة للاقطان الطويله التيلة ومن ثم تأتى فى المركز الثانى بعد الجمهورية العربية المتحدة

---

(١) وبالاضافة إلى الاهمية الاقتصادية للمنطقة لفرنسا فلها أهمية حربية أخرى تتمثل فى أستخدام فرنسا لبعض القواعد البحرية والجوية الموجودة فى شمال إفريقية .

(٥٤٪) فى انتاج هذا النوع من الأقطان أى أن دولتى وادى النيـل مصر والسودان تحتكران نحو ٩٠٪ من الانتاج العالمى من الاقطان الطويلةالتيلة (١).

ولشمال غرب افريقية صفات طبيعة وحضارية تميزه عن بقية أجزاء القارة وهذا الإقليم غير محدد من الناحية الطبيعية والحضارية تحديداً واضحا غير أن التحديد السياسى هو أفضل المعايير التى تستخدم فى هذا الصدد نظراً لأنها تمـكن الباحث من جمع الإحصاءات والمعلومات الخاصة بدول هذه المنطقة التى تشمل ثلاث وحدات سياسية وهى مراكش التى أصبحت دولة مستقلة منذ عام ١٩٥٦ والجزائر التى حصلت على حريتها فى عام ١٩٦٢ بعد كفاح مرير ، ثم تونس التى غدت جمهورية فى عام ١٩٥٧ بعد حصولها على الاستقلال بعام واحد . ويرجع تاريخ الحدود السياسية لهـذه الوحدات الثلاث فيما عدا الصحراء الجزائرية الى الاحتلال العثمانى الذى كان قائما هناك منذ ما يقرب من ٤٠٠ سنة مضت . أمـا الوحدات السياسية الصغرى الأخرى الممثلةفى أفنى والصحراء الاسبانية والجيب الأسبانى فى جنوب مراكش وسبته ومليله فهذه تعود بتاريخهـا الى الوقت الذى تغلغل فيه النفوذ الإسبانى الى شمال غرب افريقية .

ويعتبر المغرب العربى من الناحية الطبيعية جزءاً من حوض البحر المتوسـط رغم وجود المؤثرات الصحراوية والبحرية وذلكلعدة أسباب نجملها فيما يأتى :ـ

أولا . لان وقوعه على هذا الحوض سمح وأعطى الفرصة له لـكى يتصـل بدول هذا الحوض منذ آلاف السنين وذلك عن طريق مضيقى جبل طـارق وصقلية وعن طريق الساحل الشمالى لإفريقية الذى يقوده الى دول الشرق العربى

---

(١) محمد سعودى ، الوطن العربى : دراسة لملامحه الجغرافيـة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٥٤٥ .

ثانيا : أن مناخه يتأثر الى حد كبير بمؤثرات البحر المتوسط سواء فى المناطق الشبه مدارية أو مناطق أستبس البحر المتوسط . ولا يشذ عن هذا التأثير إلا بعض الهضاب والجبال العالية التى بحكم أرتفاعها ، لها نظام حرارى خاص يتميز بوجود أختلافات فصيلة واضحة ، وفيما عدا الصحراء التى تتميز بالمناخ المدارى الصحراوى . ويتمثل مناخ البحر المتوسط فى ثلاث صفات رئيسية وهى سقوط الأمطار فى فصل الشتاء ودفئه ، وجفاف الصيف وأرتفاع درجة حرارته ، ووجود نسبة عالية من ساعات النهار المشمسة .

ثالثاً : يدخل المغرب العربى ضمن إقليم البحر المتوسط نظرا للتشابه الموجود بين نظام تضاريس هذه المنطقة والأراضى التى تقع فى شمال حوض البحر المتوسط ولا سيما فى وجود جبال أطلس التى تعتبر فى الواقع تتمة للنظام الألبى الذى يظهر فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والذى يمكن تتبعه من شبه جزيرة إيطاليا وعبر صقلية إلى شمال إفريقية .

وهناك فى مراكش تتفرع السلاسل الجبلية الشمالية إلى فرعين أحدهما ينثنى على هيئة قوس يظهر فى أطلس الريف ثم فى سيرأنيفادا الاسبانية وجزر البليار ، فى حين يظهر الفرع الثانى فى جبال أطلس الوسطى.أما السلسلة الجنوبية المعروفة باطلس الصحراء فى الجزائر فتصبح هى أطلس الكبرى فى مراكش إلى جانب أطلس الصغرى أو الداخلية . (شكل ٢) .

وكما هو الحال فى أراضى البحر المتوسط فى أوربا نجد أن مناطق الاستبس على مرتفعات المغرب تحدد نطاق أستغلالها رغم وجود كثافات سكانية عالية فى هذه المناطق .

ومن الظاهرات الطبوغرافية المتشابهة أيضا بين أراضى شمال البحر المتوسط

وجنوبه الغربى وجود مقدمات جبلية فيضية وسهول ساحلية تقام فيها زراعة كثيفة معتمدة على الرى .

رابعا : ومن بين العوامل الاخرى التى تجعل المغرب العربى ضمن نطاق البحر المتوسط الغطاء النباتى وأستغلال الأرض Land use فأما عن الغطاء النباتى فنجد أن معظم نباتات المغرب تنتمى إلى نوع البحر المتوسط فى حين يتميز أستغلال الأرض بوجود ثلاثة محاصيل رئيسية ترتبط باراضى البحر المتوسط وبمناخه وتتحدد بوفرة المياه وهذه النباتات هى : —

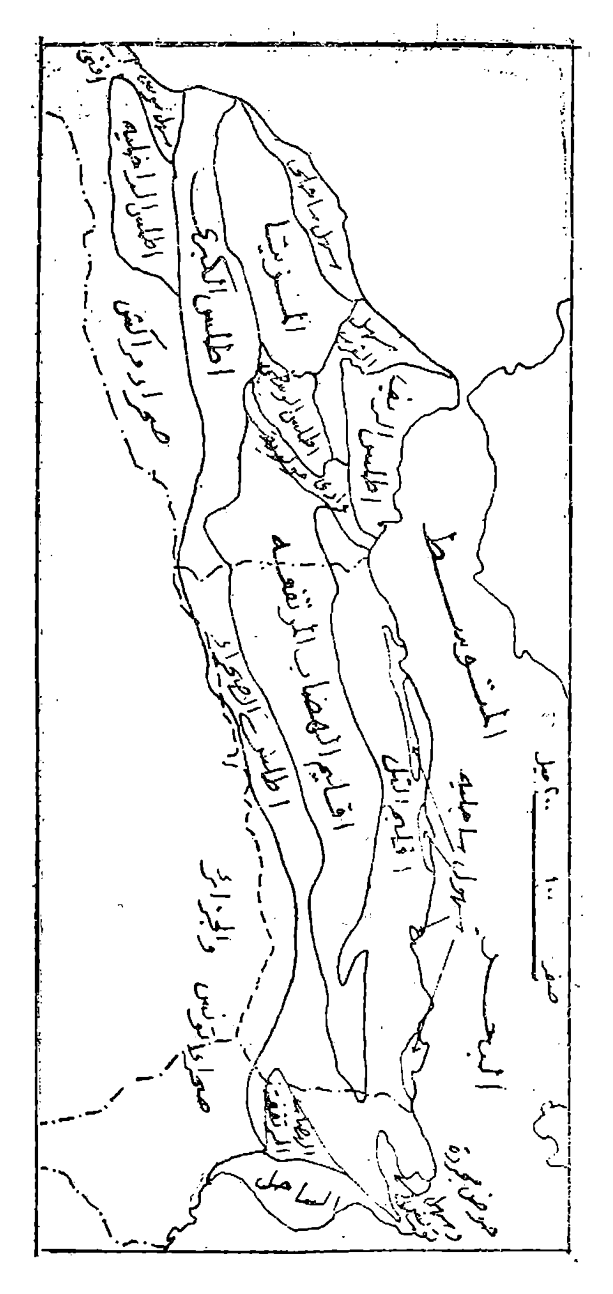
أ ـ المحاصيل التى تعتمد على مياه الأمطار التى تسقط فى الشتاء وتتمثل على وجه الخصوص فى القمح والشعير اللذين يغطيان مساحة كبيرة من الأراضى الزراعية .

ب ـ المحاصيل التى تتحمل الجفاف وتعتمد على الرى وتستطيع مقاومة جفاف الصيف بطريقة أو أخرى . وتشمل هذه المحاصيل الزيتون والتين وأشجار البلوط وبعض الأشجار الأخرى للبحر المتوسط .

جـ ـ المحاصيل التى تعتمد تماماً على الرى سواء كان رياً دائما مثل الحمضيات والكروم أو ريا سنوياً مثل الخضروات والأزهار . وهذه المحاصيل تشمل مساحة صغيرة بالنسبة لجملة المساحة المزروعة غير أنها تساهم بنصيب كبير فى تجارة الصادرات .

ومن هذا يبدو أن معظم محاصيل شمال إفريقية تشبه تلك المحاصيل الموجودة فى بلدان البحر المتوسط الاخرى .

خامساً : ومن أوجه الشبه أيضاً بين الأراضى المغربية والشاطىء الأوربى للبحر المتوسط هو وجود أعداد كبيرة من الاوربيين المستوطنين ولا سيما فى



(شكل ٢) اقاليم المغرب العربي

تونس والجزائر . وفى الواقع تبدو مظاهر الغربية « **Westernization** » أو الحضارة الأوربية فى بعض مدن شمال غرب إفريقية مثل الدار البيضاء ووهران والجزائر وعنابة وتونس .

سادساً : ولعل وجه الشبه الأخير بين المنطقتين هو أزدحام السكان إذ يبدو أن مشكلة السكان فى المغرب الكبير أكثر صعوبة من مثيلتها فى الدول المطلة على البحر المتوسط فيما عدا مصر . فنى الجزائر مثلا يوجد مايقرب من ٦٠٠ر٠٠٠ فلاح معدم لا يمتلكون من الأرض شيئاً ، إلى جانب ٤٠ ٪ من القوى العاملة فى الزراعة بدون عمل أو غير عاملة بمعنى الكلمة under employed إذ بلغ عدد العاطلين فى منتصف عام ١٩٦٣ حوالى ٨٠٠ ألف عامل ذلك بالإضافة إلى أن هناك حوالى ٥ مليون شخص قيل إنهم يعيشون فى فقر [١] ، وأن الزيادة السنوية للسكان تتراوح مابين ٢ر٦٪ و٣٪ بمعنى أن عدد سكان الجزائر سوف يتضاعف فى أقل من ٢٥ سنة .

أما فى تونس فحوالى ½ السكان يمكن أعتبارهم عاطلين بينما الأحوال فى مراكش أفضل من الدولتين السابقتين على الرغم من أن الفقر يشمل عدداً كبيراً من السكان . وفى الواقع أن تضخم السكان فى شمال إفريقية مشكلة تؤرق عضد أقتصاد المغرب العربى وتضع أساس المشاكل الاقتصادية إلى جانب الزيادة السكانية الكبيرة التى تنذر بإنفجار سكانى لا يتلاءم مع طبيعة موارد البلاد . ويزيد الطين بلة أن أرتفاع نسبة صغار السن [٢] يقابله صغر حجم القوة العاملة أو المنتجة . وبعبارة أخرى فإن العبء الاقتصادى لقطاع كبير من المجتمع

---

(1) Hance, op cit., P. 79.

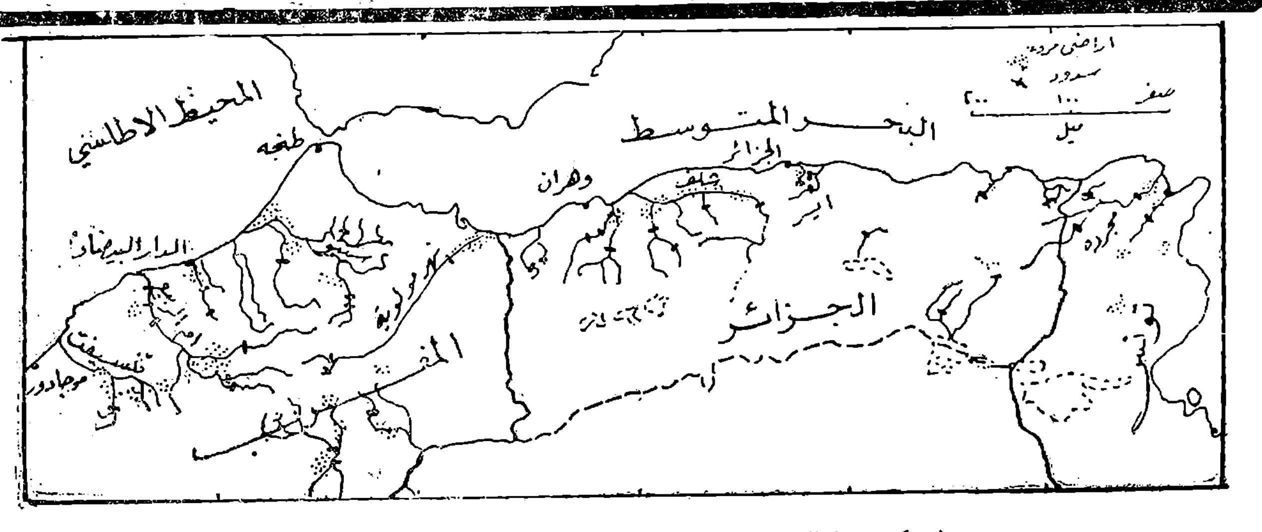
(٢) يبلغ عدد من يقل سنهم ٢٠ سنة فى تونس حوالى ٥٠ ٪ فى حين يصل عدد من يقل سنهم عن ١٤ سنة فى بلاد المغرب إلى حوالى ٤٢ ٪ .

ملقى على شريحة بسيطة من القوى الحيوية التى يتراوح أعمار أفرادها ما بين ٢٠ و ٦٠ سنة .

وإذا كان المغرب الكبير يرتبط مع دول شمال البحر المتوسط بعدد من الروابط الطبيعية إلا أن لهذا الإقليم شخصيته التى تميزه ويختلف بها فى نفس الوقت عن بقية دول البحر المتوسط . وأول هذه الاختلافات من الناحية الطبيعية هو أن مراكش أقل من دول البحر المتوسط الأخرى ارتباطاً واحتكاكاً بهذا البحر ومرد ذلك إلى طبيعة سواحلها التى تشرف عليها الجبال ولا تترك بينها وبين البحر سهلا يمكن أن يوجه مراكش صوب البحر المتوسط . ذلك إلى جانب التناقض المناخى إذ تمتد هذه المنطقة صوب الجنوب ومن ثم تبعد عن عن مؤثرات البحر المتوسط وتصبح درجة الحرارة أكثر ارتفاعاً ، كما أن كمية الأمطار تأخذ فى الانخفاض إلى أن تتلاشى ويصبح المظهر الصحراوى هو السائد وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك مساحات كبيرة من الهضاب العالية التى تنخفض درجة حرارتها فى الشتاء وتصبح أبرد من المناطق الشمالية وهى فى ذلك أقرب فى مناخها إلى مناخ مناطق الاستبس .

ومن الناحية الهيدروجرافية نجد أن المنطقة فقيرة فى مجاريها المائية فلا يوجد فى مراكش أى أنهار دائمة الجريان ولذلك فإمكانية الرى فى أى دولة من دول شمال غرب إفريقية لا يمكن أن نقارنها بجاراتها الأوربيات . (شكل ٣) .

وإلى جانب الاختلافات الطبيعية توجد اختلافات بشرية هامة فحضارة البربر أو السكان الاصليين بشمال إفريقية على طرف النقيض من حضارة شمال البحر المتوسط إذ يكون المغرب الكبير أو المغرب العربى الجناح الغربى من من العالم الإسلامى وذلك إذا ما اعتبرنا أن النيل هو محور العالم الإسلامى



(شكل ٣) السدود والانهار الرئيسية والمناطق المروية فى المغرب العربى

وأن جنوب غرب آسيا هو الجناح الشرقى لهذا العالم ، مع ملاحظة أن المغرب الكبير يضم من المسلمين مايعادل ضعف عدد المسلمين الموجـــدين فى آسيا الصغرى [١] .

ويعتبر البربر السكان الأصليين للمغرب وينتمون إلى المجموعة الحامية الشمالية وقد أختلطوا مع الجماعات العربية التى وفدت إلى المغرب ، وأعتنقوا الدين الإسلامى وتحمسوا له فى كل مكان . وقد تمكن البربر من الاحتفاظ بسيادتهم على بعض المناطق ولا سيما فى المناطق المرتفعة فى مراكش ومناطق القبائل وأوراس فى المغرب .

ويوجد فى المغرب العربى عدد كبير من العرب الذين إنحدروا من المجموعات العربية التى وفدت إلى مصر وعبرت ليبيا إلى هناك فى موجات متعددة أستمرت من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر الميلادى . ومن ثم فحوالى ثلاثة أرباع السكان يتحدثون اللغة العربية فى حين يتحدث اللغة البربرية حوالى ربع السكان . وفى المناطق الساحلية يختلط البربر والعرب ببعض العناصر الأوربية فى نفس الوقت الذى ينحصر نطـــاق الاختلاط بالعناصر الزنجية فى مناطق الواحات الجنوبية .

أما عن اليهود فى المغرب العربى فبلغ عددهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية حوالى نصف مليون نسمة ولكن يقدر عددهم فى الوقت الحاضر بأقل من ١٥٠ ألف نسمة ، الذين من بينهم ١٠٥ ألف يهودى فى مراكش و ٣٠ ألف فى تونس و ١٠ ألف فى الجزائر . وهجرة اليهود التى تتجه أساسا إلى إسرائيل

---

(١) بلغ عدد سكان تركيا فى عـــام ١٩٩٥ حوالى ٣٢ مليون نسمة وأغلبهم من المسلمين .

وفرنسا لها تأثير كبير عـــلى الحياة الجماعية لليهود فى شمال إفريقية إذ يتركز معظمهم فى المدن .

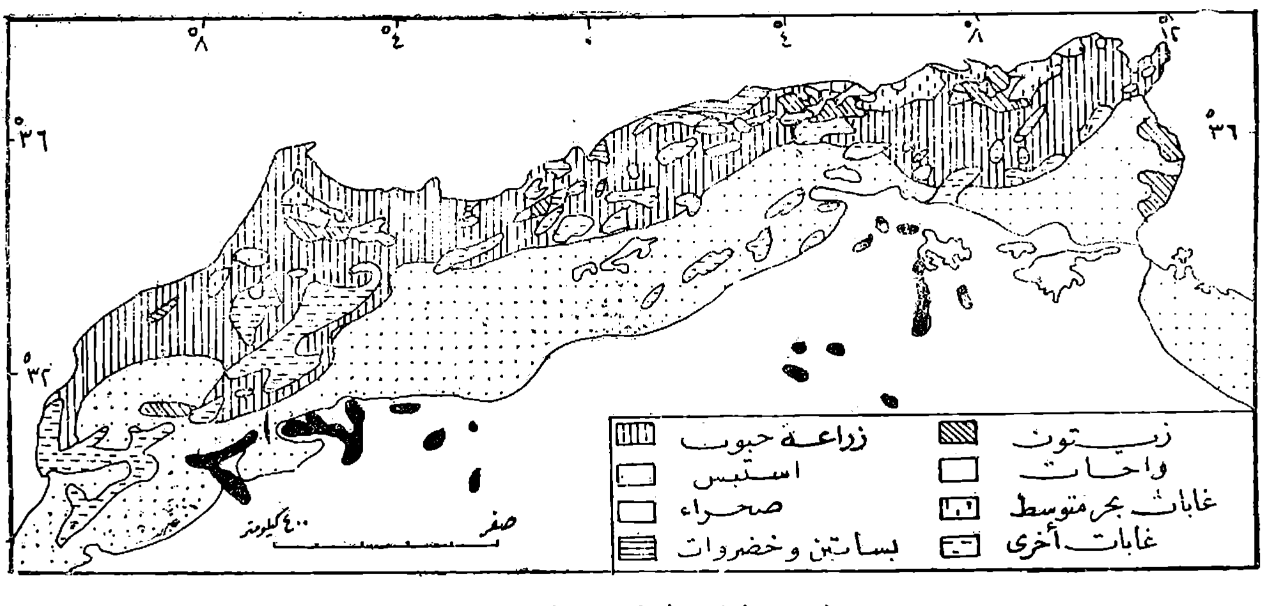
أما عن المستوطنين الأوربين فى المغرب فمن الممكن تقدير أعدادهم نظراً لازدياد هجراتهم من مراكش وتونس بعد عام ١٩٥٦ ومن الجزائر بعد عام ١٩٦٢ . ففى عام ١٩٥٦ كان يوجد فى مراكش حوالى ٤٠٠ ألف أوربى ، وفى الجزائر حوالى مليون ، وفى تونس مايقرب من ٢٥٥ ألف أوربى . وفى عام ١٩٦٣ بقى فى مراكش من الأوربين حوالى ١٤٠ ألف مستوطن فى مقابل ٤٠ ألف أوربى فى تونس و ١٣٠ ألف فى الجزائر . وتشير الدلائل إلى أن هذه الأعداد قد تناقصت بمقدار النصف أو ٢/٣ خلال الخمس السنوات الأخيرة إذ أن طرد الأوربيين من دول شمال إفريقية يمثل إنتصاراً للقوى الوطنية وفى نفس الوقت خسارة للمهارات ورأس المال والقدرة الشرائية للتجارة الأمر الذى ترك أثره الواضح فى اقتصاديات هذه البلاد .

ويوجد وجه تناقض آخـــر بين دول المغرب الكبير ودول شمال البحر المتوسط فيما يختص بنمط أستغلال الأرض . وهذا الإختلاف يرجع جزئيا الى الظروف المناخية الأقل ملاءمة وأساسيا الى التراث الحضارى لشعوب هذه المنطقة (١) . ولعل من أبرز هذه الإختلافات تلك التى تبدو فى الاهتمام الكبير برعى الحيوانات وخصوصا اهتمام البدو برعى الأغنام والماعز ، والرغبة فى المزيد من زراعة الحبوب ، وقلة إهتمام العرب والبربر بالزراعة المعتمدة على الرى وبإنتاج محاصيل ذات قيمة تصديرية كبيرة ، ذلك بالإضافة إلى إستخدامهم

---

(١) لدراسة هذه النقطة ارجع إلى :

Clarke (J.), The Maghreb : The Rural landscape, In The Western Mediterranean World, Edit. by Housten (T.M.), London, 1964. P. 667.



(شكل ٤) استغلال الارض فى المغرب العربى

فى الإنتاج الإقتصادى طرقا تقليدية قـــديمة لا تلائم التطورات الاقتصادية الحديثة .

أما عن ليبيا التى تعتبر ثالث أو رابع دولة فى إفريقية من حيث المساحة إذ تبلغ مساحتها ما يقرب من نصف مساحة الهند فنجد أن عدد سكانها لايزيد على ١٠٦ مليون نسمة من بينهم ٩٥ بالمئة مسلمين ، أما الأقلية فتتكون من الطليان (١) الذين يقطنون طرابلس ، والملطيين واليونانيين وبعض الجنسيات الأخرى . ويتركز أغلبية السكان بالقرب من ساحل البحر حيث يعيش ما يقرب من ثلثين مجموعهم حول طرابلس فى مساحة لا تزيد على ٢٠٠ ك.م٢ فى حين يتركز ربع السكان فى النطاق الساحلى الممتد من اجدابية إلى طبرق فى برقة . أما بقية ليبيا فعبارة عن صحراء لا تضم إلا قليلا من السكان يعيشون فى الواحات المتناثرة ويبلغ عددهم حوالى ١٠٠ ألف نسمة .

ونظراً لقلة الماء لا يمكن إستغلال ما بين ٥ أو ١٠ بالمئة من جملة مساحة ليبيا التى تصل إلى ١٫٧٦٠٫٠٠٠ كم مربع إستغلالا إقتصاديا فى حين الأراضى التى يمكن أن تقوم فيها حياة زراعية مستقرة لاتزيد على ١ بالمئة فقط من جملةالمساحة الكلية . وتشمل حاليا الزراعة المستقرة فى ليبيا حوالى ٤ بالمئة من جملة المساحة ذلك الى جانب نسبة ضئيلة أخرى تستغل فى الزراعة المتنقلة والرعى والغابات ، كما أن جزءاً من الأراضى الصحراوية حول الواحات يعتمد على مياه المطر (٢).

وتنحصر الأراضى الزراعية فى ليبيا فى أربع مناطق رئيسية وهى :

---

(١) يتراوح عددهم مابين ٢٠ و٣٠ ألف نسخة .

(2) The economic development of Libya, A. report of a mission organized by the international bank for reconstruction and development, Baltimore, 1963, P. 29.

أ - ساحل طرابلس ابتداء من الحدود التونسية فى الغرب حتى مصراته فى الشرق وذلك بالإضافة إلى سهل الجفارة .

ب - حواف الهضبة المحيطة بسهل الجفارة .

ه - منطقة الجبل الأخضر التى تقع بين البريقة ودرنه ويتراوح إرتفاعها ما بين ٤٥٠ - ٨٠٠ متر .

د - سهل البريقة وسهل برقة الذى يرتفع عن سطح البحر بحوالى ٣٠٠ - ٤٠٠ متر .

وحتى فى هذه المناطق نلاحظ أن الأمطار نادرة وغير منتظمة السقوط اذ تسود الصحراء معظم ليبيا كما أن المناخ حار جاف رغم أن مؤثرات البحر المتوسط تختلف فى مناطق الزراعة المستقرة فى طرابلس وبرقة عن الصحراء . ففى المناطق الأول الطقس متغير حيث يوجد فصل شتاء تسقط فيه الأمطار وتنخفض درجة الحرارة . وبصفة عامة من أهم مميزات المناخ هو أستقراره نتيجة للمؤثرات الصحراوية والبحرية التى يتعرض لها . فمعظم الأمطار ربما تحدث فى أيام قليلة ، بينما يؤثر الجفاف الشديد فى بعض الأحيان على بعض المناطق فيؤدى الى أتلاف المحصول كلية ، كما قد يأتى الجفاف فى عامين متتالين الأمر الذى يترك أثره الواضح على أقتصاد البلاد .

أما البترول فيمثل فى ليبيا مصدراً هاما للطاقة المحركة ويمكن الاعتماد عليه بصفة أساسية فى مشروعات التوسع الصناعى.وقدبدأ البحث عن زيت البترول فى ليبيا منذ عام ١٩٥٥ وبدأ الإنتاج فى عام ١٩٥٩ . ويمثل البترول فى الوقت الحاضر الدعامة الأساسية للاقتصاد الليبى اذ أن المعادن الأخرى الموجودة فى ليبيا قليلة فلا تمتلك سوى كميات كبيرة من الملح على طول سواحلها ذلك الى

جانب بعض رواسب الحديد والنطرون وكميات ضئيلة من المنجنيز . وبصفة عامة فلليبيا وضعها الجغرافى الخاص وان كانت تلحق فى بعض الأحيان بدول المغرب الكبير .

أما شمال شرق إفريقية حيث توجد الجمهورية العربية المتحدة وإلى الجنوب منها السودان نجد أن هذه المنطقة تختلف فى ظروفها الطبيعية عن شمال غرب إفريقية إذ تختفى من هذه المنطقة الجبال الالتوائية المرتفعة التى تظهر فى الأجزاء الشمالية الغربية من القارة وتصبح الظاهرة الفزيوجرافية الواضحة هى نهر النيل وواديه الذى يحمل إلى أراضى مصر والسودان التربة الخصبة والمياه الوفيرة التى مكنت سكان الوادى من تنمية حضارة زراعية راقية منذ العصر الحجرى الحديث والتى جعلت من المصريين شعباً زراعياً من الدرجة الأولى إذ يكون الفلاحون فيه ما يقرب من ٨٠ بالمئة من جملة سكانه .

وبحكم الموقع الجغرافى لهذه المنطقة ولوجود النيل كان توجيه هذا الإقليم أسيوياً إفريقيا إذ اتصلت مصر بثقافات وحضارات جنوب آسيا وأضافت عن طريق أتصالها بالجنوب ملكات جديدة وكثيرة الى شعبها فى خلال التاريخ اذ أن الهجرات السلمية وأيضا الحربية التى وفدت على مصر بحكم موقعها وتوجيهها هذا جددت من العناصر التى تكون الدماء المصرية .

وتوجيه مصر نحو الجنوب أمر فرضته الظروف الطبيعية وساعد على تثبيته الرغبة فى حسن الاستفادة من الماء الذى يجرى الى النهر من منابعة الاستوائية والحبشية ذلك الى جانب أن شمال الوادى مدين بوجودة وخصوبته للجنوب اذ تحمل مياه النيل اليه محليا ، والمعادن التى تتكون منها يمكن أن ترد الى تكوينات معينة فى الأراضى التى يجرى فيها النيل قرب منابعة .

وبالاضافة الى ذلك يمكن تلمس فضل الجنوب على الشمال وتشابك مصالح شطرى الوادى أحداهما بالآخر فى حياة الجماعات البدوية وسكان معظم الواحات المصرية الذين يعتمدون فى حياتهم اعتمادا كليا على مياه الآبار التى تغذيهـــا المياه الباطنيـــة المتسربة فى الطبقات من الجنوب . ومن هنا كان عماد الحياة البدوية المستقرة لسكان ج . ع . م . جميعا على مياه الجنوب سواء أكانت مياها جوفية أم سطحية .

والملاحظ أن الطبيعة قد أكدت هذه الوحدة بين شطرى الوادى بما هو واضح من تداخل كثير من المظاهر الطبيعية فى الشمال والجنوب ، ونظرة الى خرائط التضاريس والمناخ والنبات كافية لتوكيد هذا الترابط . فمظاهر السطح تـــكاد تجرى بنظام واحـد ، وحالة المناخ والنبـــات انما هى حالة تدرج لا يحس فيها الإنسان بانتقال فجائى بين مصر والسودان . وأما تدرج الحالة المناخية والحياة النباتية فواضح وضوحا تاما فى خرائط المناخ والنبـات لحوض النيـل ، فظاهرة الحرارة والمطر تكاد تكون متشابهة فى جميع خصائصها فى جنوب صعيد مصر وشمال السودان ، وكذلك فى نوع النبات الطبيعى والغلات الزراعية .

ويمكننا أن نقرر على ضوء هذه المناقشة أن لشمال شرق افريقية ظروفا خاصة تجعل الحدود الفاصله بين أراضى ج.ع. م. والسودان حدودا صورية أو اتفاقات إدارية اذ أن الأسس الجغرافية للحدود الصحيحة لا يتوفر فيها أساس واحد يمكن أن يستند اليه ، فليس هناك تضاريس تستدعى هذا الفصم ، وليس هناك انتقال مفاجىء يمكن أن نبرر به هـذا التحديد ، وانما تؤيد العوامل الطبيعية كلهـا هذا الاتصال والاندماج وخصوصا وان الحدود القائمة انما تقسم اراضى القبيلة الواحدة بآبارها ومراعيها وتترك جزءا منها داخل الأراضى السودانية والجـزء الآخر ضمن حدود الجمهورية العربيـة المتحدة وينهض مثل على ذلك البشاريون الذين

تفرق الحدود السياسية بطونهم وتخلق المشاكل القبلية بينهم بسبب تقسيم الآبار ومناطق الرعى (١) .

وإذا كانت الروابط المادية تعطى لدولتى شمال شرقى إفريقية وحدة اقليمية فإن تكوين السكان يبين مدى ترابط واتصال الشمال بالجنوب ، فالأثر الحامى فى سكان السودان هو الأثر الذى يرتبط إرتباط وثيقا بسكان مصر والنوبة إذ ساهمت الموجات الحامية مساهمة أساسية فى التكوين الجنسى لسكان السودان على أختلاف ما يسكنون من أقاليم ، ولكن موقع السودان قريب من مواطن الزنوج فى وسط افريقية وغربيها وعدم وجود الحواجز الطبيعية التى تمنـــع وصول الأثر الزنجى إلى جهات السودان ، كل هذا كان من العـــوامل التى جعلت الأثر الحامى فى هذا الجزء من وادى النيل أقل وضوحا مما هو فى بلاد النوبة وفى الجمهورية العربية المتحدة . وعلى أى حال فهذا الأثر قوى جدا فى الجزء الشرقى من وادى النيل وخصوصا فى المنطقة التى تسكنها جماعات البجاة .

ولا يقتصر أثر الترابط بين الجهورية العربية المتحدة والسودان على العناصر المادية فحسب بل تشمل أيضا الآثار الثقافية التى ترجع روابطها القوية الى صلات متناهية فى القدم تعود ال عصر الاسرات . وليس فى هذا غرابة اذ تساعد الطبيعية هذا الانصال والارتباط بين المجموعات المختلفة التى تعمـــر الوادى . ويكفى أن نذكر أنه على الرغم من النوبة أستطاعت أن تصمد أمام المسلمين الذين دخلوا الى مصر منذ القرن ٧ م الا أنها مع ذلك لم تمنـــع تسرب الثقافة الاسلامية والمسلمين الى بلاد النوبة اذ أخذت قبائل جهينة وبنى العباس تهاجر

(١) أنظر — عباس عمار — وحدة وادى النيل ، أسسها الطبيعة والأنثوجرافية والثقافية والاقتصـادية . نشرت فى « وحـدة وادى النيـل أسسها الجغرافية ومظـاهرها فى التـاريخ القاهرة — ١٩٤٩ .

منذ الفتح الى بلاد النوبة حيث نجحت فى صبغ هذه البلاد بالصبغة العربية الاسلامية وكان هذا ايذانا بانقلاب ثقافى ربط السودان بالعالم العربى والثقافة الاسلامية، كما نزع السودان وأهله من طابع الثقافة الإفريقى الى هذا الطابع الآسيوى . وهكذا ظل يرنو الى وجهة زعامته الثقافية والروحية الى الجمهورية العربية المتحدة أو القبلة الشمالية التى أتجه اليها دائما .

هذه هى الملامح الرئيسية المكونة لشخصية سكان وشعوب دول شمال افريقية والتى تطبع هذه المنطقة من العالم بطابع خاص يمتـــاز بالتجانس وفى نفس الوقت بالتنوع . وهذه الحقيقة سوف تبينها الدراسة فى الفصول القادمة .

شمال إفريقية

دراسة في الجغرافية التاريخية

الفصل الأول

المسرح الجغرافى لشمال إفريقية اثنـــاء عصر البلايستوسين

« نظرة عامة ـ الصحراء فى فترة ماقبل التاريخ ـ الصحراء الليبية وصحراء مصر الغربية ـ منخفض الخارجة ـ منخفض الفيوم ـ النيل والصحراء الشرقية ـ الساحل الشمالى فى فترة ماقبل التاريخ ـ ربط التغيرات المناخية والنباتية والبيئة فى شمال إفريقية بالحضارات الانسانية أثناء عصر البلايستوسين »

الفصل الأول

المسرح الجغرافى لشمال إفريقية

أثناء عصر البلايستوسين

نظرة عـامة :

لعل من أهم المظاهر الفيزيوجرافية التى تظهر فى البيئة الجغرافية لشمال إفريقية هـو وجـود ذلك النطاق الصحراوى الكبير المعـروف باسم الصحراء الكبرى وهذا السهل الساحلى الذى يمتد على طول الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط من المحيط الأطلسى غرباً وحتى سواحل آسيا شرقاً .

وعلى الرغم من أن الأقاليم التى تدخل فى نطاق بحث هذا الكتاب تقع على التخوم أو الحدود الشمالية لهذه الصحراء إلا أن تفهم الجغرافيا التاريخية لشمال إفريقية يعتمد أعتماداً كبيراً على تفهم طبيعة هـذه الصحراء سواء كان ذلك فى الماضى أو فى الحاضر . ذلك بالاضافة إلى أن الصحراء تكون جـزءاً كبيراً من مساحة معظم الوحـدات السياسة فى شمال إفريقية زد عـــلى ذلك فان دراسة الصحراء فى عصر البلايستوسين عـلى جانب كبير من الأهمية إذ تبرز كثيراً من أوجه الاختلاف بين جغرافية الصحراء فى الماضى والحاضر . أما الاقليم الساحلى فقد لعب دوراً رئيساً فى مجرى الأحداث التى مرت بشمال إفريقية سواء ما كان منها فى فترة ما قبل التاريخ أو فى أثناء التاريخ ذاته . ويضم هذا الأقليم وادى النيل من ناحية وبلاد المغرب من ناحية أخرى ذلك بالاضافة إلى ليبيا وتونس والجزائر . ويمكن تحديد هذا الاقليم من الناحية الجغرافية بالاراضى التى تقع

إلى الشمال من الصحراء متمشية بالمعنى الدقيق مع مجموعة جبال أطلس وسهولها الساحلية .

وتبلغ مساحة هذا الاقليم حوالى ٢٨٠ ألف ميل ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب حوالى ١٤٠٠ ميل فى حين يصل عرضه من الشمال إلى الجنوب حوالى ٢٠٠ ميل . وهذه المنطقة مغطاة فى معظم أجزائها بغابات دائمة الخضرة من نوع البحر المتوسط التى من بين أشجارها الزيتون والسنديان والبلوط وبعبارة أخرى فهى تشبه فى صفاتها العامة – وتحت الظروف الطبيعية العادية – بيئة جنوب ووسط أسبانيا .

أما بالنسبة لحيواناتها فتحتوى على القطعان الإفريقية التى من بينها الماشية Barbary Sheep والغزلان . ومعنى ذلك أن الحيوانات إفريقية الأصل ولا تشتمل إلا على نسبة صغيرة من الحيوانات القادمة من الشمال أو الشرق .

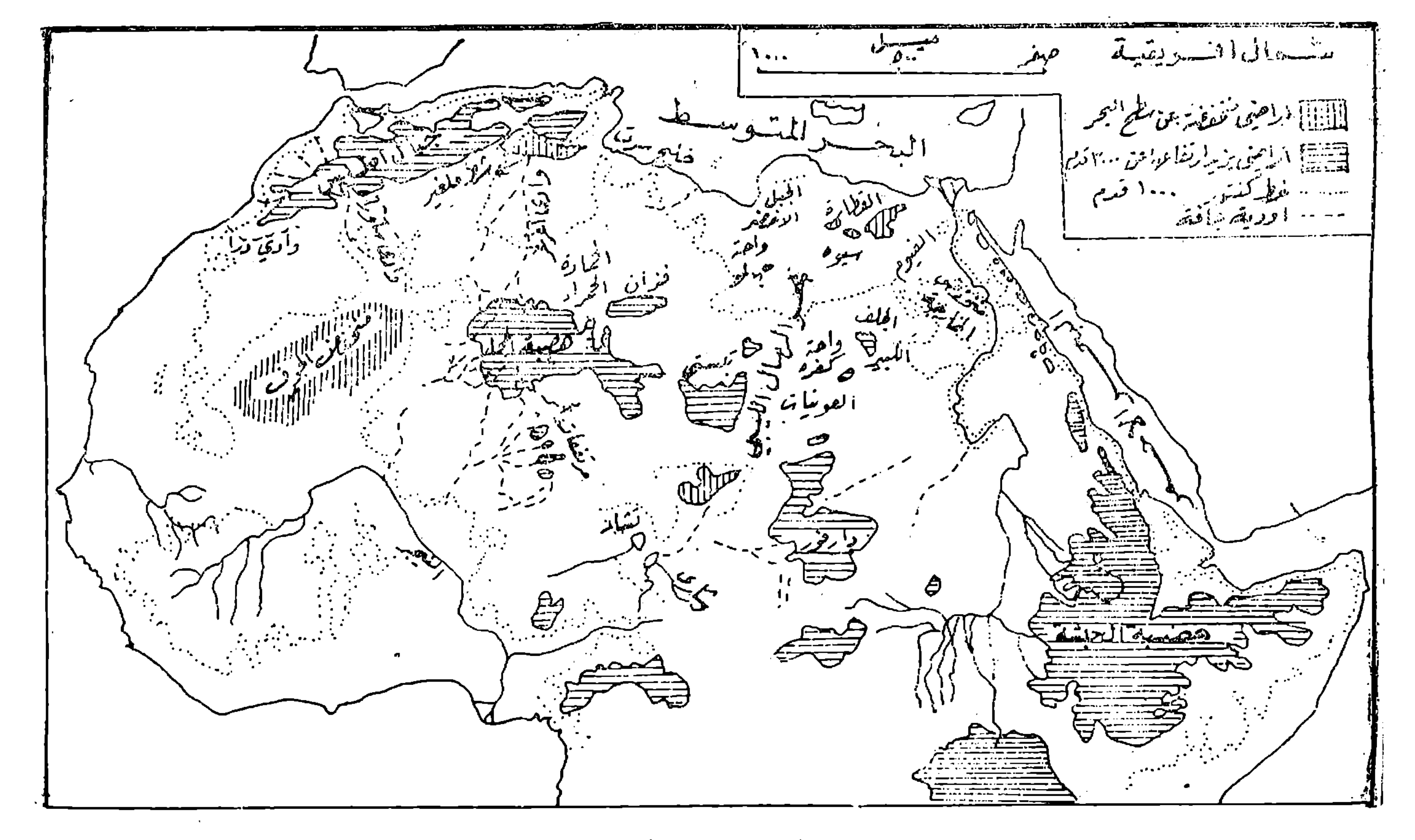
وفى المغرب يوجد أختلاف كبير بين حياة الحيوانات التى تعيش فى النطاق الساحلى وتلك التى تقطن مناطق الاستبس بالداخل إذ أن المنطقة الاخيرة تمثل منطقة قليلة الكثافة السكانية تعتمد حرفة الرعى فيها على مقدار مايصيبها من أمطار ومن ثم فالتحركات الفصلية Transhumance للانسان والحيوان معاً تمثل ظاهرة هامة فى مناطق الاستبس . فبعض الحيوانات كالنعام والغزال والذئاب تعيش على أطراف الصحراء ، ولكن الحيوانات الأخرى الأكثر أهمية للانسان تهاجر بانتظام إلى الاستبس فى موسم الأمطار الشتوية ثم تعود مرة ثانية إلى حشائش الماكى Maquis والمراعى الجبلية فى فصل موسم الصيف الجاف . وبصفة عامة فالحياة الحيوانية والنباتية والمناخة فى الاقليم الساحلى تختلف عن الحياة فى بقية أجزاء إفريقية المدارية فى أنها تتبع مناخ ونبات البحر المتوسط .

أما الصحراء فترجع أهميتها إلى عوامل متعددة لعل أهمها موقعها الجغرافى بين نطاقات مناخية وأراضى مختلفة إذ تقع بين نطاق البحر المتوسط وغـرب أوربا شمالا والنطاق السودانى والشبه موسمى فى الجنـوب (شكل ٥) ذلك بالاضافة إلى أن الحد الفاصل بين الصحراء والاقاليم المجاورة لهـا — سواء أكانت الاقاليم الشمالية أو الجنوبية — ليست حداً واضحاً المعالم من الناحية المناخية والنباتية .

وأهمية هـذا الموقع الجغرافى تتمثل فى أنه إلى الشمال الغربى من النطاق الصحراوى الإفريقى يوجد غرب أوربا الذى يتصل بإفريقية عبر مضيق جبل طارق وشبه جزيرة ايبريا . وعن هـذا الطريق اتجهت الهجرات البشرية ابان العصور الحجرية القديمة إلى أوربا حيث تأثرت هناك بالتذبذبات المناخية والتغيرات النباتية والحيوانية . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أرتدت هجرات من أوربا إلى شمال إفريقية ومن ثم كان لهـذه الهجرات تأثير كبير على البيئة الطبيعية Natural Milieu فى شمال غرب إفريقية وأيضاً فى شبه جزيرة ايبريا .

وفى الواقع لم يكن البحر المتوسط حاجزاً حقيقياً بين ساحل إفريقية الشمالى وأوربا ابان عصر البلايستوسين أو أى فترة أخرى وذلك على الرغم من أنه قد أصبح معروفاً لدى المهتمين بدراسة الزمن الرابع أنه لم يكن هناك فى أى وقت من الأوقات ممراً برياً يصل قارتى إفريقية وأوربا سويا (١) إذ كان مضيقا جبل طارق وصقلية مغمورين بالمياه على الأقل منذ آواخر عصر البلايوسين ، كما أن البحر المتوسط لم يكن ينقسم فى عصر البلايستوسين إلى بحيرتين رغم أن بعض

(1) S. A. Huzayyin, changes in climate, vegetation and human adjustment in the Sahara-Arabian belt with a special reference to Africa, in Man's role in changing the face of the earth, Edit. by Thomas, Chicago, 1956, P. 306.



(شكل ٥) شمال إفريقية

الجزر مثل جزيرة صقلية وجزر سيكلاديس كانت تتصل باليابس الأوربى. على أى حال أستطاعت الجماعات البشرية الموجودة فى إفريقية أثناء العصر الحجرى القديم أن تبقى على أتصالها بأوربا عن طريقى آسيا الصغرى ومضيق جبل طارق.

وبالاضافة إلى الأهمية السابقة يتصل النطاق الصحراوى وشمال إفريقية بالأراضى الموسمية فى آسيا عن طريق هضبة إيران وبلاد العرب الأمر الذى أدى إلى أن يتصل هذا الاقليم بالتطورات الحضارية التى حدثت فى جنوب غرب آسيا فتأثر بها وأثر فيها.

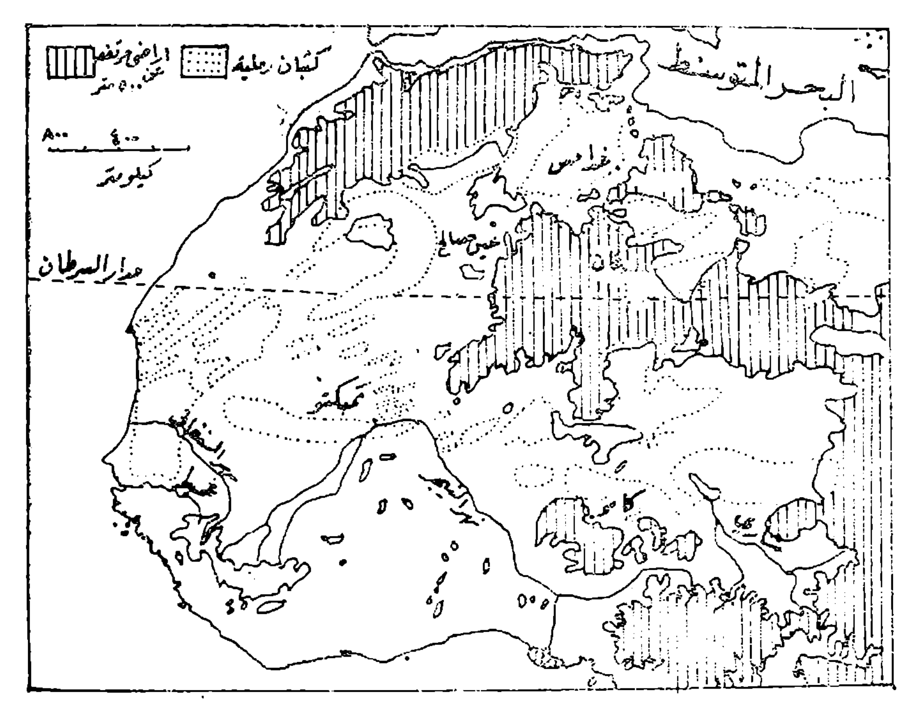
وتمثل الصحراء الكبرى أكبر نطاق جاف فى العالم إذ يقع معظم أجزائها بين خطى عرض ٢٠ درجة ، ٣٥ درجة شمالا . وبصفة عامة يمكن القول أن الصحراء تشمل معظم الأراضى الجافة التى تمتد عبر القارة الإفريقية من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً وذلك لمسافة تقرب من ٣٥٠٠ ميل ، بينما يبلغ متوسط طولها من الشمال الى الجنوب حوالى ١١٠٠ ميل ولا يقل العرض فى أى منطقة من المناطق عن ١٠٠٠ ميل .

ولا يسقط فى هذه الصحراء المترامية الأطراف التى تصل مساحتها الى ٤ مليون ميل ٢ الا النذر اليسير من الأمطار التى لا تسقط بانتظام ولا تزيد على خمس بوصات سنويا فى أى مكان بل تصل الى دون ذلك المتوسط فى كثير من الجهات (شكل ٦).

ومعنى ذلك أن المجارى المائية الدائمة الجريان — فيما عدا نهر النيل — غير موجودة وان الحصول على المياه أمر صعب ومن ثم فإن الآبار التى تتجمع فيها

المياه تعتمد أعتماداً كليا فى معظم الأحيان على الآبار المحفورة والينابيع الإرتوازية التى تستمد مياهها من المصادر الجوفية [١] .

أما النباتات الطبيعية التى تنمو هنا فعلى الرغم من قلتها الا أنها تعطينا صورة عن طبيعة الحياة النباتية فى الصحراء الحارة اذ تتناثر هنا وهناك فى بقع متباعدة الشجيرات الصحراوية التى تتحول الى حشائش بالقرب من حدود الصحراء ، وتغطى الحشائش الصحراوية حوالى ٦٠ بالمئة من المساحة الكلية للصحراء .



شكل (٦) الصحراء الكبرى

وعلى طول حدود الصحراء الشمالية والجنوبية تبدأ النباتات الصحراوية فى

---

(1) Stamp, L. D., Africa; A study in tropical development, London, 1964, PP. 84-86.

الظهور بوضوح حيث تستقبل قدراً من الأمطار الفصلية التي تسقط بانتظام في فترات معينة ، ومن ثم ما يلبث المظهر الصحراوي أن ينتهي ليعطي مجالا لظهور حياة نباتية جديدة تمتاز بالكثافة والدوام ، حتى ولو كان هذا فصليا وهذا أمر واضح سواء أكان في شمال الصحراء أو في السودان في جنوبها . فعلى طول الحدود الجنوبية للصحراء يوجد نطاق من الأستبس أو السافانا يبلغ متوسط عرضه حوالي ٣٠٠ ميل ويتدرج بدوره إلى الغابات المدارية التي توجد بين خطي عرض ١٥ درجة - ١٠ درجات شمالا .

أما عن الحد الشمالي للصحراء فيمتد على طوله من المحيط الأطلسي غرباً إلى خليج السويس شرقاً نطاق مشابه من الاستبس الجنوبي غير أنه أصغر من حيث المساحة إذ يتراوح عرضه ما بين ٥٠ — ١٠٠ ميل وذلك في الأجزاء الغربية على حين يقل عن ذلك كثيراً في الشرق .

ويتميز الجزء الغربي من الصحراء بوجود المناطق الجبلية التي تغطيها الحشائش الدائمة الخضرة والغابات المخروطية التي تمتد على طول الساحل ابتداء من الحدود الجنوبية لمراكش نحو الشمال لمسافة ١٤٠٠ ميل حتى خليج قابس، كما يظهر نطاق نباتي مشابه في شمال برقة ويبلغ طوله حوالي ٢٥٠ ميل ذلك إلى جانب الغطاء النباتي الذي يوجد في منطقتي تبستي والحجار في وسط الصحراء والذي يحمل كثيراً من صفات الغطاء النباتي الموجود في الشمال (١) .

---

(١) تغطي مرتفعات الحجاز نباتات مختلطة الأصل فقليل منها ينتمي إلى أنواع الأستوائية والشبه استوائية في حين ينتمي أغلبها إلى الأنواع السودانية والاثيوبية ،وبعضها الآخر ينتمي إلى نباتات الجزائر والبحر المتوسط . وكل هذا يشير إلى أن كمية التساقط في الصحراء الكبرى كانت ولا بد أعظم بكثير مما هي عليه في الوقت الحاضر وذلك في أثناء فترة جيولوجية حديثة لان هذا التساقط الغزير هو الذي مكن هجرة أنواع النباتات المختلفة من الشمال أو من الجنوب صوب أقليم الحجار .

وبدون شك تعكس الحياة النباتية الظروف المناخية السائدة فى المنطقة والتى تؤثر فى نمط الحياة الموجودة والتى قد تأثرت إلى حد كبير بالمظاهر الطبوغرافية والمعالم التضاريسية والتكوين الجيولوجى والتطور التاريخى للمنطقة. فالصحراء يتكون الجزء الاكبر منها من كتلة صلبة قديمة تشبه الكتلة السيبيريه القديمة التى بقيت ثابتة منذ الزمن الأول Palaeozoic . ولعل أهم التغيرات التى أصابتها هى حركة الالتواءات التى تمخض عنها ظهور سلسلة جبال اطلس التى تمتد من خليج قابس إلى مراكش ، وظهور مرتفعات البحر الاحمر . ذلك بالاضافة إلى حركة الارتفاع البسيطة التى اصابات ساحل برقة .

هذا ومن السهل تأريخ كل هذه الاحداث الجيولوجية إذ تبين أن سلسلة جبال اطلس ترجع إلى الحركة الألبية التى حدثت فى أواخر الزمن الثالث واوائل الزمن الرابع ، بينما ترتبط مرتفعات البحر الأحمر بالحركات الارضية التى صاحبت تكوين الاخدود الإفريقى العظيم فى شرق إفريقية (١) . وفى نفس الوقت تتصل حركة الرفع التى كونت مرتفعات شمال برقة بزمن تكوين مرتفعات البحر الأحمر .

أما من ناحية التضاريس فلعل جبال أطلس تمثل ابرز المعالم التضاريسية التى توجد فى أغزر الجهات امطارا والتى يتخذ منها مثلا لبيان التدرج النباتى واثره على الحياة البشرية فى المنطقة، وتشبه جبال أطلس تلك المرتفعات التى توجد على ساحل طرابلس وبرقة مع فارق أن المناطق الاخيرة أقل ارتفاعا من جبال اطلس .

وفى الواقع لا يقتصر ظهور جبال اطلس فى شمال غرب النطاق الساحلى

---

(١) *Ibid, P. 49.*

فحسب بل يوجد نطاق صغير من اطلس الكبرى فى جبل نفوسه بالقرب من ساحل طرابلس. وهذا النطاق تفصله عن جبال أطلس مسافة قصيرة من الصحراء وذلك على النقيض من صحراء سرت التى تفصل طرابلس عن برقة إذ يبلغ طول الصحراء الأخيرة نحو ٨٠٠ ميل ، ولا يوجد فى هذه المسافة الطويلة سوى ثلاثة مراكز هامة لتموين المياه .

أما عن منطقة الجبل الأخضر الخصبة فعلى الرغم من أنها أصغر من جبال اطلس (١) إلا أن لها أهمية كبرى فى كونها محطة طبيعية Natural Staging Post إلى جانب النيل بين المغرب وآسيا . وتبلغ المسافة بين الجبل الأخضر والنيل حوالى ٦٠٠ ميل وهى عبارة عن منطقة شبه صحراوية إذ أنها أقل جفافاً من صحراء سرت .

هذا وتوجد المياه بوفرة فى مرتفعات إطلس غير أن توزيع الحياة النباتية يختلف تبعاً لكمية الأمطار ، كما يوجـــد فى نفس الوقت أنواع من النباتات والحيوانات تدل دراستها على أنها عاشت لفترة طويلة من الزمن داخل هذه الحدود . ولعل خير مثل على ذلك بعض الحيوانات التى قدمت إلى شمال إفريقية من أوطان أخرى حيث انعزلت عن موطنها الاصلى ولاءمت نفسها للمعيشة فى بيئة جديدة ومن ثم عمرت .

وإلى جانب المرتفعات الإلتوائية من جبال اطلس ويوجد فى ليبيا مجموعتان رئيسيتان من المرتفعات يجدر الاشارة إليهما نظرا لاهميتهما فى دراسة الجغرافية التاريخية للمنطقة وهما مرتفعات الحجار Hoggar وتبستى Tibesti اللتان تكونان منطقتين جبليتين حديثتا التكوين تفصلهما منطقة أقل إنخفاضاً منهما يبلغ متوسط

(١) عبد العزيز طريح — جغرافية ليبيا — الاسكندرية — ١٩٦٢ — من ص ١١٥ إلى ص ١٢٣

ارتفاعها حوالى ٦٠٠٠ قدم فى حين يصل ارتفاع قمة الحجار إلى ٩٨٠٠ قدم وتبستى إلى ١١٠٠٠ قدم [١] .

وتضم مرتفعات الحجار عددا من الهضاب الوعرة التى تعرضة لعوامل التعرية فأزالت الكثير من صخورها السطحية . ويفصل هذه الهضاب بعضها عن بعض وديان جوانبها شديدة الانحدار حفرتها المياه والسيول عند انحدارها على جوانب المرتفعات . ومن المرجح أن تكون معظم هذه الوديان قد حفرت فى الزمن الجيولوجى الرابع عندما كانت امطار الصحراء أكثر منها فى الوقت الحاضر. ولقد كانت للتعرية المائية دخل كبير فى تشكيلى هذه الجبال كما أن للمياه الجارية كذلك تأثير على طبوغرافية المنطقة حيث عملت على حفر كثير من جوانب المرتفعات وحولها. ومعظم هذه الوديان لا تجرى فيها فى الوقت الحاضر أى مياه اللهم إلا فى حالات نادرة عند سقوط امطار غزيرة .

أما مجموعة تبستى فهى عبارة عن كتلة ضخمة تقع على بعد ١٦٠٠ ك. م. تقريباً إلى الشرق من كتلة الحجار وتغطى منطقة قطرها ٣٨٠ ك. م. وقد قطعت مرتفعات تبستى هى الأخرى بواسطة كثير من الوديان التى حفرتها مياه العصر المطير [٢].

---

(١) توجد قمتان لهضبة تبستى أحدهما يصل ارتفاعها إلى ١٠٫٠٠٠ قدم والأخرى إلى ١١٫٥ ألف قدم .

(٢) ليس لمرتفعات الحجار وتبستى أى تأثير على المناخ حاليا وذلك على النقيض من الدور الذى لعبته هذه المرتفعات إبان العصر المطير . إذا كانت الرياح المحمولة للابخرة تصطدم بها فتسقط الامطار عليها ومن ثم تندفع على جوانب المنحدرات إلى الصحراء وحسب الاتجاه العام كانت تكون مجارى ومسيلات مائية تنزل إلى السهول بقوة هائلة وتصب فى المنطقة المحصورة بين الحجار والساحل الشمالى .

ولعل من أهم الاودية التى تكونت بهذه الطريقة وادى اغرغر المشهور الذى يبدأ من =

ويرجع سبب تكوين هذه المرتفعات إلى النشاط البركانى الذى حدث فى أثناء عصر البلايستوسين رغم أن بعض الباحثين يرجع جبال الحجار إلى اواخر الزمن الثالث .

هذا وتوجد مناطق أخرى أصغر حجما من تبستى والحجار وتأثرت بالنشاط البركانى مثل جبل العوينات الذى يقع إلى جنوب شرق الحجار والجاف الكبير الذى يرتفع فجأة فى الصحراء فى منتصف الطريق بين هضبة تبستى والنيل وجبل السودا بجنوب طرابلس . وكل هذه المرتفعات ظهرت نتيجة لحركات العنف التى سبق ذكرها مع ملاحظة أن خليج سرت ربما يرتبط نشأته أيضا بالاضطرابات الالتوائية .

ومن المظاهر الفيزيوجرافية الأخرى الموجودة فى الصحراء الاحواض المنخفضة التى ساعد وجودها على نشأة كثير من الواحات. وذلك لسهولة الحصول على المياه الباطنية منها . وهذه الواحات بعضها صغير وبعضها عظيم المساحة وتوجد فى أجزاء متناثرة فى الصحراء الكبرى .

ففى ليبيا مثلا توجد هذه المنخفضات على هيئة نطاقين احدهما فى الشمال حول خط عرض ٢٩ درجة شمالا ويبتدأ من واحة جغبوب فى الشرق ثم يمتد غربا ويشمل واحات جالو وأوجيلة ومرادة والجوف وينتهى بواحة غدامس قرب الحدود التونسية الجزائرية . والنطاق الثانى يقع إلى الجنوب ما بين خطى عرض ٢٣ درجة، ٢٦ درجة شمالا ويمثل بمجموعة واحات الكفرة ومجموعة واحات

=هضبة الحجار ويتجه شمالا إلى داخل منخفض توغرت ويمكن تتبع مجراه القديم لمسافة حوالى ٧٠٠ ميل من منبعه .

هذا ويمكن القول بصفة عامة أن الامطار أقل بكثير من حيث كمياتها وانتظامها عن قبل ومن ثم فأصبح أثرها ضعيفاً فى تشكيل مورفولوجية السطح الحالى بل يكاد ينعدم .

فزان التى تتبعها واحة غات (١).

وبالاضافة إلى التباين الواضح فى الارتفاع بين مراكز الواحات والمناطق الجبلية الالتوائية فيوجد فى الصحراء تبايناً كبيراً فى نوع التكوينات التى تغطى سطح الارض فهناك التكوينات الآتية :

ا — مناطق عظيمة الاتساع تغطيها صخور شديدة الصلابة عارية من الرواسب الرملية والحصوية وذلك بسبب فعل الرياح. وهذه المناطق يطلق عليها العرب اسم الحمادة Hammada وأشهرها الحمادة الحمراء التى تبلغ مساحتها مايقرب من ١٠٠٫٠٠٠ ك. م. مربع وتمتد من الحدود الجزائرية فى الغرب حتى واحة الجوف فى الشرق .

ب — وإلى جانب مناطق الحمادة الحمراء توجد مساحة أخرى واسعة من الصحراء تغطى سطحها طبقات من الزلط والحصى أو الرمال الخشنة ويطلق عليها اسم مناطق السرير Serir أو مناطق الحصى وهى مناطق مستوية السطح بصفة عامة . ولعل من أهم مناطق السرير فى الصحراء الكبرى منطقة « سرير كالانشو » التى تمتد من الحدود المصرية صـــوب الشرق إلى الاراضى الليبية وذلك لمسافة ٦٠٠ ك. م. وتشمل المنطقة مابين واحة تازربو من واحات الكفرة فى الجنوب وواحة جالو فى الشمال .

حـ — أما المناطق التى يتغطى سطح الصحراء فيها بالرمال الناعمة أو الكثبان الرملية التى تظهر على شكل تلال قليلة الارتفاع فتنتشر فى الصحراء الكبرى وتعرف بأسماء محلية خاصة « كالعرق » و « الادهان » و « الرملة » ومن أمثلتها

---

(١) المرجع السابق ص ٨٠ .

بحر الرمال العظيم الذى يمتد فى نطاق كبير حول الحدود المصرية الليبية إلى الجنوب من واحة جغبوب .

وهذه التكوينات لها أهمية كبرى إذ فى محاولتنا التعرف على التغيرات المناخية التى حدثت فى شمال إفريقية أثنـــاء الزمن الرابع لابد من دراسة التكوينات المختلفة الموجودة فى الصحراء التى عن طريقها يمكن التوصل إلى الحالة السائدة هناك . فمثلا الكثبان الرملية أو الرمال البحرية تشير إلى وجود فترة جفاف ، فى حين الأودية الجافة والرواسب البحرية وتكوينات التوفا والترافرتين Travertines تشير إلى وجود فترات رطبة كما أن شكل التكوينات قد يلقى الضوء أيضا على بعض مظاهر المناخ القديم ، فاتجاه الكثبان الرملية المتحجرة Fossil Sand dune ربما تشير إلى اتجاه الرياح السائدة . كذلك يشير طول وامتداد بعض الأدوية الجافة كتلك التى توجد فى الصحراء المصرية وصحراء ليبيا إلى المظهر المناخى والنباتى الذى كان سائداً فى شمال إفريقية والنطاق الصحراوى إبان تكوينها .

وبالمثل يوجد فى الصحراء بعض المنخفضات التى كونتها التعرية الهوائية مثل منخفض بسكرة ومنخفض الفيوم والذى يشير شكلها وامتدادهما إلى طبيعة وقوة الرياح التى ساعدت على تكوينها (١) .

---

(1) Mc Burney, C.B.M., The Stonecof Northeen of Africa, A Pelican book, 1960, P.67.

الصحراء فى فترة ما قبل التاريخ

لقد سبق أن ذكرنا أن الصحراء الكبرى تكون جزءاً من المنطقة الدائمة الجفاف الموجودة على سطح الارض . وقد أشار أستاذ ا . ف . جاوتيه E.F.Gautier فى كتاباته [١] إلى إحدى الظاهرات الهامة التى تؤيدها هذه الحقيقة إذ يذكر أنه يوجد مسطحات صحراوية كبيرة تغطيها طبقة من الأحجار الرملية التى ترجع إلى فترات قديمة ، وتشبه فى تكوينها رمال « العرق » الموجودة حاليا فى الصحراء الكبرى. ذلك بالاضافة إلى أن دراسة هذه الاحجار الرملية تبين أن هناك تشابهاً فى تكوينها فى جميع الاماكن التى وجدت بها ابتداء من مراكش فى الغرب وحتى النوبة فى الشرق وربما تأخذ هذه الظاهرة كدليل على أن كل هذه المنطقة كانت منطقة صحراوية فى الماضى غير أن الحقيقة تثبت أن هذه الاحجار تختلف أختلافا كبيرا من حيث أعمارها وتنتمى إلى أزمنة جيلولوجية مختلفة .

ومعنى ذلك أنه ربما نفترض أن هذه الصحراء لم تكن نتيجة لظروف خاصة وأحوال جغرافية معينة حدثت فى الزمن الرابع ، وهذا أمر ينافى بطبيعة الحال الحقيقة التى تثبت أن هذه المنطقة تعرضت لتغيرات مستمرة فى عصر البلايستوسين والادلة التى تؤيد ذلك يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية وهى [٢] :

أ ـ الادلة البيولوجية — Biological Indications

ب ـ الادلة الفيزيوجرافية — Physiographical Indications

---

(١) أنظر ماركبورنى ص ٧٠ وأيضاً

E.F. Gautier, Le Sahara, collection Payot, Paris, 1949.

2 - Huzayyin, op-cit, P. 307.

حـ ـ الادلة الاركولوجية Archaeological Indications

وفى الواقع لكى نكون صورة واضحة عن المسرح الجغرافى الذى لعبت الإنسانية فوقه ادوارها فى شمال إفريقية أثناء عصر البلايستوسين لا بد من فحص جميع هـــذه الادلة التى تضم الادلة الفيزيوجرافية والحيوانية والنباتية والبشرية ، غير أن البحث عن هذه الادلة بالنسبة للصحراء الكبرى أمر صعب وذلك لأن الصحراء عبارة عن أرض واسعة عظيمة الرقعة والامتداد جرداء تتسم بالجفاف وقلة العمران .

على أى حال فلعل ابرز الادلة الثلاثة السابقة هى الادلة النباتية والحيوانية التى توجد فى مجموعات منعزله تعيش فى الوقت الحاضر فى بعض الاماكن البعيدة عن موطنها الأصلى والتى لا يمكن تصور هجرتها إلى هذه المناطق تحت الظروف المناخية الحالية . فعلى سبيل المثال وجد فى هضبة تبستى ومرتفعات الحجار بعض التماسيح التى لا تعيش إلا فى وسط افريقية، كذلك وجدت بقايا بعض أسماك وسط إفريقية وهى المعروفه باسم Clarias Lazera فى واحة بسكرة فى جنوب تونس وكانت مصاحبة لبعض أنواع الاحياء الأخرى المشابهة فى أصلها مثل ثعابين الكوبرا . وتفسير هذه الاكتشافات لم يفهم بطبيعة الحال فهما صحيحا إلا فى ضوء دراسة الأدلة الأخرى التى تعين الباحث على شرح البيئة الجغرافية فى الماضى .

وتدل الدراسات على أنه عثر فى مناطق الواحات والابار المتناثرة فى الصحراء الكبرى على أنواع من الحيوانات لا تعيش فى الوقت الحاضر إلا فى إقليم السافانا والسودان . وهذا دليل على أن هذه الحيوانات كانت تعيش فى الصحراء الكبرى فى عصر البلايستوسين أثناء الفترات المطيرة وأنه لما حل الجفاف أصبح أمام هذه الحيوانات أحد طريقين أما أن تهاجر إلى اقاليم مشابهة أو قريبة الشبه — من

حيث ظروفها الطبيعية – من الأقاليم القديمة حتى يمكنها أن تعيش فيها وتلائم حياتها معها وأما أن تهلك وتموت .

ولما كانت الصحراء الكبرى قد أخذت تتغير فى صورتها المناخية فإن معظم هذه الحيوانات قد هلكت ، وما عمر منها فى الاقاليم التى بها موارد مياه أصبح يمثل حيوانات تذكارية .

ولعل من أحسن الأمثلة على ذلك وجود بقايا التماسيح فى بعض الواحات الشمالية رغم أن التمساح من حيوانات السافانا . ولا يمكن تعليل وجـــوده فى هذه المنطقة إلا عن طريق افتراض أن الظروف المناخية فى هذه الواحات كانت تشبه - فى فترة ما - الظروف المناخية فى اقليم السافانا ثم تغيرت هذه الظروف فهلكت الحيوانات أو هاجرت ولم يبق منها فى هذه المنطقة إلا ما وجد فى بقاع تلائم المناخ القديم .

وكل هذا يشير إلى حدوث تذبذبات مناخية فى هـــذا الاقليم . ففى عصر البلايستوسين ظهر فى شمال افريقية فى طبقات ترجع الى أواخـــر البلايوسين وأوائل البلايستوسين قواقع محبة للبرد تشير الى أن المناخ أخذ يبرد قليلا ، وبعد ذلك عثر على أنواع أخرى معاصرة لحضارة شل تحتاج لدرجة حرارة تعادل درجة الحرارة الحالية وكمية قليلة من الأمطار مثل فرس النهر والفيل القديم ، والى جانبها وجدت حيوانات سودانية أخرى كالضبع والأسد والفهد والثور القديم . وهذه حيوانات تحتاج الى مطر متوسط أو أكثر من المطر الحالى الذى يسقط فى شمال افريقية . وبعبارة أخرى فهذا دليل آخر على سقوط الأمطار بغزارة فى أثناء وجودها .

ويمكن القول بصفة عامة أن ثلثى الحيوانات المعروفة فى شمال افريقية فى هذا

الدور كانت حيوانات افريقية الأصل فى حين البقية الباقية من الحيوانات كانت من أصل أسيوى أو أوربى مثل الغزال والدب وبعض الأغنام . أما عن داخلية الصحراء فلا يعرف عنها الا النذر اليسير ، ولكن لابد أنه كانت تعيش فيها حيوانات سودانية وكانت تسقط عليها الأمطار بغزارة بحيث تنمو الأعشاب وتجعلها مرتعاً خصباً لهذه الحيوانات .

أما عن تعليل وصول الحيوانات السودانية إلى شمال إفريقية فى الوقت الحاضر فيفترض تفسيرين أولهما إما أنها جاءت عن طريق مائى يصلها بشمال إفريقية أو هاجرت إلى شمال إفريقية تحت ظروف مناخية ملائمة لهجرتها .

أما عن الفرض الأول فاحتمال صحته ضئيل إذ لا توجد أنهار إفريقية تربط الإقليمين سوى نهر النيل الخالد ، وحتى نهر النيل فى جزء كبير منه فى إقليم النوبه ومصر العليا إقليم صحراوى . على أى حال فمن الجائز تعليل وجود الحيوانات السودانية فى مصر حتى عهد قريب عن طريق افتراض أن هـــذه الحيوانات هبطت الى ساحل البحر المتوسط بواسطة النيل ، غير أنه ليس من الممكن تعليل وجودها فى شمال افريقية حتى لو افتراضنا أنها وصلت الى مصر فما هو السبيل الذى سلكته فى هجرتها الى شمال افريقية ؟ وخصوصاً أن الصحراء تشرف على البحر المتوسط من غرب الدلتا وحتى طرابلس . ومن هنا يبقى التعليل كيف يمكن للحيوانات السودانية أن تعبر هذا الجزء .

أما الفرض الثانى فقائم على أن الأودية الجافة التى تنتشر فى الجزء الغربى من الصحراء ما بين الأقاليم السودانى وشمال افريقية مثل وادى اغرغر كانت تملأ بالمياه فى عصر البلايستوسين . ومن ثم فمن الجـــائز أن الحيوانات النهرية قد هبطت فيها واتجهت شمالا ولا سيما وأن هناك عدة أنظمة نهرية تنبع من جبال

تبقى وتتجه صوب الشمال الغربى والشمال الشرقى وهـذا تعليل معقول ان دل على شىء فإنما يدل على سقوط الأمطار فى فترة البلايستوسين فى منطقة شمال افريقية والصحراء الكبرى .

أما عن الأدلة النباتية القديمة فلم يعثر فى الصحراء الكبرى على بقايا نباتية ذات قيمة وذلك لأن الصحراء ــ كما سبق أن ذكرنا ـ تمتد فوق مساحة واسعة والبحث لم يصل فيها بعد الى الدرجة التى وصل اليها فى اقليم غرب أوربا . على أى حال فعن طريق دراسة التوزيع النباتى الموجود حالياً بالصحراء أمكن الاستدلال على وجود أدورا مطيرة فى البلايستوسين وعن وجود حياة نباتية مختلفة عن الوقت الحاضر .

فالمنطقة الوحيدة فى الصحراء الكبرى التى تسقط عليها حالياً كمية من الامطار تسمح بقيام حياة نباتية هى منطقة الحجار وذلك بسبب أرتفاعها عن سطح البحر وقد لوحظ من دراسة النباتات الطبيعية فى هذه المنطقة وجود نباتات البحر المتوسط والنباتات السودانية ودون السودانية حيث توجد النباتات الاولى فى الأطراف الشمالية من المنطقة والنباتات الثانية فى الأطراف الجنوبية فى حين يشغل الوسط نباتات تنمى الى نوعين . وهذا دليل على أن الحياة النباتية السودانية كانت فى وقت ما تمتد شمالا حتى مرتفعات الحجار ، كما أن نباتات البحر المتوسط وصلت أيضا الى قلب الصحراء الكبرى ، وبعبارة أخرى فان نباتات البحر المتوسط كانت تغطى المنطقة الممتدة مابين جبال أطلس وهضبة الحجار .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يحدث ذلك الا اذا كانت الصحراء فيها من المياه والامطار ما يكفى لنمو هذه النباتات ، والدليل على ذلك أنه حينما حل الجفاف هاجرت نباتات البحر المتوسط صوب الشمال وبقيت فى المنطقة الساحلية التى

تسقط عليها الأمطار وكذلك كان الحال بالنسبة لنباتات السافانا والنباتات السودانية التى هاجرت نحو الجنوب وبقيت فى المناطق التى تسود فيها الآن . أما فى اقليم الحجار فنظراً لارتفاعه وسقوط الأمطار فانه احتفظ بهذه النباتات ليصبح دليلا على ما كان للصحراء الكبرى من سابق حياة أثناء فترة البلايستوسين .

ومن بين الادلة الأخرى التى تساعد على شرح المسرح الجغرافى فى شمال افريقية ابان فترة ما قبل التاريخ دراسة الادلة الفيزيوجرافية . فقد لاحظ الباحثون فى الصحراء الكبرى وجود كثير من الاودية الجافة التى يمكن تتبعها ومعرفة مجراها الأصلى وروافده . فإلى الغرب من مرتفعات الحجار يوجد سهل متسع كبير يمتد غرباً نحو المحيط الاطلسى لمسافة لا تبعده عن المحيط إلا ببضعة مئات الأميال . هذا السهل كان فى الزمن الرابع أو فى الماضى عبارة عن حوض داخلى Evaporation Basin ينصرف إليه شبكة من القنوات إذ كانت تنساب نحوه شبكة طويلة من القنوات على المنحدرات الغربية للحجار وتمثل الأصل للاودية الجافة التى توجد فى الوقت الحاضر فى هذه المنطقة .

وتبدو نفس الظاهرة بوضوح بالنسبة لمجموعة الأودية التى تنحدر من السفوح الجنوبية لجبال أطلس وتتجه صوب الجنوب . ولعل من أشهر هذه الأودية وادى ساورا Saoura الذى أمكن تتبع مجراه لمسافة تزيد على ٣٠٠ ميل جنوب جبال أطلس . وقد أوضحت الدراسة التفصيلية لهذا الوادى بعض النتائج الهامة إذ تبين أنه فى مجراه الأوسط يصل إلى منطقة « العرق الغربى الكبير » ومن ثم يتجه مجراه نحو الغرب .

وبعبارة أخرى نلاحظ أن كثيراً من القنوات أو الأودية التى كانت تملأها المياه إبان عصر البلايستوسين تغطيها اليوم وتدهمها الرمال لتخفى معالمها الماضية غير أن دراستها تظهر بوضوح أن هذه المجارى قد حفرت بواسطة كميات كبيرة

من المياه كانت كافية لأن تزيح الرمال من أمامها بل أكثر من ذلك كانت قادرة على أن تؤثر فى معالم السطح فتمارس عملية النحت .

وكان يظن أن هذه الأودية نشأت من جراء سيول المطر التى تسقط من حين لآخر على الصحراء عندما تهب العواصف والزوابع غير أن ضخامتها تحول دون الأخذ بهذا الظن لأن مثل هذه السيول تعجز عن تكوين نظام نهرى كامل كنظام الأودية الجافة ، والأقرب إلى الحقيقة هو أن هذه الأودية تكونت فى وقت كان المناخ فيه أكثر مطراً عما هو عليه الآن ، وأن ما تعانيه الصحراء فى الوقت الحاضر من جفاف أمر حديث نسبياً من الناحية الجيولوجية .

على أى حال فظهور الأودية بوضعها الحالى يمكن أرجاعه إلى أمرين أولهما زيادة كمية الرمال الطامرة والثانى نقصان المياه . وبطبيعة الحال يمكن إختيار عامل بعينه لتفسير الظاهرة ، كما أنه من الممكن ربط كل عامل بالآخر لنخرج بشرح وافى لتغير النظام النهرى فى الصحراء .

وفى الواقع هناك سبب معقول يجعلنا نفترض أن كمية الرمال قد أخذت فى الزيادة منذ أن أخذت تتجمع وتغمر الاودية الجافة طالما كانت النباتات التى تنمو فيه غير كافية لكى تحمى الرواسب المتراكمة فى الاحواض الجافة . وفى حالة رمال العرق الغربى الكبير يبدو أن شبكة القنوات التى وجدت كانت تستمد مياهها من مجموعة الاودية التى تصب نحو الجنوب والتى لا يوجد بها ماء الآن نتيجة للبخر ولتسرب المياه إلى الطبقات الرسوبية القديمة التى توجد أسفل العرق . والخلاصة أن الدراسات التفصيلية لوادى ساورا قد توصلت لنتيجة هامة وهى أنه من المستحيل على وادى كبير كهذا الوادى أن ينشأ ويقاوم الرمال دون أن يكون هناك مورد مائى كبير يتمثل فى أمطار غزيرة .

ويلاحظ أن الصحراء الكبرى تحتوى على مجموعتين رئيسيتين من الاودية الجافة الأولى تنحدر من مرتفعات الحجار وتتجه إلى حوض نابليلات ويلحق بها المجموعة التى تتجه نحو الجنوب وتنتهى إلى منخفض يتوسطه بحيرة تشاد . وهذه المجموعة هى التى كانت تصرف مياه نهر النيجر الآعلى قبل حدوث الاسر النهرى عند مدينة تمبكتو وقبل تحويل مياه النيجر نحو الجنوب بدلا من فيضانه فى دلتا الصحراء (١).

أما المجموعة الثانية فهى مجموعة وادى أغرغر Igharghar الذى يعتبر من خير الأمثلة - وإن لم يكن أفضلها - للاودية الجافة . وهذا لا يتطرق الشك فى أن الامطار الغزيرة هى التى كونت هذا الوادى الذى يبدأ كما سبق أن ذكرنا من هضبة الحجار ويتجه صوب الشمال إلى منخفض توغرت والذى أمكن تتبع مجراه القديم حتى شط ملغير Shott Melrbir وذلك لمسافة ٧٠٠ ميل من منبعه وهذا الشط أحد شطين ملحيين كبيرين يوجدان فى الطرف الشرقى لجبال أطلس وينفصلان عند خليج قابس على البحر المتوسط بواسطة حافة صخرية لا يزيد عرضها على بضعة أميال .

والنتيجة التى توصلت إليها الدراسات بصدد هذه المنطقة تتلخص فى أن المياه الغزيرة التى تجمعت فى هذا المنخفض من جميع الجهات لم تكن كافية لشق مجرى وسط هذه الحافة الصخرية .

وبعبارة أخرى نستطيع أن نضع حدين لقمة الأمطار القديمة الساقطة فى فترة ما قبل التاريخ أولها . ونستطيع الجزم بها – وهى أن كمية الامطار الساقطة كانت تفوق من حيث كمية انتظامها الامطار الحالية بدليل أنها استطاعت حفر هذا

---

(١) — Ibid, P. 72

الوادي الكبير . وثانيهما أن كميـــة الامطار ونسبة الرطوبة فى هذه المنطقة لم تصل بأى حال من الأحوال إلى تلك الكمية أو النسبة الموجودة بالاقاليم المدارية والحارة وإلا كان الحوض الجاف الذى يشمل الشطوط تحول إلى خليج (١) .

وبالنسبة للأدلة الفيزيوجرافية فى الجزء الجنوبى من الصحراء فهى تشبه تقريباً الادلة السابقة مع أختلاف فى الظروف المحلية . فقد نشر أحد الباحثين ويدعى شودو R. Chudeau دراسة عن خط تقسيم المياه الجنوبى للجوف وعلاقته بحوض النيجر الاعلى . فعلى مسافة ٥٠٠ ميل من منابعه يدخل نهر النيجر فى منطقة واسعة من المستنقعات والبحيرات التى تنحدر بصفة عامة ، صوب الشمال . وعقب أن يترك النهر هذه المنطقة ينثنى بشدة ويغير اتجاهه صوب الشرق وبعد مسافة قصيرة يتجه صوب الجنوب الشرقى . وفى المنطقة الأخيرة نجد مجمـــوعة من الأودية الجافة تنساب اليه قادمـــة من الشمال الغربى .

ومن دراسة شودو تبين أن نهر النيجر الأسفل قد تأثر هنا بعملية الاسر النهرى لمجموعة الاودية التى تنساب اليه والتى من بينها نهر النيجر الأعلى الذى كان فيما سبق وادى يجرى صوب الشمال ليصب فى حوض داخلى أتجاه الجوف. ومن ثم ليس هناك شك فى أن منطقة تمبكتو الحالية كانت مغطاة بالمستنقعات حينئذ (٢) .

---

(١) حدث هذا فى الفترات التى كان فيها مستوى البحر مرتفعاً ولكن لم يحدث نتيجة لتغيرات مناخية انظر مكبورنى ص ٧٢ الذى رجع بدوره إلى

Castany, G., Quaternaria, Rome, 1954, vol. 1 I.

(2) I Bid, P. 73.

والادلة التي برهنت هذه النظرية لم تقتصر فقط على مجرد تتبع المجرى السابق للنيجر الأعلى نحو الشمال حتى انشاء النيجر الحالي ، ولكن أيضا باكتشاف أدلة حيوانية كثيرة تشمل بقايا من الاسماك وثدييات المستنقعات وفرس النهر وغيرها من الحيوانات التي توجد في الوقت الحاضر في المناطق الغابية في غرب افريقية ذلك الى جانب بعض الحيوانات الاخرى التي تعيش في حشائش الاستبس كالفيلة والزراف. وقد وجد في هذه المنطقة التي تعرف باسم «أزواد Azouad » موقعان آخران يحتويان على نفس الأدلة الحيوانية ويرجعان الى نفس الفترة تبعا للبقايا الاركولوجيه التي عثر عليها ، وهذان الموقعان هما أروانا Aronna وجوير Guir . وقد وجدت الحفريات بين بقايا هذه المحلات وأرجع تاريخها الى الألف الرابع ق. م.

ومما هو جدير بالذكر أن أحد الباحثين ويدعى ڤاوفرى R. Vaufrey قد توصل الى أن المياه التي كانت تنصرف الى الجوف في ذلك الوقت كافية لملء كل المنخفض وتكوين بحر داخلي متسع (Vaste mer Interieure) أو بحر داخلي Inland Sea وهو خير مايطلق على هذه الحالة حيث أن المسافة التي غطتها البحيرة كانت حوالي ٦٠,٠٠٠ ميل مربع (٢) .

وبطبيعة الحال من الصعب أن نأخذ بهذا الرأى نظراً لعدم وجود ادلة تدعمه وبسبب استحالة تحديد خط ساحل هذه البحيرة اذ يتطلب الامر عمل مساحة دقيقة لآلاف الأميال في النطاق الصحراوي الحالي . وحتى يتم ذلك يجب أن نكتفي بتصور أن مجموعة من البحيرات الضحلة والمستنقعات قد انتشرت فوق هذا السهل المتسع بصورة تشبه بحيرة تشاد الحالية .

---

(1) I Bid, P. 73.

هذا ويجب ملاحظة أن الفرض الأخير يتضمن فى حد ذاته تعديلا لنوع المناخ الذى نعرفه فى كل أنحاء جنوب غرب الصحراء على أى حال فالسؤال الآن هل هذا البرهان دليل كاف فى حد ذاته على تغير المناخ فى هذا الاقليم ؟ وبطبيعة الحال الأجابة على هذا السؤال بالنفى المؤكد إذ أن هناك مواقع تحتوى على نفس الحفريات الحيوانية وبها أدلة أركولوجية متشابهة وتقع على نفس خط العرض بعيدا نحو الشرق فى منطقة تسودها حاليا الظروف الصحراوية بمعنى الكلمة

ففى وادى أزاوه Azawa الأعلى مثلا الذى يصرف مياه المنحدرات الغربية لهضبة اير وفى السودان عند الخرطوم توجد أدلة محلية تشير إلى زيادة كميـــة الامطار فى نفس الوقت الذى أرتفع فيه مستوى النيل ، وفى الوقت الذى شهدت الحبشة والأجزاء التى تقع الى جنوب شرق الخرطوم فترات مطيرة مماثلة .

وصفوة القول نحن أمام دليل يشير الى أرتفاع نسبة بخار الماء فى عصر البلايستوسين فى الأجزاء الجنوبية من الصحراء الأمر الذى لا يمكن تعليله بواسطة تغيرات محلية فى النظام المائى والتى تطلبت زيادة كبيرة واضحة فى التبخر . أما بالنسبة للاجزاء الشمالية فى هذه الفترة فلا نستطيع أن نقول الا الشىء المختصر نظرا لضالة ما تحت إيدنا من براهين مع ملاحظة أن فاوفرى ذكر أن تأثير عصر البلايستوسين على هضبة تبستى كان ضعيفا (١) .

وعلى أى حال فقد شهدت الصحراء الكبرى فى عصر البلايستوسين تغيرات مناخية وفيزيوجرافية هامة إلا أن الادلة التى تشـير إلى نهاية العصر المطـير فى الصحراء ما زالت قليلة ومتناثرة ولا سيما فى الأجزاء الغربية والوسطى ، ومن ثم فهناك مناطق كثيرة مازالت تنتظر البحث لتكشف النقاب عن حقيقـة عصر

---

(1) I Bid, P. 74.

البلايستوسين فى النطاق الصحراوى بشمال إفريقية .

هذا وقد ذكر مونود T. Monod (١) أنه من الممكن تمييز قمتين منفصلتين للمطر والفيضان المنخفضات الصحراوية الاولى وهى الأهم تتفق مع بقايا العصر الحجرى القديم الأسفل Lower Palaeolithic ، بينما تتفق الثانية مع العصر الحجرى الحديث Neolithic . وقد أيد فاوفرى هذا الرأى ولا سيما وأن توزيع الفؤوس اليدوية الاشولية ووجودها مصاحبة لأدلة فترات المطر لبرهان قوى يؤيد أن قمة المطر قد حدثت فى وقت كان استعمال الفأس اليدوية فيه سائداً .

وقد وجدت هذه الفؤوس فى أقاليم خالية تماماً من السكان فى الوقت الحاضر وإن كانت فى وقت أستعمالها عامرة بالسكان . ومعظم هذه الآثار وجدت على السطح رغم أن بعضها وجد على المدرجات فى بعض الأودية الكبرى ولا سيما وادى ساورا ووادى ميردوم Merdom فى طرابلس .

أما بالنسبة لفترات الجفاف أو الفترات غير المطيرة Inter Pluvial التى تخللت الفترات المطيرة Pluval فى شمال إفريقية فنلاحظ أن الكثبان الرملية التى تكونت فى هذه الفترة توجد إلى جنوب حدود الصحراء الحالية وفى بعض المناطق الأخرى المتناثرة فى الصحراء . ومن بين هذه المناطق وادى أزاوه Azawa حيث نجد حفريات بعض الحيوانات المحبة للماء كالتمساح وفرس النهر مطمورة فى الكثبان الرملية المتحجرة . التى طمرها بعد تكوينها أحد القنوات أو الاودية التى ملئت بالمياه إبان العصر المطير . ومعنى ذلك أننا هنا أمام دليل قاطع لفترة جافة تفصل بين فترتين رطبتين الاخيرة منها ترجع — تبعا للادلة الاركولوجية — إلى تاريخ أحدث من الأولى .

---

(1) I Bid, P. 75.

ومما هو جدير بالذكر أن الاستاذه H. Alimen قدحاولت فى عام ١٩٥٧ وذلك فى كتابها عن إفريقيـة فى فترة ما قبل التاريخ (١) أن تضع مقـارنات متعددة للتغيرات المناخية التى حدثت فى الصحراء الى الغرب من مرتفعات الحجار . (شكل ٧) . وقد توصلت فى محاولتها هذه الى أن نطاق المصطلحات المناخية التى أستخدمت فى شرق افريقية ـــ للدلالة على الفترات المطيرة فى عصر البلايستوسين ـــ على المناطق التى تقع فى شمال افريقية (٢) .

وقد حاول بعض العلماء الاخرين ربط مراحل العصر المطـــير فى شمال إفريقية بالادوار الجليدية فى أوربا وتوصلوا بعـد دراستهم إلى المراحل الآتية بالنسبه للمغرب الـكبير (٣).

الادوار الجليدية فى أوربا	المرحلة المطيرة فى المغرب الأقصى
فرم (٢) Wurm	الغربيـة Rharbrien
فـــرم (١)	السلطانية Soltanien
رس Riss	التنسيفية Tensiftien
مندل Mindle	العامرية Amirien
جنز Gunz	السلاوية Saletien
ما قبل الجنز Pre Gunz	الملوية Moulouyen

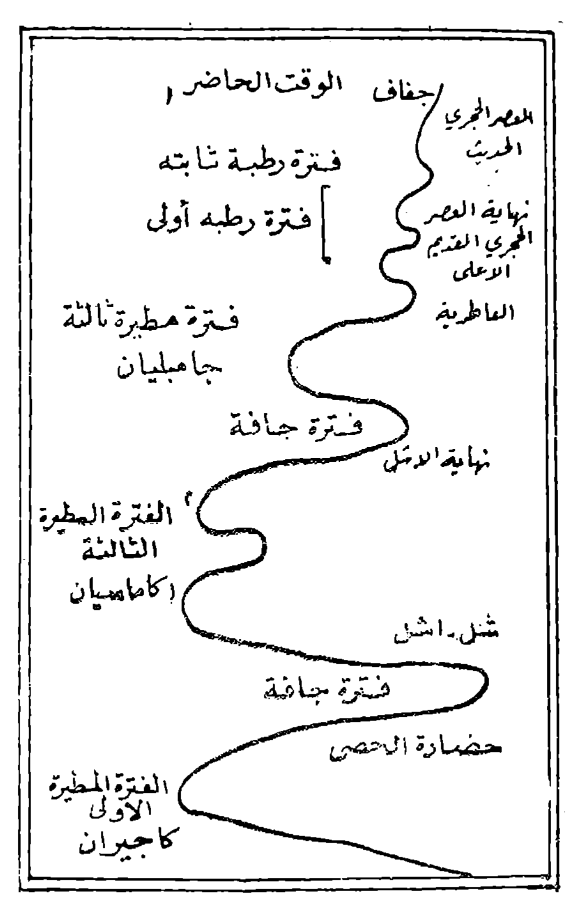
الصحراء الليبية وصحراء مصر الغربية :

يبدو من العرض السابق أن الدراسة قد تركز على الجزء الغربى من الصحراء

(1) Alimen, H., The prehistory of Africa, London, 1957

(2) I Bid, P. 40

(٣) رشيد الناضورى « العصور القديمه » الاسكندريه ـ ١٩٦٦ ـ ص ٥٣ .



التغيرات المناخية في شمال
غرب الصحراء

(شكل ٧)

بينما لم يذكر إلا الشيء القليل عن التغيرات المناخية فى الجزء الشرقى من تلك الصحراء التى تقدر بداية نشأتها منذ أن بدأ الغطاء النباتى يختفى منها حينما تغيرت الظروف المناخية وقلت الامطار . وبعبارة أخرى حينما نشطت عوامل التعرية الجوية ولا سيما الرياح فى تشكيل سطح الأرض وازالة التربة في نفس الوقت الذى قلت فيه أهمية التعرية المائية .

وإذا ما أخذنا فى أعتبارنا كل هذه العوامل عند دراسة الصحراء الليبية أو الجزء الشرقى من الصحراء لاستطعنا أن نحددها بصفة عامة على هيئة مثلث مغلق بين طرابلس والخرطوم والقاهرة ، ولا ستطعنا أيضا أن نؤكد أن وجودها كان سابق بفترة طويلة للصحراء التى تقع إلى الغرب من هضبة الحجار .

وفى هذه الصحراء يمكن تمييز شبكة من الاودية التى تصرف مياه الحمادة إلى الجنوب الشرقى من طرابلس فى مقاطعة سرت . ولكن إذا ما اتجهنا شرقاً صعب علينا بالتدريج أن نميز هذا النظام النهرى حتى نصل إلى آخر وادى داخلى كبير وهو وادى الفارغ Farreg (١) الذى يقع فى أقصى جنوب ثنية ساحلى سرت .

ويلاحظ أن نطاق الصحراء فى شمال إفريقية لم يكن كله ذات صرف داخلى لأن الانهار التى تكونت فى النطاق الشمالى للأرض التى تشغلها ليبيا فى الوقت الحاضر كان معظمها يلقى بمياهه فى البحر المتوسط اللهم إلا فى مواضع قليلة كان لها نظام خاص فى الصرف الداخلى .

ويلاحظ أيضا أن الأمطار التى سقطت على هذا النطاق الصحراوى إبان عصر البلايستوسين لم تكن غزارتها بدرجة واحدة فى جميع الجهات حيث أن بعض المناطق كانت تستقبل كميات ضخمة من الأمطار فى حين قلت نسبة التساقط فى بعض المناطق الاخرى ، ومن ثم كان أثر ذلك واضحا على الانظمة النهرية المختلفة التى وجدت حينئذ فى شمال إفريقية . ويبدو ذلك بوضوح إذ ما قارنا صحراء مصر الغربية بشمال ليبيا ومنطقة الحجار وإقليم جبال أطلس .

---

(1) Mc Burney, Op. cit., P. 77.

ففى المنطقة الاولى لا نجد أثراً واضحا لوديان قديمة جافة يمكن مقارنتها من حيث الحجم بالوديان الكبيرة الضخمة التى توجد فى المناطق الاخرى . ولقد تطرق جون بول J.Ball إلى هذه الظاهرة فى أحد مقالاته التى نشرت فى Geog. Journal (٢) فى عام ١٩٣٧ وذكر أنها تدل دلالة واضحة على أن صحراء مصر الغربية كانت خلال الزمن الرابع أقل مطراً بكثير من المناطق الأخرى التى تدخل فى النطاق الصحراوى بما فى ذلك صحراء مصر الشرقية وشبه جزيرة سيناء ، إذ كانت الأمطار التى تسقط عليها تضيع بالتسرب والبخر ، وكانت بعض المياه التى تتجمع فى منخفضات وتتكون منها مستنقعات أو بحيرات لا تلبث مياهها أن تضيع كذلك بالتسرب وبالبخر .

وإلى الجنوب والشرق من النظام النهرى لساحل سرت تتحدد طبوغرافية المنطقة بواسطة نوعين رئيسيين من الظاهرات أولها ما يعرف باسم الجارت Garet أو الموائد الصخرية وهى عبارة عن تلال ذات قمم مسطحة محاطة بجوانب شديدة الانحدار ، وثانيهما وجود الحافات التى تمتد بغير انتظام لمسافات طويلة قد تصل إلى ٣٠٠ ميل . والظاهرة الأخيرة لم تدرس دراسة تفصيلية حتى الان غير أنه يظن أنها ترتبط بمناطق الضعف المحلية الأخرى الموجودة فى هذا النطاق .

ويبدو بوضوح أن الشكل العام ونظام طبقات هذه الحافات لا يتصل كثيراً بالتعرية النهرية وأن تكوينها يرجع أساسا إلى التعرية الجوية . وتواجه هذه الحافات بصفة عامة الجنوب والجنوب الغربى . والاراضى التى تقع أسفلها غالبا ما تكون عبارة عن مناطق شديدة الانخفاض والدليل على ذلك أن منخفض القطارة يصل عمقه إلى حوالى ٤٤٠ قدما تحت مستوى سطح البحر . وفى مثل

---

1 - Ball, J., Problems of the Libyan Desert, Geog Journ., Jan. 1927, PP. 23 - 32.

هذه المنخفضات توجد الواحات التى تستمد مياهها من الطبقات الجوفية فى معظم الأجزاء الشرقيه من الصحراء الكبرى. وتأخذ هذه المنخفضات عند نهايتها الجنوبية والغربية فى الارتفاع التدريجى صوب الهضبة لتصل إلى الحافة التى تليها .

ويغطى جزء كبير من سطح الهضبة بواسطة « الكالانشو » أو كما يعرف باسم « سرير » فى ليبيا وهو عبارة عن حصى خشن ينتشر داخل مناطق تغطيها صخور الحمادة العارية . ذلك إلى جانب « العرق » الذى يشغل مساحة أخرى فى هذه المنطقة ولعل من أهمها بحـــر الرمال العظيم الذى يعد من أكبر الكثبان الرملية المتصلة فى العـالم . وتأخـذ الكثبان الرملية شكل حافات منتظمة موازية لبعضها البعض لدرجة أنها فى تنظيمها تشبه الحقل المقسم بواسطة جسور متوازية إلى أحواض زراعية ، وتتجه هـــذه الكثبان صوب الجنوب والجنوب الغربى ذلك لمسافة ٤٠٠ ميل إلى أن تصل إلى حوالى خط عرض ٢٣ درجة شمالا . أما إلى الجنوب من ذلك فيقل حجم الكثبان الرملية وتتجه أكثر صوب الجنوب والجنوب الغربى .

ومعنى ذلك أنه يوجد بالصحراء الليبية كثيراً من الآثار التى تشير إلى أنها أقدم عهداً من الأجزاء الغربية للصحراء ومن ثم فيوجد كثير من الأسباب التى تدفعنا إلى الاعتقاد بأنها حافظت على شخصيتها هذه خلال عصر البلايستوسين. ولهذا السبب يمكن أن نفترض أنهـا لعبت دوراً كبيراً كحـاجز طبيعى ضد الاختلاط (١) .

على أى حال ليس من الغريب أن نلاحظ أن التطورات المناخية التى شهدها الجزء الغربى من الصحراء لم يكن لهـا مثيلا فى الأجـزاء الشرقية من الصحراء

---

(1) Mc Burney, op. cit , P. 78

ويؤيد ذلك وجود منخفض الخارجة والفيوم على الطرف الشرقى للصحراء الليبية .

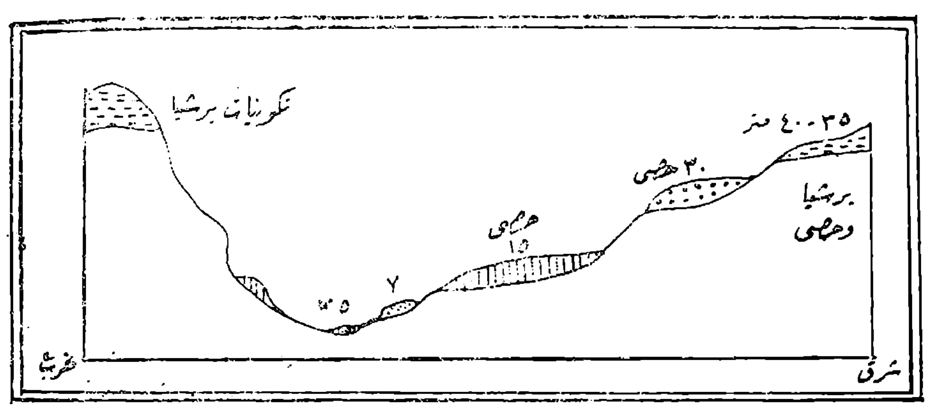
منخفض الخارجة :

عبارة عن منخفض كبير نشأ نتيجة لفعل الرياح فى مناطق ضعيفة محلية قطعت صخور الهضبة الصحراوية حتى عمق ١٠٠٠ قدم إلى أن وصلت إلى طبقات المياه الباطنية ، وقد أدى هذا إلى ظهور الآبار الأرتوازية بصورة دائمة ومستمرة فى خلال العصرين الحجرى القديم الأسفل والأوسط .

ويبلغ طول هذا المنخفض حوالى ١٥٠ ميل وعرضه يتراوح ما بين ١٠ — ٢٠ ميل ، وتشغل الواحة حوالى $\frac{١}{١٠٠}$ فقط من جملة مساحة المنخفض الذى يتجه من الشمال إلى الجنوب حيث يحده فى هذين الاتجاهين حافات شديدة الانحدار تقطعها أودية قصيرة ظلت آثارها باقية كدليل على وجود فترتين مطيرتين كبيرتين . وأول هذه الفترات المطيرة سبقت تعمير الأقاليم بالسكان ويمكن أرجاعها إلى أواخر عصر البلايوسين وأوائل عصر البلايستوسين أما الفترة المطيرة الثانية فقد عاصرت العصر الحجرى القديم وأستمرت حتى أواخر عصر البلايستوسين الأوسط بل أيضاً حتى أوائل عصر البلايستوسين الأعلى . هذا ويبدو أن المحلات العمرانية التى نشأت فى هذه المنطقة فى حوالى الألف الأولى ق . م . عاصرت فترة مناخية تشبه فى ظروفها الأحوال المناخية الحالية . وذلك على الرغم من أن بعض محلات صغيرة للجماعات الأولى المنتجة للطعام قد عاشت فى ظروف مناخية أفضل وذلك فى خلال الألف الرابعة ق . م . أو مع بداية الألف الثالثة ق . م .

ويتكون منخفض الخارجة من رواسب متعددة فهناك تكوينات التوفا الجيرية

Calcareous tufa التى تكونت حول الينابيع القديمة التى وجدت هناك ، وذلك إلى جانب الغطاءات الحصوية التى تنتشر على طول المدرجات (شكل ٨) على جانبى الوادى ، وتكوينات البرشيا التى تتصل بالفترات الجافة .



مدرجات الأودية فى الواحة الخارجة

شكل (٨)

هذا وقد قامت مسز جاردنر Gardiner (E. W.) وكاتون تمبستون Taton Tompson بربط هذه التكوينات مع بعضها ومعرفة تتابعها التاريخى وعلاقتها بالادوات الصناعية ومن ثم نشرا نتائج ابحاثها فى عام ١٩٥٢ (١) . وقد استطاعا من دراستها التوصل إلى أن الفترات التى كانت فيها الينابيع نشطة وحدثت فيها التعرية تتفق مع الفترات المطيرة . فمنذ نهاية الزمن الثالث وحتى منتصف الزمن الرابع سادت ظروف المطر فى الواحة الخارجة حيث توجد تكوينات الترافرتين Travertines على الهضبة أثناء الفترة المطيرة الأولى ، فى حين لم تظهر بقايا محلات إنسانية قبل الحضارة الاشولية وذلك بعد الفترة الجافة الطويلة

1 — Caton Thompson, Kharga oasis in prehistory, 1952.

التى تبعت الفترة المطيرة الأولى وتسببت فى ظهور تكوينات البرشيا . ويبدو ان المنخفض تعرض لتعرية شديدة بفعل الرياح قبل ظهور الحضارة الاشولية وذلك فى أثناء فترة الجاف الأولى . ومع الفترة المطيرة الثانية بدأت الحضارة الاشولية حيث شهد المنخفض فترات عديدة من التعرية تكونت فى أثنائها الغطاءات الحصوية التى تقع على أرتفاع ٢٤ — ٣٠ متراً ، ثم مدرج ١٥ متراً ، وأخيراً مدرج ٧ ، ومدرج ٣ — ٢ متراً .

وفى أثناء هذه الفترة المطيرة تعاقبت الحضارتين الاشولية والليفالوازية ثم ظهر بعد ذلك صناعة خاصة بالواحة الخارجة وهى التى عرفت باسم صناعة الخارجة الليفالوازية Levalloisian Khargo (١). والتى وجدت على مدرج ٧ أمتار وربما تطورت من الحضارة الأخيرة الحضارة العاطرية إذ أن الواحة الخارجة ووادى النيل يمثلان الحد الشرقى لانتشار هذه الحضارة فى شمال إفريقية .

هذا وتتفق الحضارة العاطرية بالواحة الخارجة مع نهاية الفترة المطيرة الثانية فى حين عاصرت الصناعات الاخرى الليفالوازية الفقيرة والميكروليثية فترة نقصان المطر التى أدت إلى حالة الجفاف التى تسود فى الوقت الحاضر . ويبدو أن الإنسان قد أضطر إلى هجر المنخفض لفترة من الزمن ثم عاد إليه ثانياً بعد أن تحسنت أحوال المطر قليلا ، ولكن هذا الدور المطير لم يستمر طويلا فما لبث الجفاف أن عاد تدريجياً وأستمر حتى عصر الفراعنة إلى أن

---

(1) Caton Thompson, The Levalloisian industries of Egypt, proc. Prehistory Soc., Vol. 12. 1946.

(2) Alimen, op. cit., 87.

جاء الاحتلال الفارسى وحفر فى ذلك الوقت أول بئر أرتوازى على عمق ٨٠ متر (١) .

والخلاصة أن الادلة التى عثر عليها فى الواحة الخارجة تبين أن هذه الواحة شهدت دوراً مطيراً بدأ فى أواخر البلايوسين وأستمرحتى البلايستوسين الأسفل ثم حدث بعد ذلك فترة جفاف فدور مطير ثان له قمتان بينهما فترة مطيرة أقل منهما تساقطاً . وأعقب ذلك تدريجياً الجفاف الحالى غير أنه قطع هذا الجفاف التدريجى فترة مطيرة قصيرة فى العصر الحجرى الحديث وانتهى الأمر بالجفاف الذى نعرفه فى الوقت الحاضر بشمال إفريقية .

منخفض الفيوم (٢)

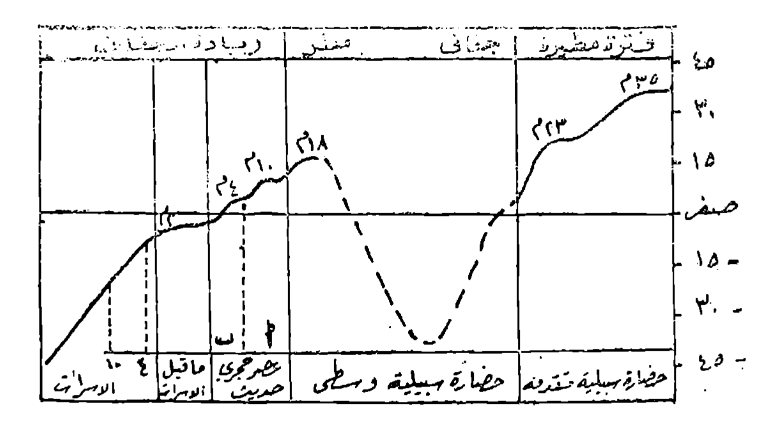
اقليم منخفض الفيوم لا يعدو أن يكون واحة مثل بقية واحات الصحراء الغربية غير أنه يتميز بقربة من نهر النيل وبانفصاله عنه بواسطة حافة الهضبة الغربية . وقد تكون هذا المنخفض ربما نتيجة لفعل الرياح فى موقع يسمح لمياه النيل أن تغرقه فى الفترات التى كان مستوى النهر فيها أعلى من مستواه الحالى . ولكى يتحقق ذلك فقد شق النهر طريقه — خلال الحاجز الصخرى الذى ينفصل المنخفض عن وادى النيل وذلك بواسطة بحر يوسف الذى كان

(1) Alimen, op. cit., 87.

(٢) يشبه منخفض الفيوم فى شكله ورقة القطن ويتميز بانحداره السريع جداً فى داخل المنخفض إذ يصل ارتفاعه عند فتحه اللاهون الى حوالى ٢٧ متراً فوق سطح البحر فى حين يصل عمق ساحل البحيرة إلى — ٤٠ متراً تحت سطح البحر ، وفى داخل المنخفض إلى — ٤٥ متراً تحت مستوى البحر أى أن الانحدار مابين فتحه اللاهون وساحل البحيرة يقدر بحوالى ٧٧متراً وذلك لمسافة بسيطه إذا ما قورنت بالمسافه بين اسوان والاسكندرية والتى يصل الانحدار فيها إلى ٩٠ متراً .

فى أغلب الظن فرعا قديما من نهـر النيل . وربما حدث ذلك فى بداية عصر البلايستوسين الاعلى بعد أن أختفت الفؤوس اليدوية من الحضارات المحلية التى التى عمرت فى الفيوم (شكل ٨) .

ومنـذ ذلك التاريخ يبدو أن مستوى بحـيرة قارون التى توجد فى المنخفض قد أخذ يتحدد من جهة عن طريق المياه المتدفقة إليه من النهر ، ومن جهة أخرى عن طريق الامطار الساقطة فوق منخفض . وهـكذا نجد أن مستوى البحيرة قد أرتفع إلى حوالى ١١٢ — ١١٣ قدماً فوق سطح البحر ثم أخذ فى الانخفـاض التدريجى بعد ذلك إلى أن وصل فى أثنـاء العصر الحجرى القديم الأوسط إلى حوالى ٧٥ قدماً . وهذا الانخفاض — تبعـا للدراسات الجيولوجيـة التى تمت فى إقليم الفيوم فيتفق تاريخهـا مـع عصر البلايستوسين الأعلى . أما عن محلات العصر الحجرى الحديث التى وجـد فى الفيوم فيتفق تاريخها مع مستوى البحيرة عند ٥٩ — ٥٧ قدماً فوق سطح البحر (شكل ٩) .



شكل (٩) تذبذب مياه بحيرة قارون فى الزمن الرابع

ويبدو أن المستويات العليا الأولى التى صاحبت العصر الحجرى القديم الأوسط كانت ترجع أساساً إلى طغيان أو فيضان نهر النيـل على المنخفض .

أما فى أثناء الفترة التى انخفض فيها مستوى البحيرة من ٧٠ إلى ٥٧ قدماً فقد كانت الظروف المناخيـــة السائدة هى الظروف الصحراوية وذلك تبعاً للادلة الجيولوجية التى عثر عليها . وقد أرجع ذلك إلى انخفاض مستوى نهر النيل وعودة مياه البحيرة إليه (١) أو إلى زيادة كمية البخر خلال فترة أشتد فيها الجفاف .

وعلى أى حالى فهناك أتفاق عام بين الباحثين على أن الاسباب المناخية لها دخل كبير فى انخفاض مستوى البحيرة إلى المستوى الحالى (٢) وتبعاً للرأى الاول فقد أثبتت الادلة الجيولوجية التى عثر عليها فى الخارجه أن هذه المنطقة شهدت أولا انخفاضاً كبيرا فى كمية الامطار الساقطة ونسبة الرطوبة ومن ثم شهد أقليم الفيوم وكذلك المناطق التى تقع إلى الشمال من منخفض الخارجة نفس الشىء وذلك فى نهاية العصر الحجرى الحديث .

وربما الادلة السابقة المستقاة من منخفض الفيوم والخارجة تدحض النتائج التى توصل إليها الباحثون بشأن كل الصحراء الليبية إذ تشير هذه الدلائل إلى أن هذه المنطقة كانت أكثر جفافاً من الاجزاء الغربية للصحراء الكبرى وذلك على الاقل فى الجزء الاكبر من عصر البلايستوسين. ولكن الدراسات التفصيلية التى قامت بها كاتون تمبسون تنفى هذا الافتراض .

---

(١) أنظر Caton — Thompson Cardner (E.W.), The Desert Fayum, London, 1934 — Alimen, Op. Cit, P. .79

(٢) يصل المستوى الحالى للبحيرة إلى حوالى ١٤٧ قدماً تحت مستوى سطح البحر ،ويتميز جوانب المنخفض بوجود سلسلة من المدرجات البحريه التى كانت تحدد مدى اتساع البحيرة فى العصور المختلفة .

ولقد تمكنت كاتون تمبسون من أن تربط بدقة بين تتابع المدرجات البحرية والصناعات الحجرية القديمة على النحو الآتى : (١)

مدرج ٤٣ مترا	لا توجد صناعة على هذا المدرج ولكن عثر على فأس يدوية فى المدرج المجـــاور جاءت من مدرج ٤٣ مترا .
مدرج ٤٠ متر	آلات ليفالوازية
مدرج ٣٤ مترا	آلات موستيرية
مدرج ٢٨ مترا	آلات سبيلية قديمة
مدرج ٢٢ مترا	آلات سبيليـة متوسطة
مدرج (١٨ — ١١) مترا	آلات حجرية حديثة أ
مدرج ٤ متراً	آلات حجرية حديثة ب
مدرج ٢ مترا تحت مستوى سطح البحر	آت حجرية أكثر حداثة من آت مدرج ٤م إذ تنتمى إلى عصر ما قبل الاسرات والاسرات (الاسرة ٤) .

أما عن الحقائق الجغرافية التى أستخلصها كاتون تمبسون من التتابع السابق فتتلخص فيما يأتى :

أولا : المدرجات التى أحتوت على آلات ليفالوازية وموستيرية وسبيلية قديمة تكونت وعاصرت الفترة المطيرة الأولى فى حين تتفق نهاية العصر الحجرى القديم والادوات المصاحبة له مع الفترة التى جفت فيهما البحيرة . وعقب ذلك جاءت فترة مطيرة ثانية تسببت فى أرتفاع مياه البحيرة إلى حوالى ٢٠ متراً فوق مستوى

(1) Il id , . 82.

سطح البحر وذلك فى أثناء الحضارة السبيلية المتوسطة التى جاء فى أعقابها فترة جفاف تدريجى أستمرت حتى العصر الحجرى الحديث وعصر ماقبل الاسرات، وأخيرا شهدت البحيرة انخفاضاً تدريجياً فى مستواها إلى أن وصلت إلى المستوى الحالى (٤٥ مترا) وذلك فى عصر الاسرات أى فى العصر التاريخى .

ثانياً : فى خلال المرحلة الأولى من مراحل تطور بحيرة قارون أى فى الفترة السابقة لنهاية الحضارة الليفالوازية كان هناك اتصالا بين البحيرة والنيل تعتمد اعتمادا كبيرا على نهر النيل فى تغذيتها بالميـــاه . هذا وقد عولت كاتون تمبسون وجاردنر أهميـة كبرى على فترة الجفاف التى أعقبت الحضارة الليفالوازية وعلى التعرية الهوائية. إذ تبعاً للنتائج التى توصل إليها جون بول استخلصت الباحثتان السابقتان الذكر أن التعرية الهوائية هى المسئولة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ عن تكوين المنخفض الذى اتخذ شكلة منذ نهاية العصر الحجرى القديم .

ثالثاً : توصلت كاتون تمبسون إلى أنه فى خلاج العصر الحجرى القديم كانت توجد بحيرة كبيرة تمـلأ المنخفض على أرتفاع ٤٠ متراً فوق مستوى البحر ثم أخذت هذه البحيرة منذ ذلك التاريخ فى الانـكماش بسبب تغير الاحوال المناخية ومع أوائل العصر الحجرى الحديث أستطاع النيل أن يعبر فتحه اللاهون ويغمر المنخفض مكوناً بحيرة أرتفاعها ١٨ مترا فوق سطح البحر . ولكن ما لبث فتحت الهوارة أن امتلأت بالرواسب النهرية فانقطعت موارد مياه النيـل وترك مصير البحيرة للعوامل المناخية لتقرر وحدها مصيرها. ولما أخذ الدور المطير فى العصر الحجرى الحديث فى النضوب ثم الجفاف أخـذت البحيرة فى التقلص شيئاً فشيئاً فبلغت مستوى ١٠ أمتـار وأستمرت على ذلك زمنا طويلا ثم دخلت فى فترة الفيوم (أ) ٥٠٠٠ ق. م. ، فهبطت من عشرة أمتار إلى ٤ أمتار ثم أخذت

فى الهبوط إلى - ٢ متر فى فترة الفيوم « ب » « ٤٥٠٠ ق.م. » وأخير إلى ٤٥ مترا فى وقتنا الحاضر .

ويبدو أن سكان الفيوم « ب » لم يستطيعوا الاستمرار فى الزراعة عندما حل الجفاف إذا أصبحت حياتهم نصف زراعية رعوية ، وأعتمدوا فوق ذلك على صيد الأسماك ، ولكن لما زاد الجفاف أضطروا إلى الهجرة خارجهاولم يعودوا اليها إلا فى حوالى الأسرة الرابعة بعد إدخال اساليب الرى الحديثة إليها.

والخلاصة أنه على الرغم من كثرة الدراسات الحقلية والأبحاث الاركولوجية فى منخفض الفيوم إلا أنه لم يعثر على أى دليل يشير إلى وجود حضارة أشولية من أى نوع كانت (١) ، كما أن إكتشاف حضارة سابقة لحضارة العصر الحجرى فى سيوة أمر نادر وغير مؤكد . ولذلك فمن الممكن القول - بصفة عامة - أنه على الرغم من التغيرات المناخية التى حدثت إلا أنه ليس هناك ثمة دليل مؤكد يبين تناقض واضح وأكيد بين كثافة السكان فى الأجزاء الشرقية والأجزاء الغربية من الصحراء الكبرى .

على أى حال فعن طريق الادلة التى جمعت من منخفض الواحة الخارجة والفيوم يمكن عمل رسم تخطيطى لتغير المناخ فى مصر . وهذا الرسم قد أعتمد أساساً على أبحاث كاتون تمبسون وجاردنر وسليمان حزين وفنجاردويشير للعلاقة بين الفترات المطيرة والصناعات المختلفة (شكل ٧) .

---

(١) يتضح من دراسة التوزيع الجغرافى لهذه الحضارة أن الاجزاء الغربية من الصحراء قد عمرت تماماً فى المراحل الأولى من أنتشارها . وهذا الأمر تؤيده الادلة الاركولوجية التى عثر عليها فى جبال اطلس . فى حين عمرت الجماعات الأولى منخفض الخارجة مع نهاية حضارة الفأس اليدوية .

أما عن علاقة الفترات المطيرة فى مصر وجليد أوربا فقد بينها الدكتور سليمان حزين على الوجه الآتى (١) :

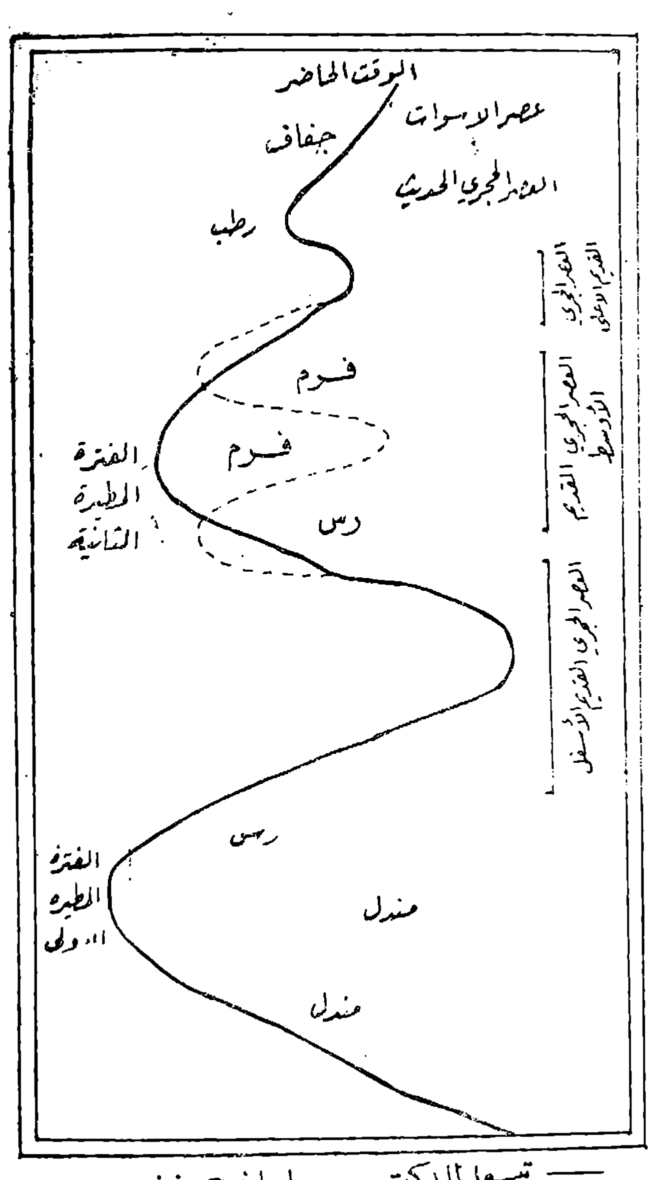
منطقة البحر المتوسط	المناطق الشمالية « أوربا »
الفترة المطيرة فى العصر الحجرى الحديث	فترة أحسن المناخ
الفترة المطيرة الثانية مع قمتين للمطر	الفرم
فترة غير مطيرة شديدة الجفاف امتازت بالنشاط البركانى	الفترة غير الجليدية رس — فرم
الفترة المطيرة الاولى واستغرقت فترة طويلة جداً من الزمن كما كانت شديدة الدفء	جليد الرس الفترة غير الجلدية مندل-رس جليد المندل

النيل والصحراء الشرقية :

أما بالنسبة للحد الشرقى للصحراء الليبية فيوجد نهر النيل الذى وصفه كثير من الباحثين بأنه أهم ظاهرة فيزيوجرافية معروفة فى شمال افريقية اذ يجرى هذا النهر لمسافة تزيد على ألف كيلومتر فى اقليم صحراوى دون أن يصب فيه أى رافد من روافده ذلك بالاضافة الى شخصيته المتميزة التى تبدو فى طريقته الفجائية التى يحد بها الصحراء الليبية اذ تقع الى الغرب من الاراضى الصحراوية الخالية من المجارى المائية الدائمة الجريان .

ونظرة للخريطة كافية لكى توضح مدى التناقض بين أراضى الوادى والاراضى المرتفعة التى تقع بين النيل والبحر الاحمر حيث تقطع المرتفعات الأخيرة بشبكة معقدة من الوديان العميقة الجيدة الصرف والتى ينحدر بعضها

(1) Alimen, op. cit., P. 88.



شكل (١١) التغيرات المناخية فى مصر والصناعات المصاحبة لها

من مرتفعات هضبة الحبشة . ومعظم هذه الأدوية تتجه صوب النيل رغم أن عدداً من الاودية القصيرة تنساب نحو البحر الأحمر .

هذا ويعتقد كثير من الباحثين أن الصحراء الشرقية لمصر جزءا متمما للصحراء الليبية اذ أن الصحراء الأولى خضعت لنفس الظروف المناخية التي مرت بها الصحراء الكبرى ويؤيد ذلك أنه ليس هناك ثمة أختلافا كبيرا بينهما في الوقت الحاضر اللهم الا في عدد الابار اذ يكثر عددها في الصحراء الشرقية كما يكثر المرعى وذلك على النقيض من الصحراء الغربية التي لا تعرف المرعى الصحراوي بمعنى الكلمة .

وهذا يبدو لنا بوضوح أن الاراضي التي تقع شرقي نهر النيل كانت بعيدة على أن تكون حاجزا منيعا أمام الجماعات البشرية في الأجزاء الشرقية من الصحراء الليبية في جميع العصور بل كانت بمثابة معبر لتقاليد الصحراء التي وصلت الى وسط افريقية من البحر المتوسط وأيضا الى هضبة الحجار وتبستي[1]

(1) Mc Burney, op. cit., P. 18

الساحل الشمالى فى فترة ماقبل التاريخ

لقد ترتب على الإختلافات المناخية التى حدثت فى عصر البلايستوسين أن تذبذبت العلاقة بين اليابس والماء فى حوض البحر المتوسط أى أن خط الساحل لشمال إفريقية لم يكن ثابتاً وكان من أثر ذلك أن أرتفع البحر فوق مستوى الأرض حيث ترك لنا بعض الشطوط البحرية Raised Beaches التى تبين دراستها تذبذب خط الساحل أثناء عصر البلايستوسين .

وقد عرفت هذه الشطوط بأنها بحرية لأنها مكونة من الحصى والحصباء والرمال البحرية وغيرها من التكوينات التى تنتج عن أصطدام أمواج البحر بالساحل فتحطم الصخور التى تتفتت بدورها إلى حصى ورمال يحمله مياه البحر ثم يرسبه ليكون الشط ذاته . ويظهر هذا الشط عقب هبوط مستوى سطح البحر حيث يظهر على هيئة خط طويل من الرواسب .

وقد درس العالمان prof. Depert و De Lamothe سواحل الريفيرا الايطالية الفرنسية وسواحل الجزائر على التوالى فى عامى ١٩٠٦ و ١٩١١ ووجدا أن هناك شطوطاً مرتفعة يمكن تتبعها فى سواحل البحر المتوسط . وقد ميز لاموث عدة شواطىء قديمة للساحل الإفريقى الشمالى تقع على مستويات ٣٢٥ متراً و ٢٦٥ متراً و ٢٠٤ متراً ، و ١٤٨ متراً و ١٠٣ متراً وحوالى ٦٠ متراً و ٣٠ متراً و ١٨ — ٢٠ متر فوق مستوى البحر الحالى . غير أنه بين هؤلاء أربعة أو خمسة مدرجات عليا تكونت قبل عصر البلايستوسين [١] . وترتبط هذه الشطوط بمدرجات نهرية عثر عليها فى أنهار كثيرة فى قارتى أوربا وإفريقية .

---

(1) W. J. Sollas, ancient Hunters, London, 1924, P 30 Zeuner, F. E., The Pleistocene period, London, 1959, P. 282.

ومعنى ذلك أن البحر المتوسط قد أرتفع فوق مستواه الحالى عدة مرات خلال عصر البلايستوسين ، ذلك بالاضافة إلى أن الدراسة قد أوضحت أن هناك أحد الشطوط الغاطسة تحت مستوى البحر الحالى وبطبيعة الحال كانت هذه الشطوط هى خط الساحل القديم . هذا مع ملاحظة أن الشط الأخير لا يمكن أن ترجع نشأته إلى أنخفاض مستوى سطح البحر عند الجزائر فحسب بل لا بد وأن تكون عملية الأنخفاض قد شملت كل البحر المتوسط ، بل ربما أيضا المحيطين الأطلس والهادى . وبناء على ذلك توصل لاموث إلى أن خطوط الساحل الموجودة فى شمال إفريقية لا بد وأن يكون لها مثيل على الساحل الشمالى للبحر المتوسط وبالفعل أستطاع البروفسير Depert أن يعثر على خمسة مدرجات نهرية فى نهر الدون تتفق من حيث أرتفاعها مع مدرجات نهر أيسر Isser التى صاحبت بدورها الشطوط البحرية الموجودة على ساحل البحر المتوسط (١) .

وقد أستمر دى لاموث فى دراسته لشواطىء الجزائر إلى أن تمكن من نشر نتائج ابحاثه فى عام ١٩١١ ثم بدأ الجيولوجيون بعد ذلك فى البحث والتنقيب عن شواطىء أخرى مماثلة فى البحر المتوسط .

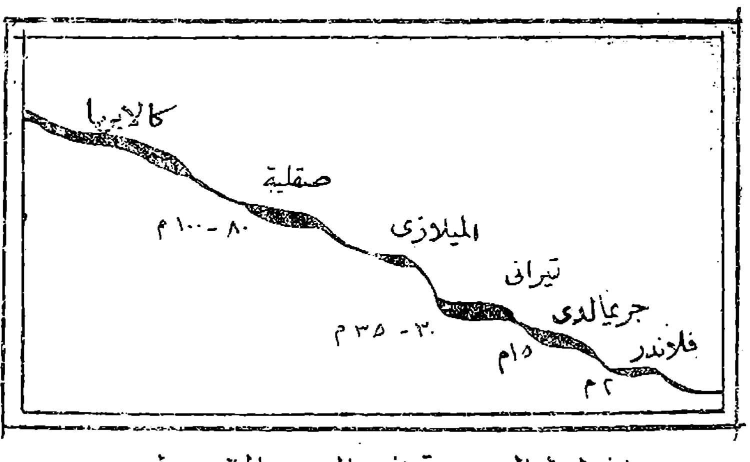
والصعوبة فى دراسة الشوط البحرية فى شمال إفريقية أنها لا تسير مسافة طويلة على ساحل البحر والسبب فى ذلك هو أن هذه الشطوط تعرضت منذ زمن تكوينها إلى عوامل التعرية الهوائية والنهرية ذلك إلى جانب العوامل البشرية التى ساعدت على تحطيمها فى المناطق الكثيفة العمران مثل ساحل الاسكندرية . وعلى أى حال فما بقى منها فى شمال إفريقية يدل على نوع من الأتفاق التام فى الأرتفاع فى حدود متر أو مترين ، وبعبارة أخرى فان دراسة هذه الشطوط أعطتنا فكرة

---

(1) I Bid, P. 283.

عامة عن الشطوط البحرية حول البحر المتوسط وذلك من حيث أرتفاعهما وتواليها والمواد المكونة منهما ومدى إنتشارها ونوع الحفريات الحيوانية والنباتية الموجودة بهما والتى بدورهما تعطينا فكرة عن الظروف المناخية التى تكونت فى ظلها هذه الشطوط . ذلك بالاضافة إلى أن الآلات الحجرية التى عثر عليها فى هذه الشطوط تساعدنا على معرفة المقدرة الحضارية للانسان الذى عاش فى هذه الفترة .

أما عن هذه الشطوط (شكل ١٢) فقد أمكن — بصفة عامة — حساب ستة شطوط بحرية على أرتفاعات مختلفة . الأقدام فيهما أكثر أرتفاعا وذلك لأن البحر المتوسط كان ينكمش باستمرار بعد كل فترة . وهذه الشطوط هى : —



الشطوط البحرية فى البحر المتوسط

شكل (١٢)

١ — شط كالابريا Calabrian Beach ويصل أرتفاعه إلى أكثر من ٦٠٠ متر ويتميز بوجود حيوانات محبة للدفء ذلك إلى جانب حيوانات محبة للبرد

ظهرت لأول مرة (١) .

٢ — الشط الصقيلى Sicilian Beach ويوجد فى بعض الأحيان فوق شط كالابريا ويحتوى على حيوانات محبة للبرد ويعتقد أنها قدمت كمهاجرة من المحيط إلى البحر المتوسط . ويصل متوسط أرتفاع هذا الشط فى الشواطىء الشمالية للجزائر حوالى ١٠٣ متراً وفى مصر ما بين ٨٠ و ١٠٠ متر ، أما فى السواحل الأوربية فيتراوح أرتفاعه ما بين ٧٠ — ١٠٠ متر ويعتقد أن هذا الشط تكون قبل جليد الجنز أو فى أواخــــر عصر البلايستوسين وأوائل البلايستوسين ولكنه لم يظهر إلا بعد إنتهاء الفترة الجليدية الأولى .

٣ — الشط الميلازى Milazzian Beach وينسب إلى ميلازو milazzo على ساحل صقلية ومتوسط أرتفاعه فى سواحل أوربا ٦٠ متراً بينما يتراوح أرتفاعه فى ساحل شمال إفريقية ما بين ٥٦ و ٦٠ متراً . ويحتوى هذا الشط على نفس حفريات الحيوانات التى عثر عليها فى الشط الصقيلى . وقد تكون فى الفترة غير الجليدية الأولى « جنز — مندل » . وظهر بعد جليد المندل Mindle ، والقواقع التى عثر عليها محبة للبرد (٢) (شكل ١٣) .

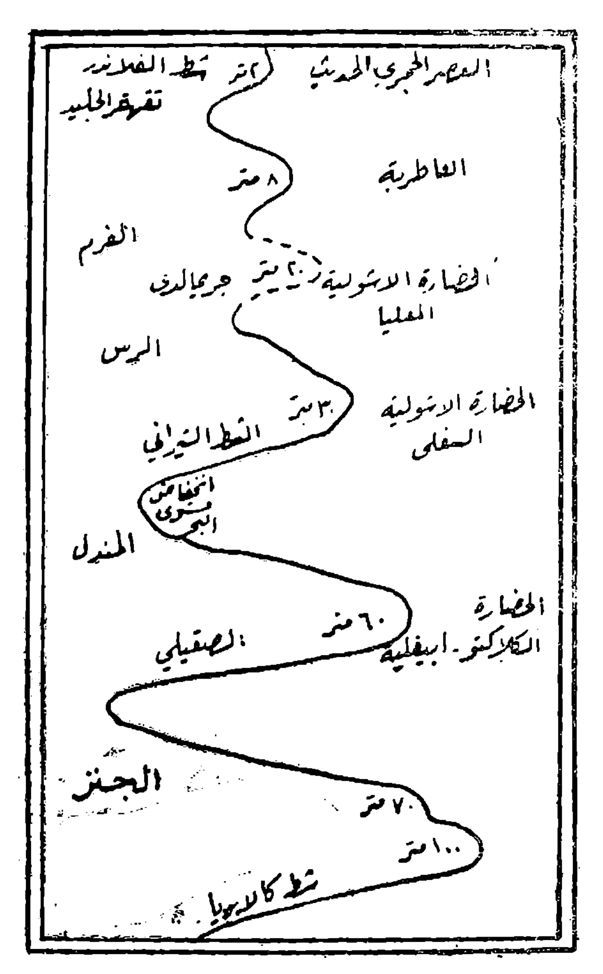
٤ — الشط التيرانى Monasirfan beach ويتراوح أرتفاعه ما بين ٢٠ و ٣٥

---

(١) يجب ملاحظة أن طبيعة الحيوانات المحبة للبرد أو الدفء التى توجد حفرياتها بين رواسب الشطوط البحرية لا تمثل معايير مطلقة لتتبع الشطوط البحرية فى شمال إفريقية . فقد اتفق الجيولوجيون فى الوقت الحاضر على أن طغيان البحر قد حـــدث نتيجة لذوبان الغطاءات الجليدية فى الفترات غير الجليدية Inter Glacial Period ، وأنه ترتب على وصول المياه الباردة الى المحيطات أن دفعت الحيوانات التى تعيش فى العروض العليا نحو العروض الدنيا ، كما دفعتهم ايضاً من اعماق البحار إلى المناطق الضحلة قرب السواحل ، ومن ثم فقد صاحب كل طغيان Transgression سواء فى بدايته أو مأخرته وبأى صورة كانت تقدم انواع حيوانية محبة للبرد

(2) Alimen, op. cit., P. 3

متراً و يصل فى مصر إلى ٤٠ متراً وفى الجزائر إلى ٣٠ متراً ، وتكون بين المندل والرس والقواقع التى ظهرت به كانت محبة للدفء .



شكل (١٣) طغيان وانحسار مياه المحيط الاطلسى عن ساحل مراكش

٥ — الشط المونستيرى Monasitrian beach وهناك نوعين من هـذا الشط أحدهما متقدم ومتوسط أرتفاعه ١٨ متراً فى أوربا ، وفى مصر مابين ١٥ و ٢٠ متراً . وفى الجزائر ما بين ١٨ — ٢٠ متراً، والمونستيرى المتأخر أوشط جريمالدى

Griamldian ويبلغ متوسط ارتفاعه فى أوربا ٥ر٧ متراً وفى مصر ما بين ٥ و ١٠ أمتار . وقد تكون الشط المونستيرى الاول بين الرس والفرم بينما تكون المونستيرى المتأخر بين فرام ١ ، وفرام ٢ .

٦ — شط الفلاندر Flandrian beach ويبلغ متوسط ارتفاعه ٥ر١ متراً وهو لا يظهر فى جهات كثيره . وقد تكون مع نهاية العصر الجليدى .

والخلاصة أن العلاقة بين ساحل شمال إفريقية والبحر المتوسط لم تكن ثابته فى خلال عصر البلايستوسين بل حدث تذبذب فى خط الساحل على النحو الآتى:

طغى البحر على الساحل فى أثناء تكوين شط كالابريا فارتفع خط الساحل من ١٠٠ متر إلى مايزيد على ٦٠٠ متر ثم تقهقر البحر بعد ذلك لفتره من الزمن ولكنه مالبث أن عاود طغيانه فتكون الشط الصقلى على ارتفاع ٨٠ متراً الذى انتهى بفترة انخفض فيها مستوى البحر ثانياً وعرفت هذه الفتره باسم Roman Regression . هذا وقد احتوى شط كالابريا والشط الصقلى على حيونات محبه للبرد ، ثم تكون بعد ذلك الشط التيرانى نتيجة لارتفاع مستوى البحر المتوسط وصاحبة تكوين حيوانات محبة المدفء .

عقب ذلك انحسرت مياه البحر فى فتره تقهقر جريمالدى وتكون الشط المونستيرى على ارتفاع يتراوح ما بين ١٥ — ٢٠ متراً ، وقد حدث فى هذه الفتره ارتفاع بسيط فى مياه البحر . واخيراً ارتفع مستوى البحر للمرة الاخيرة ارتفاعاً بسيطاً عن مستواه الحالى فتكون شط الفلاندر[1]. وإلى جانب الشطوط البحرية التى تعطينا فكره عن تطور الساحل الشمالى لإفريقية ابان عصر البلايستوسين هناك المدرجات النهرية التى وجدت على جانبى النيل .

(1) Ibid, P. 45.

ويرتبط تكوين المدرجات النهرية River Terraces أو المصاطب النهرية فى شمال إفريقية باختلاف مستوى البحر أو كما يطلق عليه مستوى الانصباب فحينما يكون مستوى البحر منخفضاً لا بد للبحر أن يقطع مسافة أطول ليصل إلى المستوى الجديد ، وفى هذه الحالة تنشط عمليات التحات حيث يعمق النهر مجراه ومن ثم يترك على جانبية مدرجات نهرية .

أما فى الحالة الثانية وهى ارتفاع مستوى البحر فيطغى الماء على الجزء الأدنى من المجرى ، ويغرق المجرى القديم وبذلك يصبح جزءا من المجرى على هيئة خليج بحرى ، وفى هذه الحالة تنشط عملية الارساب ثم تتكرر الدورة ويبدأ مستوى البحر فى الانخفاض ويعمل النهر على النحت فتتكون المصاطب النهرية .

ونستطيع أن نربط بين تكوين المصاطب النهرية وتكوين الشطوط البحرية بأن تلك الفترات التى كان ينحسر فيها البحر هى تلك الفترات التى كان فيها النهر ينشط فى مجراه والفترات التى يطغى فيها هى الفترات التى يحدث فيها الارساب . كذلك نستطيع أن نربط بين حدوث الشطوط البحرية وبين التغيرات المناخية فى العصور الجليدية ، ومن هذا كله نستطيع أن نربط بين حدوث المدرجات النهرية والفترات الجليدية وغير الجليدية أى بتغير المناخ فى أوربا الذى يتصل بدوره بتغير كمية الأمطار فى شمال إفريقية .

ولعل من أبرز وأشهر المدرجات النهرية فى شمال إفريقية تلك التى وجدت على جانبى نهر النيل والتى رسم لها جون بول فى أبحاثه قطاعاً مثالياً [1] (شكل ١٤) غير أن هذا القطاع بجميع مدرجاته لا يظهر فى أى مكان من وادى النيل ، بمعنى أن عوامل التعرية قد أزالت من آن لآخر أجزاء من هذه المدرجات أو

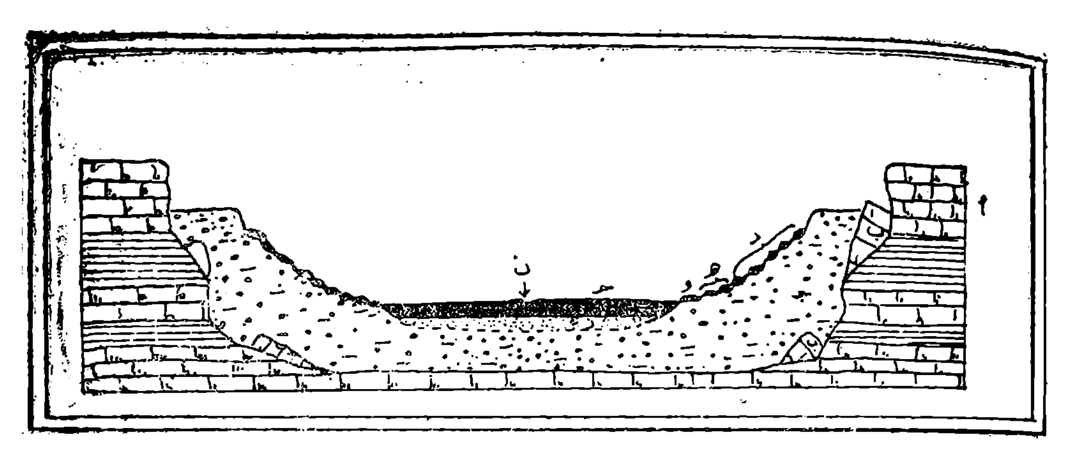
(1) Ball, J. Contributions to the Geography of Egypt, Cairo, 1939.

بعضها ، كما أن المدرجات فى الجهات العمرانية قد تهدمت وتحولت إلى أكوام من الحصى والحصباء . وقد سويت فى بعض الأحيان بالأراضى الزراعية ودخلت ضمن أحواضها .

هذا وقد وجدت عـلى جوانب الأودية الجافة التى تنساب إلى النيل من الصحراء الشرقيه مدرجات تشبه تلك الموجودة على النهر ذاته ، وتعليل تكوين هذه المدرجات أن مستوى النهر كان يرتفع وينخفض بارتفاع وانخفاض مستوى البحر المتوسط . ولما كان هذا النهر هـو المصب لهذه الأودية الجافة كان من الطبيعى أن يعمل الوادى « الجـاف » الممتلىء بالماء عـلى حفر مجراه عندما ينخفض مستوى نهر النيل ، وأما أثناء الارتفاع فكان يكون سهول فيضية .

والمدرجات على جانبى النيل أمكن احصاءها ودراستها ورسم مايقرب من عشرة مدرجات منها بعضها على مستوى مرتفع والبعض الآخر عـلى مستوى منخفض — ولا توجد المدرجات العالية فى الوقت الحاضر إلا فى الجزء الأعلى من وادى النيل لأن المدرجات العليا أقدم المدرجات إذ تكونت فى الفترات التى كان فيها المجرى الادنى للنيل مغموراً بخليج مائى يمتد من سواحل البحر الحالية حتى أدفو ، وكان يتقهقر بالتدريج نحـو الشمال إلى أن وصل إلى القاهرة ثم تقهقر نحـو الشمال إلى أن وصل إلى مستواه الحـالى وبطبيعة الحال هذه الذبذبات الشديدة بين طغيان البحر وانحساره ، وبين تكوين خليج مائى وإعادة غمرة بالطمى مرة أخرى ، كل ذلك أدى إلى تغير مجرى النيل الادنى فى عصر البلايستوسين .

وتقع أعلى مدرجات نهر النيل عـلى ارتفاع ٢٤٠ ، ١١٥ ، ٩٠ ، ٦٠ ، ٤٥ متراً فوق مستوى الفيضان الحالى . ومعنى ذلك أن مجرى نهر النيل كان فى وقت



شكل ١٤ — قطاع تقريبى لوادى النيل فى صعيد مصر ، يوضح المدرجات النهرية والاطار الصخرى المحيط بالوادى .

أ — تكوينات عصر الايوسين والطباشير حيث حفر الوادى لأول مرة فى اواخر الزمن الثالث .

ب — قطع منهارة من الصخور نفسها .

ج — حطام من الحصى والرمال امتلأ به الوادى فى عصر البلايوسين .

د — اقدام المدرجات واعلاه من اواخر البليوسين واوئل البلايوسين.

هـ — مدرجات معاصرة للحضارة الحجرية القديمة .

و — مدرجات العصر الحجرى القديم الاعلى .

ز — التربة السفلى القديمة .

ح — التربة النيلية العليا .

ن — مجرى نهر النيل « نقلا عن جوت بول »

ما أثناء عصر البلايستوسين أعلى من مستواه الحالى بمقدار أرتفاع المدرجات السابقة ، وأنه كون مدرجاته وأنخفض إلى مستواه الحالى تدريجياً بعد أن أخذ مستوى الانصباب فى الهبوط .

وهذا ولم يعثر فى المدرجات المرتفعة على جانبى النيل على آلات حجرية من

مخلفات الإنسان فى عصر ماقبل التاريخ (١) إذ يعتقد بعض الباحثين ولا سيما ساندفورد وأركل أن هذه المدرجات تكونت فى أواخر البلايوسين وأوائل البلايستوسين حيث عاصرت أقدم مراحل التعرية والأرساب (٢) .

أما المدرجات الوسطى التى توجد على أرتفاع ٣٠ متراً و ١٥ متراً فيمكن تتبعها فى منطقة النوبة ومصر العليا وهى ترجع إلى أوائل العصر الحجرى القديم

---

(١) دراسة المدرجات النهرية على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لدراسة أصول الحضارة المصرية القديمة إذ عن طريق دراسة الادلة المادية والبقايا الحيوانية التى يعثر عليها فيها يمكن أن نعرف الفترة الزمنية التى كان يعيش فيهـا الإنسان وذلك إلى جانب العصر الحضارى سواء كان العصر الحجرى القديم أو الأوسط أو غير ذلك لان الانسان كان يترك أثاره على المدرجات وهو يعيش على ضفاف النهر فاذا ما حدث وعمق النهر مجراه وتكون مدرج آخر هبط الإنسان معه وتركه آثاره فوقه . وهكذا تتوالى الاثار البشرية على ضفاف النهر .

اما من حيث التعرف على فترات الجفاف والمطر فتدرس الرواسب والصخور المكونة لهذا المدرج فاذا ما وجدت تكوينات البرشيا او التكوينات الرملية فهذا دليل على حدوث فترات جفاف اما إذا ما وجدت تكوينات رسوبية فهذا دليل على حدوث فترات ممطرة .هذا ويجب ان نلفت النظر إلى انه بالنسبة لمصر فمن العسير معرفة تغيرات المناخ معتمدين فى ذلك على المدرجات النهرية لان الاودية الجفافة التى تصب فى نهر النيل الآن كانت تملاء بالمياه فى فصول معينة ومن ثم كانت مياهها تجرف امامها وهى فى طريقها إلى النهر ما عسى ان يكون قد تكون من تكوينات البرشيا أو التكوينات الهوائية ثم تعيد ارسابها على شكل رواسب نهرية فلا يمكن ان يستدل منها على المناخ اى ان هذه المياه الجارية تفسد هـذا النوع من الادلة التى تشير إلى ذبذبة المناخ .

(٢) يلاحظ ان المدرجات النهرية التى وجدت على جانبي النيل وتنتمى إلى اواخر البلايوسين واوائل البلايستوسين تتكون من الحصى والرمال الخشنة التى جاءت من مرتفعات البحر الاحمر . هذا وقد اقترح سانت فورد واركل بناء على دراستها ان الرواسب الحبشية لم تصل إلى النوبة ومصر حتى العصر الحجرى القديم الأوسط بل حتى ايضاً العصر الحجرى القديم الاعلى ، ومن ثم فهذا دليل على أن اتصال المنابع العليا للنيل بأجزائه الدنيا لايرجع إلى اكثر من الفترة غير المطيرة الأولى او بداية الفترة المطيرة الثانية فى عصر البلايستوسين . انظر .

S.A. Huzayyin, Recent Physiogrophic In The Lower Nile Valley, In Proceedings of Pan-African Congress on Prehistory, Oxford 1947. P. 76.

إذ عثر فى مدرج ٣٠ متراً على ألات شيلية بينما وجدت آلات أشولية على مدرج ١٥ متراً .

أما بالنسبة للمدرجات المنخفضة والتى توجد على أرتفاع ٩ و ٣ أمتار فيمكن تتبعها من أسوان إلى أسيوط ، اما بعد ذلك فقد حطمت المدرجات بواسطة عوامل التعرية والنحت . وقد وجد فى مدرج ١٩ مترا آلات ترجع إلى أوائل العصر الموستيرى فى حين أرجعت الآلات التى وجدت فى مدرج ٣ أمتار إلى أواخر العصر نفسه .

والخلاصة أنه لم يعثر على أى نوع من الآلات الحجرية فى المدرجات التى وجدت على أرتفاع ٩٠ ، ٦٥ و ٤٥ متراً لان هذه المدرجات تكونت فى عصر البلايوسين وأوائل عصر البلايستوسين فى حين وجدت الآلات فى المدرجات الباقية وكان توزيعها على النحو التالى (١) .

رقم المدرج	نوع الآلات
مدرج ٣٠ متراً	أدوات شل وأشوليه وشظايا كلاكتونية وجدت الآلات الاشولية فوق سطح الارض
مدرج ١٢ متراً	أدوات أشولية تنتمى إلى الاشل الاسفل والاوسط تبعاً لرأى د. سليمان حزين
مدرج ٩ متراً	أدوات ليفالوازية وجدت على السطح
مدرج ٣ متراً	أدوات ليفالوزاية وموستيرية تبعاً لسندندفورد وأركل .

(1) Alimen, op. cit., P. 79

وبعد ذلك ندخل فى العصر الحجرى القديم الأعلى حيث تنتهى حضارات العصر الحجرى القديم فى مصر ومن ثم ندخل فى حضارات العصر الحجرى المتوسط Mesolithic التى توجد بعض آثارها على المدرجات النهرية وكذلك الحال بالنسبة للعصر الحجرى الحديث على الرغم من أن الحضارة الأخيرة ممثلة فى منخفض الفيوم والواحة الخارجة .

ومعنى ذلك أن وادى النيل نفسه لم يكن بيئة مغرية ليسكنها الإنسان فى أثناء العصر الحجرى الحديث وذلك لعدة أسباب منها .

أ - أن وادى النيل نفسه كان كثير المستنقعات والأعشاب .

ب - لم يتمكن النهر بعد من أن يتم حفر مجراه .

جـ - أن الصحراء المحيطة بالوادى لم تكن من الجفاف بحيث يضطر الإنسان إلى أن يهبط مجرى النيل . وهذا أمر طبيعى إذ لم يكن هناك داعى لأن يجبر الإنسان على العيش فى وسط المستنقعات فى نفس الوقت الذى وجد أمامه فرصة الاختيار للعيش فى مناطق واسعة تسقط عليها كمية من الأمطار كافيا لقيام حياة نباتية وحيوانية يعيش عليها . كما سنعرف فى الفصول القادمة أنه مع نهاية العصر الحجرى الحديث حينما صار المناخ نحو الجفاف التدريجى أضطر الإنسان إلى أن يهبط إلى جانبى النهر ، وأنه فى أثناء هبوطه كان شديد التردد بدليل أنه أكتفى بالسكنى على حافتى الهضبة على مسافة كافية من وادى النهر وفى نفس الوقت بعيداً عن غوائل الفيضان ، وأنه لم يستقر بجانب النهر إلا حينما أصبح قادراً على ضبط مجرى النهر ، وبعد أن شيد محلاته العمرانية فوق أكوام من الحجارة والطوب لكى لا تغرق . وهذه مرحلة متقدمة من الحضارة تقودنا إلى عصر ما قبل الاسرات أو الى فجر الحضارة المصرية القديمة .

ربط التغيرات المناخية والنباتية والبيئة فى شمال افريقية بالحضارات الانسانية أثناء عصر البلايستوستين :

لقد أمتاز عصر البلايستوسين بحدوث ظاهرات مناخية كبرى كان من أثرها تكوين الجليد فى شمال أوربا وتغطية مساحة كبيرة منها وذلك فى خلال أربع فترات جليدية . وقد ترتب على ذلك أختلاف نظام توزيع الرياح ومن ثم اختلاف توزيع النطاقات المناخية الموجودة فى أوربا وأفريقية اذ تزحزح نطاق البحر المتوسط نحو الجنوب ليشمل جزءاً كبيراً من الاراضى التى يطلق عليها اليوم اسم الصحراء .

ومن دراسة الادلة المختلفة التى أمكن جمعها من الصحراء الكبرى أمكننا التواصل الى أن شمال افريقية شهد أدوار مطيرة Piuvial Periods أستمرت من البلايوسين الأعلى الى نهاية عصر البلايستوسين وأنقسمت الى فترتين مطيرتين أستغرقت فترة طويلة من الزمن ، منذ نهاية البلايوسين وحتى البلايستوسين الأسفل ، وامتازت أساسا بحفر الأودية فى الصخور التى تغطى سطح الصحراء وتكوين مدرجات نهرية كبيرة . وهذا الدور لا نعرف عن تفاصيله كثيراً اللهم الا أنه بدأ باردا نوعاً ما ثم ارتفعت درجة الحرارة فى الجزء الأوسط اثناء حضارة شل ثم عاد الى البرودة النسبية فى اواخره . ومن المؤكد أن هذا الدور المطير قد شهد أكثر من قمة للمطر . وقد أستمرت الفترة المطيرة الأولى حتى نهاية عصر البلايستوسين الأسفل ثم تبعها بعد ذلك مرحلة جفاف أمتازت بالحركات الأرضية . (١)

وتعرف فترة الجفاف هذه باسم الفترة غير المطيرة الأولى Inter Pluvial Period

---

(1) S. A. Huzayyin, changes in climate, vegetation. op. cit., P. 313 .

التى يعيشهـــا أنقرضت بعض الحيوانات وذلك أثناء الحضارة الاشولية . وقد كانت الفترة غير المطيرة الأولى قصيرة الامد ولكن تأثيرها وفعاليتها كان عظيم المدى ليس فحسب على الحياة النباتية والحيوانية والمجموعات البشرية بل أيضا على تشكيل سطح الصحراء . فقد تكونت الكثبان الرملية القديمة فى هـذه الفترة كما حدثت حركات بركانية ولا سيما فى مراكش الغربية وبعض جهات الجزائر وتونس . وقد نتج عن هذه الحركات ظهور طفوح بركانيـة ولافا فى مراكش (١) وأنكسارات فى الجزائر وتونس .

وبعد ذلك جاء دور مطير ثان The Second Pluvial Phase اتفق فى توقيته مع عصر البلايستوسين الأعلى ومع حضارة العصر الحجرى القديم الأوسط والأعلى اذ عاصر نهاية الحضارة الاشولية والحضارة الموستيرية . وقد كانت الفترة المطيرة الثانية أقصر من الفترة الأولى غير أنها شهدت أكثر من قمتين للمطير ، كما أمتازت اساسا بالانخفاض النسبى لدرجة الحرارة . ويختلف هذا الدور عن الدور الأول إذ زادت الروابط بين آسيا وإفريقية فى هـذه الفترة فهاجرت الحيوانات من القارة الأولى صوب الثانية أى أنها هاجرت مع خطوط العرض وليست عبرها من وسط إفريقية إلى شمالها . وربما أعتبر هذا دليلا على أن متوسط درجة الحرارة فى الدور المطير الثانى كان معتدلا أو مائلا للبرودة لأنها سمحت لهجرة الحيوانات الآسيوية من خطوط العرض الوسطى . وفى هذا الدور كان يعيش فى شمال إفريقية أيضاً حيوانات محبة للبرد أو لدرجة حرارة مائلة للبرد مثل الخرتيت الموسكى الذى كان يعيش فى نفس الوقت فى جنوب أوربا

---

(١) فيما يختص بمراكش فى فترة ما قبل التاريخ إرجع إلى :

Ruhlman, A., Prehistoric Morocco, in Proceedings of the Pan-African Congress on prehistory, Oxford, 1947. P. 14.

أما فى داخل الصحراء فقد زادت كمية التساقط الامر الذى ساعد على هجرة بعض الحيوانات والنباتات الشمالية إلى الصحراء وعلى كل حال فمعلوماتنا بالنسبة للصحراء الكبرى فى الدور المطير الثانى ليست كافية وكل ما أمكن معرفته بالاضافة إلى ماسبق ذكره أنه اقصر من الدور المطير الأول ، وأنه أقل أهمية منه وذلك من الناحية الفيزيوجرافية وربما كان له قمتان يفصل أحدهما عن الاخر فترة قصيرة غير مطيرة .

وجاء فى أعقاب الفترة المطيرة الثانية فترة جفاف ثانية وذلك مع نهاية عصر البلايستوسين ، غير أن حالة الجفاف قد تخللها فترةرطبة Wet Phase وذلك فى اثناء العصر الحجرى الحديث حيث تجددت الثروة الحيوانية الموجوده فى شمال إفريقية وظهر لأول مره الفيل الافريقى الذى وجدت بقايا مدفونة فى مراكش (١) والتى احتوت ايضا على ادلة نباتية تشير الى حياة غابية فى بعض اجزاء مراكش . ومن الحيوانات الأخرى التى عاشت فى هذه الفتره الفهد والدب وفرس النهر وبعض أنواع الجاموس والغزلان .

وقد امتازت الفتره الرطبة او « الفتره المطيره الثالثة» كما يحلو للبعض تسميتها بارتفاع قليل فى درجة الحراره ، ويبدو ان هذا الدور لم يستمر إلا لفتره قصيره أى إلى العصر التاريخى حيث بدا يحل الجفاف التدريجى حتى انتهى شمال افريقية الى الوضع الذى عليه الآن .

وقد ترتب على فتره الجفاف الشديد فى العصر الحجرى الحديث ان حاول كل من الانسان والحيوان ان يهاجر من الصحراء المكشوفة ليستقر فى الواحات وعلى حواف الأودية النهرية ثم بعد ذلك فى بطونها . وقد ادى ذلك إلى اقتراب

---

(1) Mc Burney, Op. cit., P. 37

الحيوان من الانسان. وبالتدريج بعد ان استقر الإنسان بجانب موارد المياه الدائمة تعلم زراعة الحبوب واستأنس الحيوان والارتباط بالارض وتشيد الاكواخ واقامة النوايات الاولى لحياة القرى.

أما تاريخ ذلك الاستقرار فيختلف من مكان لآخر فى شمال إفريقية غير أنه بالنسبة لمصر حدث فى أواخر الالف السادسة ق. م. حيث تمكن الإنسان من زراعة القمح فى مصر حينئذ واصبحت الزراعة معروفة فى وادى النيل الادنى (١) هذا وقد بدأت مرحلة العصر الحجرى الحديث الرطبة (٢) فى منتصف الالف السادسة ق. م. وأستمرت بعد ذلك لمدة ٣٠٠٠ سنة أخرى إلى أن بدأ الجفاف التدريجى الذى حدث فى الفترات الحديثة وقد عثر على بقايا حضارة العصر الحجرى الحديث فى جهات متناثرة فى الصحراء السودانية وعلى حدود الصحراء فى مراكش والجزائر وفى قمم المناطق الجبلية فى وسط الصحراء وكذلك فى بعض الواحات وصحراء ليبيا. وقد كان هناك اتفاق بين حدود الصحراء فى السودان الغربى وبعض الواحات المصرية (٣).

---

(١) اضواء على العصر الحجرى الحديث « ثلاثة فصول مترجمة من كتاب ماقبل التاريخ بدايات المدنية تأليف ج. هاوكس ترجمة يسرى الجوهرى - بيروت - ١٩٦٧.

(٢) مما هو جدير بالذكر أن الحبشة وشمال إفريقية شهدتا فترة مماثلة اطلق عليها هناك اسم فترة ماكليان الباردة Makalin Wet Phase . وقد أمتاز نهر النيل فى هذه الفترة بفيضات عالية حدثت قبل بداية العصر الحجرى واستمرت فى أثنائه لفترة من الزمن إلى عصر ما قبل الاسرات حيث بدأت فترة دفيئة رطبة تتفق فى تاريخها مع فترة أحسن المناخ Climate Optimum Phase فى شمال غرب أوربا.

(3) Huzayyin, op. cit., P. 816

الفصل الثاني

شمال افريقية ابان العصور الحجرية

« العصر الحجرى القديم - العصر الحجرى المتوسط -
العصر الحجرى الحديث »

الفصل الثانى

شمال افريقية ابان العصور الحجرية

لم يكن تطور الإنسان الاحيائى والحضارى بمعزل عن تطور البيئة الجغرافية فى شمال إفريقية إذ أن جزءاً كبيراً من عصر ما قبل التاريخ كان يقع فى الزمن الرابع الذى شهد كما سبق - أن واضحاً - فى شمال إفريقية عصور مطيرة وفترات جافة ذلك إلى جانب التغيرات الفيزيوجرافية الهامة التى من بينها تغير خط الساحل ، وتكوين المدرجات النهرية ، وظهور الاودية الجافة ، ونشأت بعض الواحات ، وتكوين وادى النيل وظهور الصحراء بمظهرها الذى توجد عليه فى الوقت الحاضر .

وقد تطور الجنس البشرى خلال هذه الفتره إلى النوع البشرى الذى ننتمى إليه ، كما أنه إكتسب خبرات عديدة كان من بينها إستخدام فروع الأشجار والأحجار كأهم آلاته ومن ثم كان تسمية الفتره التى ساد فيها هذا النوع من الآلات باسم العصر الحجرى القديم . وعرف بعد ذلك الزراعة فانتقل إلى العصر الحجرى الحديث ، وظل بعد ذلك يرتقى فى حضارته وثقافته فعرف البرونز والحديد ، كما تعلم كيف يستخدم قوة الرياح وإندفاع المياه فى اغراضه المتعدده . وهكذا ظل يضيف إلى خبراته السابقة خبرات جديده ومن ثم إنتقل من عصر ما قبل التاريخ إلى عصر فجر التاريخ وذلك خلال فتره طويلة من الزمن (١) .

---

(١) لدراسة التطور الحضارى للانسان بصفة عامة . أنظر .

Childe, G., Social evolution, London, 1951 — Childe, G., What happened in history, Middlesex, 1943.

أولا - العصر الحجرى القديم

والعصر الحجرى القديم الذى يمثل المرحلة الأولى من مراحل التطور الحضارى للإنسان فى شمال إفريقية يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام وهى العصر الحجرى القديم الأسفل Lower paleaolithic ، والأوسط Middle Paleaolithic والأعلى Upper Paleaolithic . والعصر الحجرى القديم الأسفل مرحلة طويلة من الزمن إستغرقت مايقرب من ٤٠٠,٠٠٠ سنة تمكن الانسان خلالها من أن يكمل صفاته الانسانية ويكتسب صفة الانسان الصانع Homo Faber [١] وذلك فى ظل بيئة متنوعة تضم الجبال والهضاب ، والسهول والوديان ، والصحراء والغابات ، والكهوف والمغارات ؛ وفى ظل أيضا ظروف مناخية قاسية متفاوته بين أمطار غزيره وفترات جفاف حيث كان الإنسان يلجأ إلى الكهوف والمغارات الصخرية حين تسوء الأحوال الجوية وتشتد قسوه الظروف المناخية فى أثناء الفترات المطيره فى حين كان ينطلق إذ ما انتهت الأمطار للعيش فى السهول.

وفى خلال هذه الفتره الزمنية الطويلة كان مورد الغذاء الرئيسى هو الصيد بنوعيه البرى والبحرى ، وكانت جماعات الصيادين تعيش فى إعداد صغيره ولم يكن هناك ثمة اتصال بين المجموعات المختلفة . هذا مع ملاحظة أن إنسان العصر الحجرى القديم الأسفل لا يشبه من ناحية شكل هيكله وتكوينه الإنسان الحالى إذ كان قريب الشبه من القردة العليا كما كان حجم مخه صغيراً [٢] .

---

(١) يسرى الجوهرى — السلالات البشرية — الاسكندرية — ١٩٦٧ — ١٤

(٢) عثر بالجزائر فى باليكاو على حفرية تنتمى إلى مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل وتتكون من ثلاث عظام فكيه سفلية وتتصف بضخامة حجمها وثقل عظمها. وقد أثبتت الدراسات التشريحية والاركولوجية أن هذه الحفريات تنتمى إلى مجموعة اتلانثروبوس موريطانيكوس =

هذا ولا يوجد فى وقتنا الحاضر أى مجتمع إنسانى يشبه تلك المجتمعات التى عاشت فى شمال إفريقية فى مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل .

وقد اقتضت عملية الصيد وجمع الطعام والتقاطه صناعة بعض الادوات الحجرية . التى رغم أنها لم تشكل على هيئة آلات إلا أنه لوحظ — فى بعض الاحيان — أثناء هذا العصر ظهور صناعة النواة والشظايا . وأدوات هذا العصر يمكن تقسيمها من حيث المراحل الحضارية إلى ثلاثة أقسام وهى الحضارة الحصوية pebble Culture والحضارة الشلية والآشولية .

ففى فجر هـذا العصر كان الإنسان يصنع آلاته الحجرية من الصوان على شكل قطع مسطحه ذات حافات مشظاة مسننة . وكان الإنسان يتم صنع هذه الآلات بأى طريقة كانت. وغير معروف بالضبط هل استطاع الانسان فى هذه الفترة أن يعرف النار أم لا (١) ، وقد تطورت الصناعات الحجرية بعد ذلك

= Atlanthropus Mauritanicans التى تتصل بإنسان جاوة والصين .

وقد وجدت مجموعة أخرى من الحفريات الإنسانية المشابهة بالقرب من الدار البيضاء فى محجر سيدى عبد الرحمن ، ووجدت مصاحبة لحيوانات فقرية أخرى كوحيد القرن وفرس النهر ذلك إلى جانب فك إنسان سفلى اكتشف فى عام ١٩٥٥ فى كهف ليتورين Grottes De Littornes الذى ينتمى أيضا إلى مجموعة باليكاو palikao غير أن حجم اسنانه أقل من انسان باليكاو .

أما انسان الرباط فوجد فى كثبان رملية متحجرة Fossil Sand dunes بالقرب من الرباط وتشبه فى تكوينها الجيولوجى الحجر الرملى الذى عثر فيه على بقايا سيدى عبد الرحمن الأمر الذى يشير الى التشابه فى البيئة الجغرافية المحيطة بالإنسان فى كل من سيدى عبد الرحمن والرباط ذلك بالاضافة الى ان انسان الرباط ينتمى الى نفس المجموعة التى ينتمى اليها انسان بالكاو وسيدى عبد الرحمن . وبعبارة اخرى فان جميع الحفريات التى عثر عليها فى شمال افريقية وكانت مصاحبة لاثار العصر الحجرى القديم الأسفل ترتبط بانسان اتلانثربوس وبكين - لدراسة هذه المجموعة تفصيلا . انظر .

Cole, S., Races of Man, London, 1963.

(1) K. Oakley, on Man's use of fire with comments on tool making and hunters, in social life Early Man, Edit. by S. Washburn, N.Y., 1962. PP. 126 - 180.

فظهرت الفأس اليدوية ذات الشكل الكمثرى والجوانب الحادة غير المنتظمة . وقد شكك العلماء فى بداية البحث عن عصر ماقبل التاريخ أن تكون مثل هذه الآلات من صنع الإنسان. ولكن بتكرار العثور على قطع من الصوان مشظاة بشكل معين وبكميات كبيرة فى أماكن متناثرة ومختلطة مع بقايا حيوانية لا تدع مجالا للشك فى أنها ليست من صنع الطبيعة (١) .

وينتمى إلى هذه الصناعة الحضارة الأشولية وتسمى صناعة آلاتها باسم صناعة النواة لأن قطعة الصوان كما هى وغاية ما فى الأمر أن الإنسان يضربها من الناحيتين لعمل الحافة . وقد عرفت الحضارة الأشولية أيضاً فى شمال إفريقية باسم الكلاكتو - ابفلية . وتوجد آثار هذه الحضارات فى عدد من المواقع فى المغرب كمحجر سيدى عبد الرحمن ، وعين كرمان Inkerman فى جنوب مدينة الاصنام فى غرب الجزائر، ومحجر مارتين Martin ودبريه Deprez وعين فريطسة وعين الحنش التى تقع على بعد ٦ ك . م إلى الشمال الغربى من « العلمية » سانت ارنود Arnod (شكل ١٥).

فقد قسم أحد الباحثين هذه المواقع إلى أربعة أقسام رئيسية (٢) وهى :

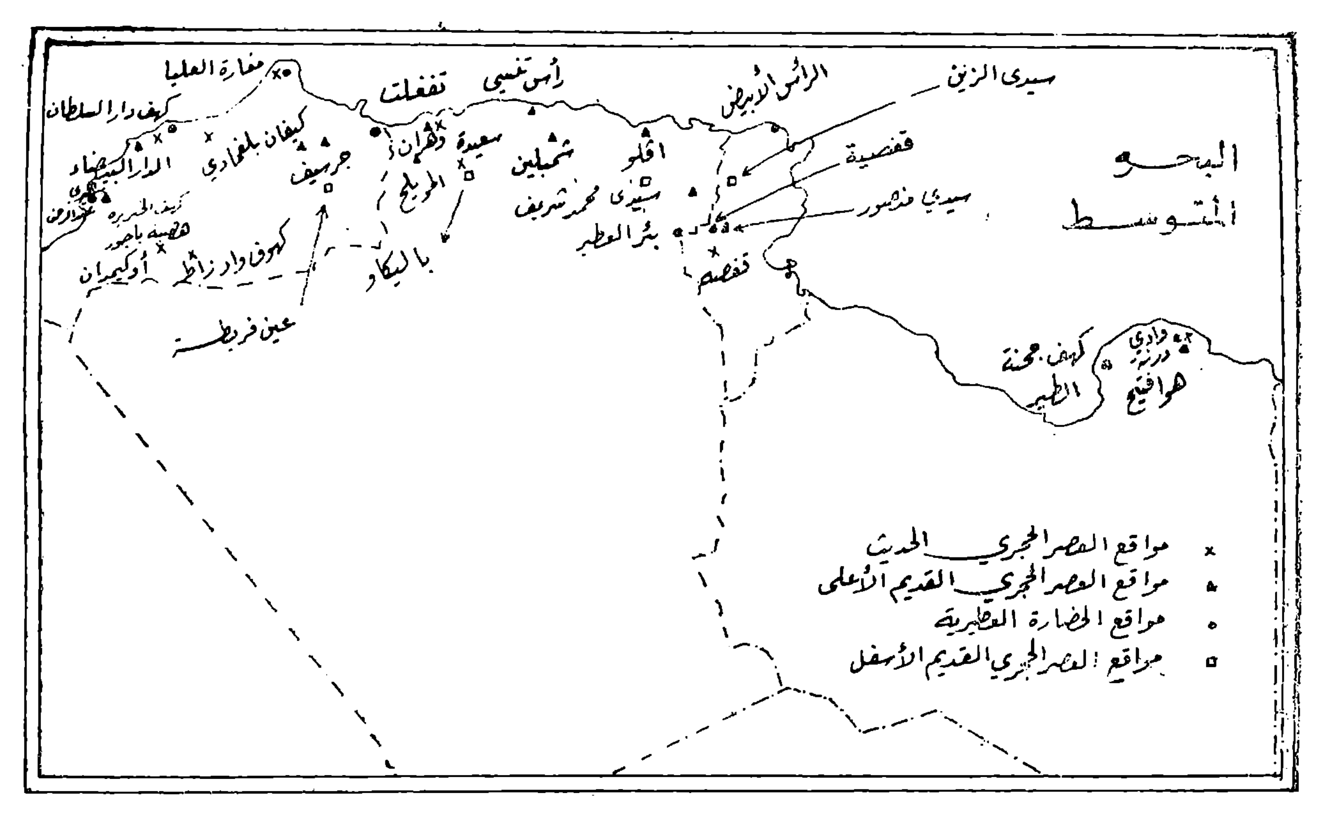
ا - مواقع ترتبط بتطورات الزمن الجيولوجى الرابع من الناحية البحرية مثل بعض المحاجر الساحلية كمحجر سيدى عبد الرحمن .

ب - مواقع سهلية لجأ الإنسان إليها بحثاً عن الطعام والشراب مثل عين كرمان وموقع الماء الأبيض El. ma- e. Abiod الذى يقع على بعدحوالى ٤٥ك.م

---

1 — K. Oakley, The earliest tool - makers, antiquity, vol. xxx, 1959, PP. 4-7.

(٢) رشيد الناضوري ص ٧٠ .



شكل ١٥ مواقع العصر الحجرى فى شمال إفريقية

إلى الجنوب من تمدأ ، وموقعي قفصه وسيدي الزين .

حـ ـــ مواقع العيون والآبار التي تجمع عندها الإنسان حيث ترك اثارة هناك مثل موقع عين الحنش، وبحيرة كارار Karar بجوار وتلمسان ترنيفين بجوار باليكاو في غرب الجزائر .

د ـــ مواقع صحراوية مثل تيهودين Tihodaine في هضبة الحجار .

ومن الصعب إيجاد تنوعات جغرافية بين الحضارات التي وجدت في هذه المواقع وذلك لإن الإنسان ما زال في الطور الحضاري الأول . على أي حال فربما كان أهم المواقع الأثرية السابقة ، وذلك من وجهة نظر الجغرافية التاريخية محجر سيدي عبد الرحمن (١) . الذي ميزه بعض العلماء بحضارة خاصة أطلقوا عليها اسم الرحمانية وهي نفس الحضارة المعروفة الـكلاكتو ابفيلية .

أما بالنسبة لمصر فقد أنتشرت حضارة الفأس اليدوية القائمة على صناعة الآلات الحجرية من النوايات الصخرية انتشاراً واسعاً ومن ثم أخـذت الطابع المحلي في بعض الجهات . وقد عرف الإنسان في خلالها طريقة إستخدام النار وكان يعيش في مناخ يمتاز بدفئه وشدة رطوبته .

أما في أثناء العصر الحجري القديم الأوسط فامتازت الآلات الحجرية في مصر بالتنوع حيث بدأت صناعة الآلات العظيمة ، كما بدأ في العثور على آثار للمواقد لأن المناخ امتاز في هذه الفترة بهبط في درجة الحرارة وأشتداد البرد

---

(١) محجر سيدي عبد الرحمن عبارة عن هضبة تنحدر من ارتفاع ١٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر إلى ساحل المحيط الاطلسي وذلك في مسافة ٥ ك م وقد استخدمت هذه الهضبة كمحاجر بصفة خاصة بالنسبه للحجر الرملي ، مما ساعد على اكتشاف كثير من الآثار في هذه المنطقه .

وذلك بالمقارنة بالمراحل السابقة . وقد كانت الحضارة السائدة فى هذه الفترة الحضارة الموستيرية التى امتازت آلاتها بأنها صنعت من الشظايا Flake وليست النواة . وقد إستخدمت عدة آلات كرؤوس الحراب والسهام الى جانب الآلات التى استعملت فى سلخ جلود الحيوان وما إلى ذلك من أغراض الذبح، كما وجدت آلات مصنوعة من العظام والخشب .

وقد صاحب هذه الحضارة إنسان نياندرتال الذى عاش فى العراء فى شمال إفريقية حيث كان هناك عصر مطير فى حين لجأ إلى سكنى الكهوف فى غرب أوربا . وقد وجدت بقايا الهياكل عظيمة فى حالة كاملة بل وجدت اسر كاملة بنسائها ورجالها واطفالها من جميع الاعمار .

وقد لوحظ أن جميع الحفريات التى وجدت فى الأماكن — التى تمتد على طول الساحل الشمالى الغربى لإفريقية - مثل كهوف مغارة العالية ، واشقر بجوار طنجة ، ودار السلطان جنوب الرباط ، والخنزيرة جنوب الجديدة — تشير إلى أن إنسان نياندرتال من نوع ذات صفات ومميزات خاصة به . وقد تبدو هذه الصفات لأول وهلة غير جذابة وقبيحة . فالجمجمة ضخمة سميكة الجدران وحجم المخ يقرب من ١٤٥٠ سم٣ ، والحواجب ضخمة كبيرة تشبه حواجب الإنسان القرد والقردة العليا حيث كونت حاجزا كبيرا امتد فوق تجوات العين الواسعة العميقة ، كما أن الانف عريض والفك بارز والذقن متقهقرة والاسنان كبيرة نسبياً ، والاضراس ضخمة ذات تجاويف خاصة، أما فقريات الرقبة فهى طويلة مما يساعد على إمساك عضلات الرقبة الغليظة ، ذلك بالاضافة إلى أن عظام الاطراف ذات مظهر ضخم وهى منحنية قليلا . وكل هذه صفات تعطى لإنسان نياندرتال — بصفة عامة — مظهرا وحشياً فقد كان جسمه ضخماً ممتلأ غير متناسق الأطراف إذ أن هذا الإنسان بصفاته العامة لم يكن كامل انتصاب القامة

بل كان منكفأ إلى الأمام مثل القردة وكان يعتبر خنى وقريب مرحلة من مراحل تطور الإنسان الحديث من جده القردى وكان يسمى بالانسان الأول Homo prigmensis (١) .

وقد كان إنسان نياندرتال يدفن موتاه وهذا فى حد ذاته دليل على بدأ ظهور الوعى الروحى ذلك بالاضافة إلى أن بعض الباحثين يذكرون أن بعض الرسوم التى تركها انسان نياندرتال على كهوف شمال افريقية ذات دلالة سحرية ، ونحن لا نستبعد أن الإنسان بدأ يفكر فى السحر وهى مقدمة لظهور الدين. وإنما الغريب أنه بينما تمكن انسان نياندرتال من رسم صورة بديعة ملونة لحيوانات ما قبل التاريخ وصناعة تماثيل للحيوانات المعاصرة له إلا أنه عجز عن رسم مثل هذه الصور لنفسه أو عمل تماثيل للنساء وربما مرجع ذلك إلى مهابته وخوفه من الروح التى تسكن بين جنبيه ولذلك نجد أن رسوم الإنسان وجدت فى حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى .

أما فيما يختص بتوزيع العصر الحجرى القديم الأوسط فى شمال إفريقية نلاحظ بادىء ذى بدء أن الحضارة الموستيرية حضارة أسيوية الأصل والنشأة وذلك بعكس حضارة العصر الحجرى القـــديم الأسفل التى نشأت فى شمال إفريقية . فقد ظهرت هذه الحضارة فى وسط آسيا ثم إنتشرت صوب الغرب عبر طريق الاستبس المحصور بين بحر قزوين وجبال الاورال إلى أوربا ونحو الجنوبى لشمال إفريقية (٢) حيث عرفت هناك باسماء الحضارة العاطرية Aterian (نسبة إلى بئر المعطر بتونس) وفى مصر باسم الحضارة الليفالوازية . وربما كانت الحضارة الأخيرة متطورة عن صناعة الشظايا الاشولية القديمة وهى تتمثل

---

(١) يسرى الجوهرى — ص ١٨٠

(٢) من الجائز ان الاتجاهين التقيا فى شمال إفريقيه

فى صحراء مصر على وجه الخصوص ، كما تكون الأساس الذى تطورت اليه صناعات العصر الحجرى القديم الأعلى حيث تطورت الصناعة الليفالوازية المصرية الى آلات حجرية صغيرة رقيقة السمك .

على أى حال فيذكر مكبورنى Mc Burey أنه من الممكن إيجاد « تنوعات جغرافية » داخل الاطار الحضارى لشمال إفريقية أو بعبارة أخرى التعرف على تقاليد الحضارية الاقليمية

Téchnical Innovtion Differs Greatly From One Geographieal Area To The Next. (١)

وذلك على الرغم من أن صناعة الشظايا القائمه على عمليات ضرب الحجر من زوايا معينة قد عثر على ادواتها فى عدد كبير من المواقع المنتشرة من ليبيا الى المحيط الاطلسى والتى من بينها وادى درنة فى ليبيا و كهف هوافتيح وادى جبانة Djebbana ووادى جان . هذا وتعتبر الحضارة العاطرية — من حيث آلاتها — نموذجا لصناعة الشظايا والمكاشط الجانبية ورؤوس السهام وغيرها من الآلات المميزة لمرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط . وقد عثر على هذه الصناعة فى عدة مواقع تونسية وجزائرية ومغربية ومن أهمها كهف الخنزيرة وكهف مغار العليا وكهف دار السلطان .

وبإنتهاء العصر الحجرى القديم الأوسط بدأت مرحلة حضارية فى شمال افريقية عرفت باسم العصر الحجرى القديم الأعلى . وفى هذا العصر بدأ تركيز اقليمى للانسان والحياة الحيوانية والنباتية معا فى قاع وادى النيل وعلى جوانبه حيث أقتصر مجال تنقل الانسان فى مصر بالقرب من النهر . ونظرا لأن الانسان

---

(١) ما كبورنى ص ١٢٩ .

كان يسكن فى العراء فى مراحل الحضارة الأولى فى العصر الحجرى القديم بسبب كثرة الأمطار كان من الطبيعى أن نجد آثار هذا الانسان على سطح الهضبتين الشرقية والغربية . أما المواقع المتعلقة بحضارة العصر الحجرى القديم الأعلى فقد أخذت تتركز فى الجهات التى يتوفر فيها الماء نظراً لازدياد الجفـــاف وإنتشار الإحوال الصحراوية خلال تلك المرحلة الحضارية .

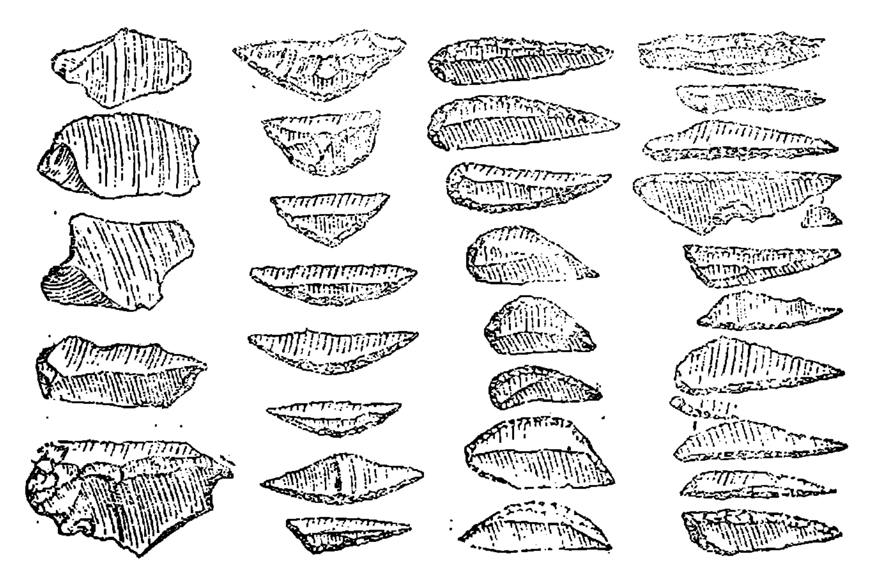
وقد عاصر العصر الحجرى القديم الأعلى فترة نهاية جليد الفرم وفترة تقهقره فى أوربا . وفى هذا العصر تنوعت الحضارة الحجرية وتطورت تطورات محلية عديدة وأصبحت أخف وأدق من الآلات التى ظهرت فى العصور السابقة ذلك إلى جانب تقدم فن الرسم ونحت الأحجار وصناعة التماثيل .

وقد إنقرض إنسان نياندرتال تماماً من شمال إفريقية مع بداية هذا العصر وحل محله الإنسان العاقل ولا نعرف كيف إنقرض أو اختفى هذا الإنسان ولكن من السهل أن نتكهن بأنه هزم بواسطة أنواع أخرى أكثر ذكاءاً وأدق تنظيما وأقوى سلاحا، ومثلهم فى ذلك مثل الدناصر التى إنقرضت بعد أن تغيرت البيئة الجغرافية ووجدوا أعداء أقوى منهم .

على أى حال فقد تمكن الإنسان العاقل فى عصر البلايستوسين الأعلى من أن يعمر فى أجزاء كثيرة من العالم بما فيها شمال إفريقية، وأن يقيم حضارة النصال فى العصر الحجرى القديم الأعلى. ولا نعرف بالتأكيد أين ظهرت هذه الحضارة ولكن الأدلة الحديثة تشير إلى منطقة غرب آسيا . والشىء المؤكد الوحيد هو أن كل تحركات العصر الحجرى القديم الأعلى - إن صح هذا التعبير - انحسرت فى نطاق محدود وهو قارة أوراسيا ابتداء من فرنسا وحتى سهول جنوب روسيا وإيران .

أما إفريقية فقد أحتلت المركز المتدهور الذى تربعت عليه قارة آسيا ابان العصر الحجرى القديم الأسفل اذ أن القسارة الاولى التى شهدت نشأة كل من الإنسان البائد والعاقل والتى على أرضها تفتحت أول بذور المدنية لم تساهم بنصيب فى التطور خلال الفترة الجليدية الأخيرة .

ونظراً لأن العصر الحجرى القديم الأعلى كان فترة امتازت بالثورة الحضارية لما طرأ على صناعة الآلات الحجرية من تقدم سريع فإن النمط الحضارى لهـذا العصر يمتاز بالتعقد عن أى فترة حضارية أخرى ومن ثم فقد أشتمل هذا العصر على عـدة حضارات وهى الحضارة الاورنياسية والسولترية والمجدلانيـة . والوهرانية وفى مصر بالحضارة السبيلية (شكل ١٦) .



شكل (١٦) بعض أدوات العصر الحجرى القديم الأعلى فى شمال إفريقية

وقـد ظهر أصحاب حضارة النصال فى افريقية فى فترة متأخرة عن قارة أوراسيا ومن ثم فقد استمر سكان القارة يمارسون التقاليد الاشولية والليفالوازية

فى أثناء الفترة المطيرة المعروفة باسم جامبليان Gambian وبذلك تخلفوا عن ركب التقدم الحضارى فى الشمال فنسيهم التاريخ (١).

وفى شمال إفريقية أختلف الصورة عن بقية أجزاء القارة فنشأت الحضارة العاطرية فى أقصى شمال غرب الساحل الشمالى لإفريقية ومن ثم إنتشرت عن طريق جماعات « نشطة » صوب الشرق . ويبدو أن هذه الحضارة قد تطورت محلياً من الحضارة الموستيرية ، غير أن أصحابها قد برعوا فى صناعة الصوان فاستخدموا بين طرق صناعته طريقة الشطف عن طريق الضغط الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن أصحاب الحضارة العاطرية كان لهم صلة بالحضارة السولتيرية باوروبا ، هذا ويرجع الفضل لأصحاب هذه الحضارة فى إختراع القوس والسهم ورؤوس الحراب الصغيرة التى تشبه تلك التى ظهرت فى الحضارة السولترية وكانت على هيئة ورق الصفصاف . وقد أمتد نفوذ الحضارة العاطرية إلى مصر فوصل تأثيرها إلى الواحة الخارجة مع نهاية العصر الحجرى القديم ، وربما وصل تأثيرها إلى أسبانيا قبل ذلك التاريخ عن طريق مضيق جبل طارق .

ففى هذه المناطق الشمالية تمكنت التقاليد الحقيقية لحضارة النصال الخاصة بالعصر الحجرى القديم الأعلى من أن تظهر متأخرة فى إفريقية . وقد كان أول هذه الحضارات ليس كما عرف فيما سبق الحضارة القفصية بل حضارة دابا Dabba Culture التى ظهرت فى فترة متقدمة فى إقليم الجبل الأخضر بليبيا . وأعتقد أن أصحابها وفدوا من الساحل الشرقى للبحر المتوسط . وتتميز هذه الحضارة أساساً بالنصال ذات القاعدة التى تنتمى إلى التقاليد الحضارية فى أوربا وجنوب

---

(١) تطورت حضارة ستيل باى فى شرق إفريقية عن الحضارة الليفالوازية بينما ظهرت الحضارة الماجوسيانية Magosian اثبتر تدهور التقاليد الليفالوزية .

غرب آسيا غير أنها طورت أخيراً بعض صفاتها المحلية .

وقد ظهرت بعد ذلك الحضارة الوهرانية Oranian Culture على الساحل الشمالى لسلسلة جبال أطلس ببلاد المغرب وتتميز هذه الحضارة بالنصال الصغيرة ذات القاعدة Backed Blade ، وربما أرجع نشأتها إلى هجـــرة أسبانية أو إلى تأثير حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى المتأخر ، ويرجع تاريخها إلى الفترة مابين ١٥ – ١٢ ألف ق. م.

ثانياً ـ العصر الحجرى المتوسط

ويبدو أن أصحاب حضارة دابا تمكنوا فى حوالى ١٠٫٠٠٠ ق. م. أن يعيشوا على طول السفوح الجنوبية لجبال أطلس ، تلك السفوح المواجهة للصحراء فى الجزائر وتونس حيث أقاموا الحضارة القفصية هناك . وقد أشتملت الحضارة القفصية فى مراحل تكوينها الأولى على نصال خلفية مقوسة كبيرة تشبه إلى حد كبير نصال شاتلبورن فى غرب أوربا الأمر الذى أيد الأعتقاد القديم بأن هذه حضارة نصال مبكرة فى إفريقية (١) .

على أى حال فمن المعروف الآن لدى المهتمين بدراسات ما قبل التاريخ أنه منذ بداية هذه الحضـارة وهى تحتوى عـــلى أدوات صغـيرة تقترب من الأدوات الميكروليثية ، كما أنها فى المرحلة النهائية منها حينما أنتشرت شمالا وشرقاً على طول ساحل البحر الأبيض كان من بينها أدوات ميكروليثية تنتمى إلى العصر الحجرى المتوسط باوربا . ويتضح مما سبق ذكره أن الحضارة القفصية العليا Upper Capsian تنتمى إلى الحضارة العصر الحجرى المتوسط التى جاءت عقب إنتهاء الجليد إذ

(1) Hawkes J. and Woolley L., Prehistory and the beginnings of civilization. London. 1964, P. 88.

أن طريقة التحليل الكربونى ١٤ تعطى للحضارة القفصية الحقيقية أو الوجه الاول منها حوالى ٦٨٠٠ ق.م.

أما من ناحية التاريخ الجنسى لشمال إفريقية فى هذه الفترة فنلاحظ أنه بينما صاحب الحضارة الوهرانية فى كل المواقع التى وجــدت فيها أناس أمتازوا بالعضلات القوية والحواجب السميكة التى تذكرنا بانسان كرومنيون ، نجد أن أصحاب الحضارة القفصية كانوا إناساً أصغر حجماً وأدق تقاطيعاً من الوهرانيين أو أصحاب الحضارة الوهرانية ، وكانوا يشبهون الناطوفيين ويمثلون طلائع سلالة البحر المتوسط التى سادت فيما بعد فى هذا الاقليم (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن هناك إتفاقاً عالمياً بين الباحثين نحو طريقة إنتشار حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى، وظهور حضارة العصر الحجرى المتوسط فى شمال إفريقية على النحو السابق الذكر إذ أن هذا التتابع يساعد على تفسير كثير من الحقائق المعروفة .

هذا ويصر بعض الباحثين على أن الحضارة القفصية قد بدأت فى وقت مبكر عن الوقت الذى أعطى لها (٢) ، ويذهب البعض الآخر للقول بأن الفن الذى وجد على صخور الكهوف بشرق إسبانيا إنما يرجع إلى غزو الحضارة القفصية إلى شبه جزيرة إيبريا . وحتى لو فرض أن الفن الموجود فى شرق إسبانيا ليس من صنع الحضارة القفصية فمما لا شك فيه أنه قد أزدهر فى وقت كانت الحضارة القفصية سائدة فيه على الجانب الآخر من البحر المتوسط وأنه ربما كان له بعض قرابة بالفن الصخرى فى الصحراء .

---

(1) I Bid, P. 90.

(2) Burkitt, M., Prehistory, Cambridge, p. 149.

وقد وجد الفن الصخرى الإفريقى على طول الحافة الجنوبية لجبال أطلس (١) كما وجد أيضاً جنوباً فى جبال الحجار وفى أجزاء متفرقة فى جنوب طرابلس وهضبة تسبتى والجلف الكبير، وأيضاً فى بلاد النوبة . وقد أشتمل هذا الفن على بعض الأمثلة الدقيقة لصور طبيعية للحيوانات المفترسة ولا سيما الفيل والزراف والأسد، وربما كانت هذه الصورة هى أقدم فن، ومثالها فى ذلك مثل المجموعات المختلفة من الحيوانات المستأنسة التى ظهرت فيما بعد فى الفن المصرى .

ويبدو أن أصحاب الحضارة القفصية الذين لاءموا حياتهم فيما بعد لمقتضيات حياة العصر الحجرى الحديث فى وادى النيل هم المسئولين عن هذا الفن المبكر .

والخلاصة أن الحضارة القفصية هى حضارة النصال الحقيقية فى شمال إفريقية، إذ ظهرت فى بادىء الأمر كحضارة للعصر الحجرى القديم الأعلى بنصالها ومكاشطها المعروفة غير أنها تطورت فى العصر الحجرى المتوسط إلى آلات ميكروليثية ذات أشكال هندسية منظمة بعضها على شكل قوس والبعض الآخر على شكل مثلث وهكذا . وقد وجدت فى هذه الحضارة أيضاً أوانى مصنوعة من أصداف بيض النعام ومزينة برسوم هندسية، وكذلك عرف أهل هذه الحضارة تأليف العقود من حبات الخرز المختلفة الألوان (٢) .

أما عن الحضارة السبيلية Sebilian Culture التى ظهرت فى مصر (٣) وتنتمى إلى أواخر العصر الحجرى فقد إنحدرت من الحضارة الليفالوازية حيث صنعت

---

(١) لاوديث دوبوبكودو ـ فن الرسوم الصخرية بالصحراء المورية ـ ترجمة أحمد الاخضر، البحث العلمى ـ المركز الجامعى للبحث العلمى الرباط ـ ١٩٦٦ ـ السنة الثالثة ـ العدد الثالث .

2 - Hawkes, op. cit, p. 119.

(٣) يلاحظ أن حضارة مصر فى عصر ما قبل التاريخ وحتى العصر الحجرى القديم =

الآلات — فى المراحل الأولى من تكوينها — من شظايا ليفالوازية صغيرة ذات حافات مشذبة ، وعلى الرغم من إستمرار طرق الصناعة الليفالوازية فى المراحل المتأخرة من الحضارة السبيلية إلا أن الآلات أصبحت أصغر وأمتازت فى بادىء الأمر بالآلات الميكروليثية التى تشبه الآلات الناطوفية . والمرحلة الأخيرة من الحضارة السبيلية يمكن قبولها على إنها حضارة العصر الحجرى المتوسط .

والعصر الحجرى المتوسط Mesolithic — كما نعلم — تعبير محدود يستخدم فقط للاشارة إلى الانتشار الواسع لسلسله الحضارات التى كان من بعض مميزاتها الهامة ظهور الآلات الحجرية والصوانية ذات الأحجام الصغيرة جداً والشكل الهندسى الدقيق . وقد كان هذا الاتجاه الجديد نحو صناعة الآلات الصوانية الميكروليثية اتجاه أقتضته ضرورة تغير الظروف الجغرافية فى أعقاب الفترات الجليدية فى أوربا والمطيرة فى شمال إفريقية إذ حدث تغير كبير فى الحياة الحيوانية والنباتية عقب تقهقر الجليد نهائياً . وقد أدى هذا التطور السيء إلى تطور عدد من حضارات العصر الحجرى القديم الأعلى كالحضارة السبيلية والحضارات الأخرى المشابهة لها فى إفريقية وأوربا .

ولعل من الأسباب التى دفعت أصحاب حضارة العصر الحجرى المتوسط لتطوير آلاتهم نحو الميكروليثية وفرة الأخشاب التى صنعوا منها مقابض لإدواتهم ذلك إلى جانب أن حيوانات فترة أحسن المناخ — وهى الفترة المعاصرة لهذه الحضارة - كانت أصغر من تلك الحيوانات التى تعيش فى أثناء الفترات السابقة

= الاعلى لاتختلف كثيراً عن حضارات العصر الحجرى القديم الاعلى فى شمال إفريقية ، وانما الميزة التى أمتازت بها هذه الحضارة فى مصر هى انها كانت ملتقى الحضارات القادمة من جنوب أسيا إلى شمال إفريقية أو الذاهبة من شمال إفريقية إلى الشرق .

ومن ثم لا يستدعى صيدها وجود أسلحة ثقيلة ، ذلك بالإضافة إلى أن الحصول على قطع صوان كبيرة الحجم فى ذلك الوقت كان أمراً أصعب من الفترات السابقة .

وإذا كانت أسباب ظهور الآلات الميكروليثية فى العالم قاصرة عن تعليل وجودها (١) إلا أن هناك إتجاه قوى نحو تأيد إنتشار هذه الحضارة عن طريق الهجرات البشرية وليس عن طريق الاستعارة الفكرية . وبعبارة أخرى نجد أن عناصر من أصحاب الحضارة القفصية المتضمنة أدوات ميكروليثية ذات أشكال هندسية معينة قد نجحت فى أن تأثر فى بعض سكان العصر الحجرى المتوسط فى قارة أوراسيا . ولا نعرف على وجه الدقة إذا ما كان أصحاب الحضارة القفصية فى شمال إفريقية قد لعبوا بأنفسهم دوراً فى هذا الانتشار أم لا . ولكن من المؤكد أن هذا التأثير قدم إلىأوربا من الجنوب ، وربما أيضاً من جنوب غرب آسيا .

ثالثاً ـ العصر الحجرى الحديث

كان العصر الحجرى المتوسط مرحلة إنتقالية إلى فترة حاسمة فى تاريخ الإنسانية ليس فحسب بالنسبة لشمال إفريقية بل بالنسبة لبقية أجزاء العالم ، وتعرف هذه المرحلة الجديدة باسم العصر الحجرى الحديث Neolithic أو الثورة الإنتاجية الأولى لإن الإنسان أصبح لأول مرة منتجاً للقوت بعد أن كان مجرد مستهلكاً له . وهذه خطوة خطيرة فى تاريخ البشرية إذ نقلت الإنسان من حياة الانتقال وراء حيوانات الصيد أو بحثاً عن الثمار بالتقاطها إلى حياة تقسم

(١) هناك مناطق ظهرت فيها الآلات الميكروليثية ولم يوجد بها نطاق غابى عقب انتهاء العصر الجليدى .

بالاستقرار والتجمع فى قرى والارتباط بالأرض والزراعة والرى والتعاون من أجل البقاء أو إلى حياة بدوية منظمة يرعى فيهـــا حيواناً أختاره من المملكة الحيوانية ورضه وأستأنسه .

ولم يقتصر التطور الذى حدث فى العصر الحجرى على التحول من حياة الارتحال والانتقال إلى الاستقرار فحسب بل شمل أيضاً تغيراً جذريا فى الآلات التى ظهرت أو تطورت فى هـــذا العصر لتلائم طبيعة المجتمع الجديد المرتبط بفلاحة الأرض وحصد الزرع وشق الترع وبناء الجسور .

هذا ويرى الأستاذ جوردن تشايلد (١) أن الزراعة كانت ضرورة أقتضتها تغير الظروف المناخية بالنسبة لشمال إفريقية بعد إنتهاء الفترات المطيرة ، وما ترتب على ذلك من أن مساحات كبيرة من شمال إفريقية قد تحولت من مروج خضراء تسود بها حياة نباتية غنية إلى إقليم صحراوى حيث حل الجفاف التدريجى محل المطر . وتبعا لذلك ذوت الحياة النباتية ونفقت الحيوانات اللهم إلا فى المناطق التى توفر بها النذر اليسير من الماء حول العيون والآبار وفى بطون الأودية الجـــافة حيث يقترب مستوى الماء الباطنى، أو فى بعض الواحات التى أجتذبت الإنسان والحيوان معا .

ومعنى ذلك أن إمكانيات قيام الزراعة وأستأنس الحيوان كانت محصورة فقط فى تلك الواحات القليلة المتناثرة فى الصحراء أو فى مجارى الأنهار القليلة كنهر النيل الأدنى . وقد كان من الصعب التوصل لاكتشاف الزراعة وأستأنس

---

(١) إلى جانب نظرية جوردون تشايلد ظهرت نظريات اخرى متعددة لنشأة الزراعة ومن أهم هـــذه النظرية نظرية الاستاذ (Sauer) التى وردت فى كتابه Agricultural Origins and Dispersals, N.Y., 1952. وتنادى بأن الزراعة نشأة فى جنوب شرق آسيا .

الحيوان فى وقت كان الإنسان فيه يستطيع أن يستمر فى حياته القديمة ، إنما لجأ إلى الزراعة مضطراً بعد أن قلت موارد المياه وهربت الحيوانات .

وقد كان على الإنسان أن يحافظ على الحيوانات التى أستأنسها ولا سيما الحيوانات ذات الظلف لأنها أصبحت تتصل بحياته أتصالا مباشراً سواء كان ذلك فى الحقل أو كمورد رزق ثابت يمده بالالبان . ويبدو أنه كان هناك تقارب وتجارب بين الحيوانات العشبية والإنسان ضد الحيوانات المفترسة اذ كان من مصلحة الحيوانات الأولى الضعيفة الحيلة أن تعيش الى جانب الإنسان بعد أن عزت موارد الرزق وأنحسرت فى بطون الأودية وعلى ضفاف الأنهار وفى الواحات . وقد كان من مصلحة الطرفين أن يقضيا على الحيوانات المفترسة ويعيشا جنبا الى جنب .

هذه هى الصورة التى رسمها جوردن تشايلد لنشأة الزراعة فى شمال افريقية فكأن الظروف المناخية فى أواخر عصر البلايستوسين هى التى حتمت على الجماعات البشرية القليلة المتناثرة فى مساحات واسعة أن تعيش فى أماكن محددة وضيقة مثل الواحات ووادى النيل الذى يعتبر فى حد ذاته واحة طويلة فى وسط الصحراء . فمع ظروف الجفاف لجأ انسان الصحروات الشرقية والغربية الى الوادى الذى كان بدوره مليئا بالمستنقعات التى احتوت على البوص والاقصاب البرية التى كان يعيش بها الحيوانات البرية المختلفة . ومن ثم كان على الإنسان فى مصر أن يبدأ معركة كبيرة فى سبيل التغلب على صعوبات البيئة المحلية وفى سبيل تجفيف المستنقعات وقطع البوص والقضاء على الحيوانات المفترسة وتهيئة مجرى النيل ، وبعبارة أخرى أستأنس هذا المجرى وأعد الحقول الزراعية ، ثم خطط الحياض ، وشيد القرى فوق أكوام صناعية من الحجارة حتى لا يطغى الفيضان عليها كل عام .

ويمكن تقسيم حضارة العصر الحجرى الحديث فى مصر منذ بدايتها فى الألف السادسة أو الخامسة ق.م. إلى نوعين أحدهما فى مصر العليا والأخرى فى مصر السفلى ، ولكن ليس معنى ذلك أن حضارة الصعيد كانت مختلفة تماما عن حضارة الدلتا إذ وجدت صفات مشتركة كثيرة بينهما ، ليس فقط من ناحية طرق الحياة العامة الممثلة فى الاكتفاء الذاتى لمجتمعات الفلاحين الذين مارسوا الزراعة المختلطة ولكن أيضا فى الاتجاهات الحضارية (١) .

وليست قلة الآثار فى الدلتا عن الصعيد دليل على أن المنطقة الأولى أقل حضارة من الثانية فى تلك الفترة إذ كانت فى الدلتا حضارة راقية أرتبطت بحضارات جنوب غرب آسيا غير أنه بسبب طبيعة الدلتا الطمية ، والتغير المستمر فى المجارى المائية ، وزيادة الرطوبة فى الأرض قضى على الآثار كلها .

ومعظم المحلات العمرانية كانت تقوم على حافة الوادى (شكل ١٧) ولهذا دلالة خاصة وهى أن الإنسان فى بداية هبوطة من الهضبة الى الوادى كان يتوخى تشييد مجمعاته العمرانية فى المنطقة التى لا يغمرها مياه الفيضان . وبطبيعة الحال حين تعلم المصرى كيف يهذب مجرى النهر وتقدم فى المدينة هبط للسكن بجوار النهر .

وتعتبر حضارة ديرتاسا بالوجه القبلى أقدم حضارة حجرية حديثة عرفت حتى الآن فى مصر حيث يمكن أن نتتبع منذ بدايتها وبدون أنقطاع نمو الحضارة المصرية حتى بداية عصر الأسرات . ولكن فى ضوء ما سبق ذكره بشأن أسباب قلة الآثار فى الدلتا فهناك أحتمال كبير فى أن أول الجماعات الزراعية

---

(١) أضواء العصر الحجرى الحديث — ثلاث فصول مترجمة من كتاب « ماقبل التاريخ وبدايات المدنية » تأليف جـ. هاوكس وترجمة يسري الجوهري — بيروت — ١٩٦٧ — ص٤٧

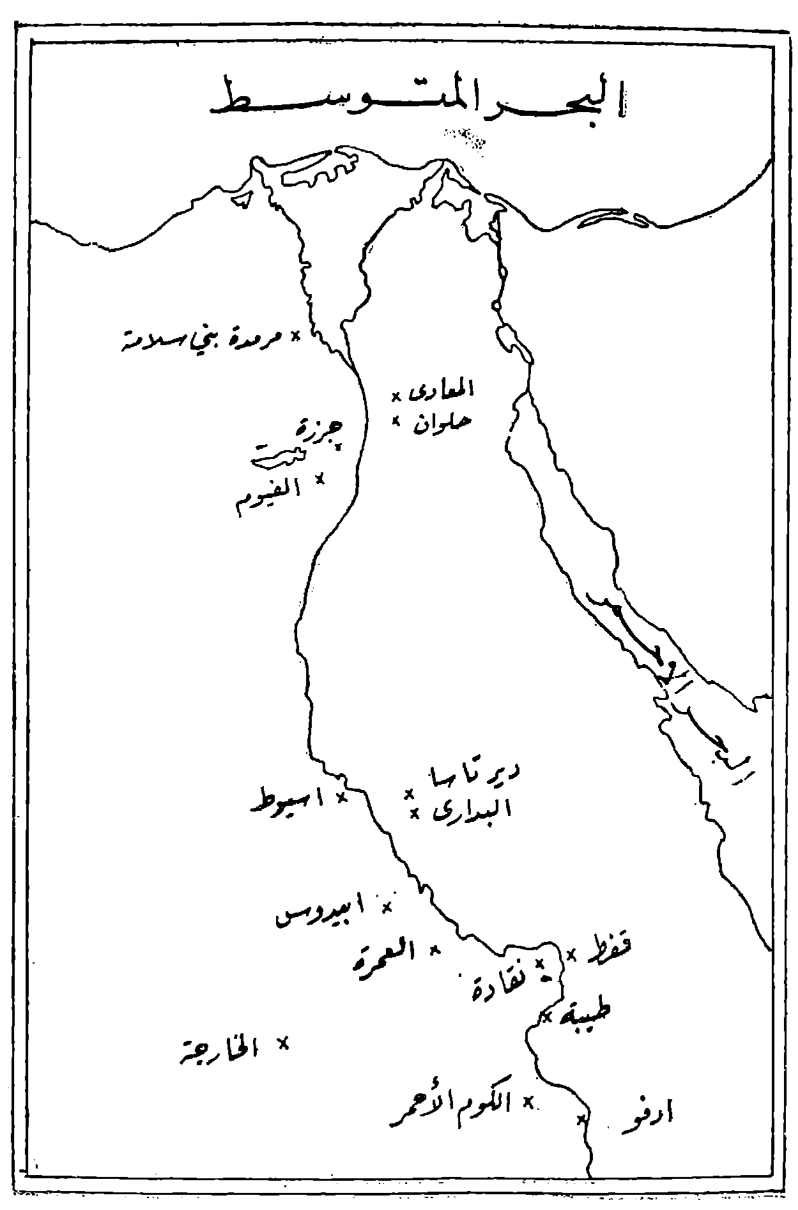
وجدت فى مصر السفلى بعد أن قدمت بطريق الساحل من فلسطين . والدلالة على هذا الاتصال وجود مركز للحضارة الناطوفية بحلوان .

على أى حال فلدينا فى الدلتا حضارتان تنتميان الى العصر الحجرى الحديث وهما حلوان الأولى ومرمدة بنى سلامة بينما فى مصر العليا دير تاسا والبدارى . أما فى منخفض الفيوم فتوجد أيضا حضارة تنتمى الى أواخر العصر الحجرى الحديث وأخرى تنتمى الى بداية عصر المعدن فى وادى النيل .

وقد وجدت حضارة الفيوم « أ » على ضفاف بحيرة قارون على أرتفاع ١٠ متر فوق سطح البحر ويمكن ربط هذه الحضارة بفترة أحسن المناخ أى فى الألف الخامسة ق.م. وقد كانت محلات العصر الحجرى الحديث بالفيوم تتكون من أكواخ بسيطة بدليل عدم وجود كثير من البقايا اللهم بعض المواقد وحفر مبطنة بالحصير لتخزين الحبوب .

ومنذ البداية عرف فلاحو الفيوم الحضارة الكاملة للعصر الحجرى الحديث فزرعوا القمح من نوع Emmer وكذلك الشعير ، وأستأنسوا الماشية والاغنام والماعز والخنازير ، كما زرعوا الكتان ونسجوا منه الأقمشة ، ذلك بالأضافة الى صناعة الفخار غير المزخرف والسلال الدائرية الجيدة الصنع . أما المناجل التى أستخدموها فى حصد محاصيلهم فكانت مستقيمة تنتهى بأسنان صوانية وتشبه تماما تلك الموجودة فى الحضارة الناطوفية فيما عدا اليد فكانت مصنوعة من الخشب .

وتدل الآثار التى عثر عليها فى الفيوم أن سكان العصر الحجرى الحديث ظلوا يمارسون الصيد البرى والبحرى الى جانب الزراعة ، وكان فرس النهر من بين الحيوانات التى أصطادوها . ويظهر أن السكان كانوا أكثر أعتماداً على الرعى



شكل ١٧ — مواقع الحضارة المصرية القديمة

من الزراعة لأن المطر كان يسير حثيثاً نحو الجفاف ، وسكان الفيوم كانوا بعدين عن النيل . وهذا هو السبب الذى جعلهم يركنون للرعى . وكما هو متبع فى معظم مجتمعات العصر الحجرى الحديث كانت الأدوات الشخصية للزينة هى الشيء الوحيد المستورد فى الاقتصاد . وقد زين أهل الفيوم أنفسهم بالاصداف التى أحضرها من البحرين المتوسط والاحمر وفى بعض الاحيان من المحيط الهندى. ذلك بالاضافة الى الآلات الموسيقية المزركشة التى أحضروها من وسط الصحراء أو من الصحراء الشرقية. هذا ولم يعثر على مدافن فى أى مكان بين محلات الفيوم الامر الذى يوحى بضرورة وجود جبانات بعيداً عن المنازل .

أما مرمدة بنى سلامة (١) التى تمثل المرحلة النهائية من حضارة العصر الحجرى الحديث فى مصر السفلى فتقع على الطرف الغربى للدلتا فوق حافة رملية . وتبلغ مساحة المحلة العمرانية فى مرمدة حوالى ٤٠٠ متر مربع وتضم أكواخ ذات شكل دائرى ومداخلها من الجنوب (٢) . وقد كانت صناعة الأكواخ فى مرمدة واهية فى بادىء الأمـــر ولكن تمكن الفلاحون بعد ذلك من صنع أكواخهم من الأعمدة الخشبية والبوص ، ثم أستخدموا فى فترة لاحقة الطين لكى يتمكنوا من صنع مأوى جيد يصمد أمام العواصف الرملية ويحول دون إنتشار الأمراض بينهم .

ويبدو أن لكل أسرة كان بها كوخ ذات فناء أو حديقة خاصة ، وجميع الاكواخ نظمت على هيئة صفوف ربما لكى تحدد الطرق الزراعية . وبصفة عامة

---

(1) E. L. Gowhary, Y., The Ancient capitals of Egypt (4241 B.C. — 332 B.C.), Bulletin of the Faculty of arts, Alexandria University, Vol. XIX, 1965, P. 3.

(2) Huzayyin, S., The Place of Egypt in Prehistory, Cairo, 1941, P. 300.

كانت الأكواخ تشبه إلى حد كبير تلك التي وجدت فى الفيوم فيما عدا أن الحبوب بدأت تختزن فى قدر كبيرة وذلك مع نهاية العصر الحجرى الحديث ورغم وجـــود أختلافات فى شكل فخارهم وأدواتهم وأسلحتهم وممتلكاتهم الشخصية إلا أن هناك كثيراً من الصفات المشتركة بين هـذه الحضارة وحضارة الفيوم ، وأيضاً بصورة أقل بحضارة دير تاسا .

أما عن الموتى فقد دفنوا بين الأكواخ ووضعوا القرفصاء وفى العادة كانوا يوجهون نحو الشرق ولم يوضع معهم طعام أو أى أثاث جنائزى آخر . وعلى الرغم من وجود بعض الضعف فى الاطار العام للتأريخ إلا أنه من المؤكد أنه فى أثناء تطور حضارة الفيوم فى الشمال نحو مرمدة وجد فى مصر ثلاث حضارات متتابعة وهى دير تاسا والبدارى والعمرة وجميعها حضارات حجرية حـــديثة مصرية الطابع يظهر بينها بعض الصفات الإفريقية المميزة التى تبلورت فى الحضارة المصرية .

وقد عرفت المعسكرات التى نشأت عـــلى الحافات الصخرية عند دير تاسا بالقرب من البدارى بأنها تعتبر من أقدم المحلات التى أنشأتها الجماعات الزراعية فى مصر (١) . وبالتأكيد كانت هذه الجماعات بدائية للغاية رغم أنهم زرعوا القمح من نوع Emmer وكذلك الشعير وطحنوا غلاتهم فى رحى كبيرة ويبدو أنه كان لديهم قطعان من الماشية والأغنام .

هـذا ويعتقد بعض الباحثين أن حيـاة سكان دير تاسا ربما كانت تشبه حياة الهدندوة الذين كانوا حتى وقت قريب رعاة بالصحـراء الشرقية ولـكن أنشئوا لهم حديثا قرى ثابتة بالقرب من النيل الأزرق ويعودون إليها بانتظام لزراعة

---

(1) Alimen, of cit., P. 105.

المحاصيل بعد الفيضان السنوى . وسواء كانت معسكرات دير تاسا قرى صيفية من هذا النوع أو لم تكن فلا بد ألا ننسى أنهم لا يعطون صورة كاملة عن الحياة الزراعية الأولى بالنيل .

وقد أشتغل التاسيون إلى جانب الزراعة بطحن الغلال والغزل وصناعة الفخار وصيد الأسماك وطيور الماء وحيوانات المستنقعات وذلك بالإضافة إلى رعى الماعز فوق الأراضى الفيضية المنتشرة .

أما عن موتاهم فقد وضعوهم منحنين أو فى وضع القرفصاء ، أو لفوهم بالجلود ودفنوهم فى اكفان من القش ، وهذه المقابر القليلة المتناثرة تكفى للاشارة إلى أن هذه الجماعات كانت صغيرة العدد ومتنقلة .

أما عن حضارة البدارى (١) فربما كانت حضارة متطورة عن دير تاسا غير أن نطاق معرفتها كان أوسع حيث أمتدت من البدارى نفسها جنوبا إلى أن وصلت إلى أرمنت كما وجدت فى وادى الحمامات . وقد كان البداريون على النقيض من سابقيهم رعاة ماشية رغم أنهم زرعوا القمح والشعير . ونظراً لوفرة الصيد على الهضبة وكذلك فى روافد الأودية فقد خرج البداريون للصيد بالقوس والسهام . ولكن فى صيد الأسماك أستخدموا سنانير من الأصداف أخذوها عن أصحاب حضارة دير تاسا .

وبالنسبة لأكواخ البدارى كانت شبيه بالأكواخ التى وجدت فى مرمدة فهى عبارة عن مأوى بسيط من الحصير (٢) .

---

(1) Baumagartel, E.J., The Culture of Prehistoric Egypt, London, 1947, P. 220 & Childe, op. cit., P. 12.

(2) Alimen, op. cit., P. 117.

وقد كان البداريون صانعى فخار من الدرجة الأولى أمتازوا بالمهارة والدقة فصنعوا فخاراً رقيقا ذات لون بنى أو أحمر ، كما إستخدموا البازلت فى صناعة بعض القدر إلى جانب العاج الذى أستخدم فى صناعة بعض الأودات المنزلية . ونظراً لأن قطعان الفيلة كانت لا تزال تعيش على الهضبة فقد قدمت المادة الخام اللازمة لصناعة الخرز العاجى والدبابيس ، وغيرها من أدوات الزينة كصنع الأمشاط التى تزدان بها النساء .

ومن هذا يبدو أن سكان البدارى كانوا يعيشون فوق مستوى الكفاف إلى حد ما مع وجود مواد خام إستخدموها فى تجميل أنفسهم وممتلكاتهم . ويظهر هذا بوضوح فى مقدرتهم على الاحتفاظ بقليل من التجارة فى سلع الترف حيث أحضروا الدهنج Malachite لكحل العين من سيناء أو النوبة والاصداف من البحر الاحمر ، والاحجار النصف قيمة مثل الفيروز ، وخشب الارز — الذى أعتبر أهم سلعة مستوردة وخشب الصنوبر من سوريا .

أما عن القوارب الصغيرة التى أستخدموها فى الملاحة النهرية فهناك دليل يثبت أنهم صنعوها ويتلخص هذا الدليل فى نماذج فخارية للقوارب .

وعلى الرغم من أن جبانات البدارى كانت صغيرة إلا أنها كانت من الكبر بحيث تبرهن على نمو السكان . وقد وضع الموتى فى المقابر على هيئة القرفصاء ولفوا بالجلود كما فعل أهل تاسا ، ووضع معهم أوانى مملوءة بالطعام والشراب . وعلى أى حال إذا كانت حضارة البدارى أظهرت أقتصاداً ماديا سمح بصناعة أدوات الترف وإستيراد المواد الخام الغالية فحضارة العمرة التى تبدو وكأنها انحدرت مباشرة منها ، تقترب كثيراً من بداية الحضارة أو بعبارة أخرى المرحلة النهائية من العصر الحجرى .

والأسس الاقتصادية لحضارة العمرة كانت أكثر قوة من الحضارات السابقة إذ أن العمريين لا بد وأنهم بدأوا زراعة منظمة فى السهل الفيضى للنيل رغم أنه لا يوجد دليل حتى الآن للرى الصناعى . وقد ربوا الماشية والاغنام والخنازير كما أستأنسوا الحمار كحيوان لحمل الاثقال ذلك بالاضافة إلى أنهم عرفوا لصق أوراق البردى جنبا إلى جنب مع صناعة القوارب التى تذكرنا بتلك التى استخدمت فى النقل ابتداء من العصر الفرعونى وحتى وقت قريب .

ورغم أن الصيد ظل يسهم بنصيب كبير فى الطعام إلا أن الأساس الاقتصادى المتين لطرق حياتهم أدى إلى زيادة سكان العمرة زيادة كبيرة ، فسكنت القرى بصفة دائمة ، كما أستخدمت المقابر اجيالا وأجيال إلى أن أحتوت على حوالى ٢٠٠٠ مقبرة .

أما فيما يختص بحرف سكان العمرة فقد تطورت فى جميع نواحيها عن تلك التى ظهرت بين أسلافهم سكان البدارى فيما عدا صناعة الأوانى التى أتصفت برداءة صناعة فوهاتها السوداء . وفى هذه الحضارة وصلت صناعة الشظايا الصوانية المضغوطة إلى درجة عالية من الاتقان من حيث الفن والشكل ذلك إلى جانب أنهم أستخدموا الأنوال الرأسية فى صناعة النسيج ، كما أضافوا فى هذه المرحلة الذهب إلى جملة المواد الغالية المستوردة للزينة . وأستخدموا النحاس المحلى فى صناعة الدبابيس ورؤوس السنانير .

ويبدو أن العمريين — كما تشير إلى ذلك أشكال أوانيهم الحجرية ولوحاتهم — بدأو يظهرون الروح الحضارية الخاصة Culture Form التى ميزت التاريخ الطويل للحضارة المصرية . وهذه الروح تظهر بوضوح فى عادات الدفن وغيرها من المراسيم الدينية . على أى حال فالعمريين مازالوا أساساً جماعات من فلاحى

العصر الحجرى الحديث يعيشون فى قرى كبيرة وغاية ما فى الأمر أنهم يمثلون نهاية طريقة حياة العصر الحجرى الحديث التى تهتم بها فى مصر .

أما بالنسبة لبلدان المغرب فقد أختلفت ظروف الإنسان هناك أثناء العصر الحجرى الحديث اختلافاً بينا عن ظروف الإنسان الذى عاش فى مصر وفى منطقة الشرق الاوسط إذ أن البيئة المغربية القديمة قد دفعت بسكانها حينئذ إلى الاتجاه للرعى إلى جانب بعض الانتاج الزراعى المحدود وذلك على النقيض ما حدث فى وادى النيل وفى العراق .

ومن المعروف لدى المهتمين بدراسة ما قبل التاريخ أن العصر الحجرى الحديث ظهر فى بلاد المغرب فى فترة لا حقة لنشأته فى منطقة الشرق الأوسط إذ بينما بدأ فى المنطقة الأخيرة حوالى الألف السادسة ق.م. تأخر حتى الألف الخامسة ق.م. فى المغرب وأستمر هناك حتى الألف الثانية ق.م. فى نفس الوقت الذى تطورت فيه الحضارة المصرية وعرف المصريون أستخدام النحاس وسبب هذا التأخر البيئة الجغرافية التى تطلبت من الإنسان مجهوداً كبيراً للتغلب على صعوباتها ولا سيما من حيث الموارد المائية .

وقد حمل حضارة العصر الحجرى الحديث إلى شمال وشمال غرب إفريقية عناصر بشرية تنتمى أساساً لسلالة البحر المتوسط التى خرج مزراعوها من منطقة الشرق الاوسط (١) وتقدموا لنشر حضارتهم على طول الشواطىء

---

(١) يذكر سيرجى أنه لم يكن من المتوقع أن تنشأ سلالة البحر المتوسط فى منطقة حوضه إذ أن هذه المنطقة بحكم موقعها الجغرافى وطبيعتها كانت منطقة التقاء وامتزج حضارى وجنسى بين شعوب عديدة لذلك فإنه يرجح أن هذه السلالة نشأة فى شرق إفريقية . والبعض الآخر يشير إلى الصحراء على أنها منطقة نشأة سلالة البحر المتوسط ويعتمدون فى ذلك على بعض الأدلة الاركولوجية «بعض رؤس الحراب» التى عثر عليها فى هذه المطقة وتعتبر فى حد ذاتها =

الجنوابية والشمالية للبحـــر المتوسط وكذلك فوق الأرض الحضبة فى وادى الدانوب . وقد أمتاز أصحاب حضارة العصر الحجرى الحديث الذين خرجوا ينشرون حضارتهم إلى شمال إفريقية بالرأس الطويل أو المتوسط والقامة المائلة للقصر ، ومن ثم فينتمى المصريون القدماء فى عصر ماقبل الأسرات إلى هذه الجماعات (١) . غير أنه مع الانتشار تفرقوا إلى عدد من السلالات الفرعية التى أزدادت تخصصا فى صفاتها المميزة فى أواطانها الجديدة .

ومن المواقع الأثرية التى تنتمى إلى حضارة العصر الحجرى الحديث فى المغرب مواقع هوافتيح فى منطقة الجبل الأخضر فى برقة حيث عثر هناك على الاوانى الفخارية التى ترجع إلى النصف الثانى من الألف الخامسة ق.م. هذا ويلاحظ وجود مؤثرات حضارية مصرية فى هذه الآثار الليبية فهناك وجه شبه كبير بين فخار هوافتيح وبعض الصناعات الحجرية وفخار الفيوم « أ » . ويؤكد هذه الصلة وجود صلات حضارية مشابهة بين مواقع سيوة والواحة الخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية الأمر الذى دفع بعض الباحثين إلى تفسير وجود هذا التشابهة عن طريق فرض امكانية أنتماء حضارة الفيوم « أ » ، وحضارة الانسان فى منطقة شرق ليبيا إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة فى الصحراء الكبرى (٢) .

على أى حال فقد أستمرت حضارة العصر الحجرى الحديث معمرة فى المغرب

= دليلا على وجود اعداد كبيرة من السكان هناك، ولاسيما فى الفترة التى كانت تستقبل فيها الصحراء الكبرى كمية كبيرة من الامطار فى الزمن الرابع — انظر

Sergi « G » The Mediterranean Race, 1908, p. 39 - 43.

(١) يسرى الجوهرى : السلالات البشرية ، ص ١١٧ .

(٢) رشيد الناضورى ، ص ١٢٧ .

الكبير لفترة طويلة من الزمن إلى أن قدم اليها من الساحل الشرقى للبحر المتوسط عناصر بشرية جديدة ودماء فتية جددت من حضارتها و نقلتها من العصر الحجرى الحديث إلى عصر المعدن .

الفصل الثالث

شمال افريقية فى عصر المعدن

« عصر المعدن فى مصر - عصر المعدن فى ليبيا والمغرب الكبير - الحملات الفينيقية - ظهور اليونانيين فى شمال إفريقية - المجتمع المغربى فى عهد الفينقيين - الانتاج الزراعى والصناعى »

الفصل الثالث

شمال إفريقية فى عصر المعدن

شهد شمال إفريقية فى أعقاب الثورة الأولى لانتاج الطعام ثورة حضرية Urban Revolution (١) ، أرتبطت باستخدام المعدن الذى يعتبر فى حد ذاته بمثابة الانقلاب الثانى الكبير الذى وجه البشرية وجهة جديدة ،وفتح لها افاقاً واسعة . وكان النحاس أول المعادن التى أستخدمت فى صنع أدوات الزينة غير أنه لم يكن له قيمة قبل إضافة معدن آخر الية مثل القصدير ليكون معدن أشد صلابة منه وهو البرونز . وعصر البرونز هو العصر الذى تحرر فيه الانسان من أستعمال الالآت الحجرية ، وفيه خرجت الجماعات البشرية من نطاق مجتمعاتها الزراعية لتبحث عن المعدن ، ومن ثم أدى ذلك إلى أزدهار التجارة كما أدى أيضا إلى الاستعمار والسيطرة السياسية .

وعصر البرونز هو العصر الذى شهد متدمات الثورة الاقتصادية الكبرى التى تمخض عنها الاستقلال الاقتصادى عن موارد الارض الزراعية والاعتماد على التجارة والصناعة (٢) ، ومن ثم فقد أرتبط هذا العصر بالحركات التوسعية للباحثين عن المعدن وباستعمار الفينيقيين لشمال إفريقية .

وفى خلال هذه الفترة كانت التجارة عاملا هاماً وراء اختلاط الجماعات البشرية بعضها بالبعض الآخر اذ أنها كانت الدافع لسفر كثير من التجار الذين أختلطوا بالشعوب التى صادفتهم فى طريقهم . كما أنه فى ذلك العصر بدأت

---

(1) Childe, G., The urban revolution, Town Planning Review, 1950, Vol. 21, PP. 3 - 17

(2) Childe, G. Social evaluation, op. cit., PP. 19 - 20.

الاحـوال المناخية تتحسن فى أوربا وأصبح المناخ فى شمال افريقية أكثر جفافاً عن ذى قبل ، كما أن الغابات بدأت مساحتها تقل لتعطى مجالا لظهور حياة رعوية ولتكون فضاء مقسماً كبيراً يسمح للانسان بالانتقال فى حرية تامة فى أراض جديدة .

وتبعا لذلك فقد غزى رعاة الخيل غرب آسيا والعراق ومصر ، وتمكن الهكسوس من اخضاع مساحات كبيرة من الشرق الأوسط وذلك بعد أن عرف أستئناس الحصان . وفى نفس الوقت خرجت جموع عديدة على طول الساحل الشرقى للبحر المتوسط متبعة نفس الطريق الذى صار فيه من قبل أصحاب الحضارة الميجاليثية فوصلوا لأسبانيا وفرنسا وبريطانيا . ومن سوء الحظ من وجهة النظر الانثروبولوجية أن حرق الموتى كان يمارس بدرجة كبيرة فى خلال عصر البرونز ولذلك فان معلوماتنا الجنسية عن هذه الفترة الهامة قليلة (١) . على أى حال فمن المؤكد أن الانتشار الأول لحضارة المعدن فى شمال افريقية كان له تأثير قوى على الصفات الجنسية للشعوب التى قهرت بواسطة غزاة يحملون سلاح البطش والقوة .

وقد نشأت حضارة البرونز فى منطقة الشرق الاوسط فى حوالى الألف الرابعة ق.م. وأستمرت الى عام ٢٥٠٠ ق.م. ، وبعدها أضمحلت عقب أن حل الحديد محل البرونز فى الصناعة . وفى بداية عصر الحديد كان هناك اختلاطاً بين السلالات الفرعية للمجموعة القوقازية فى شمال إفريقية نتيجة للغزو والحروب التى شنتها شعوب البحر والشعوب الهندية أوربية التى قدم بعضها عن طريق أسبانيا إلى إفريقية ، وكانت سبباً فى ادخال صفات الشقرة بين شعوب شمال افريقية .

---

(1) Hawkes, op. cit., P.

فمع نهاية العصر الحجرى الحديث كان هناك فى شمال افريقية جماعات متناثرة من البشر أشتغلت بالزراعة وعاشت فى مرحلة الاكتفاء الذاتى فى محلات صغيرة أو كبيرة ، وقد كان لدى هذه الجماعات قدراً كبيراً من المعرفة إذ عرفوا تشكيل الصوان ، وصناعة القدر والنساجة والزراعة، وتربية وأستئناس الحيوان . وهذه المجتمعات المستقرة حاولت أن تنمو وتتطور فى بيئات مختلفة ذات ظروف محلية خاصة . وكانت النتيجة وجود مجموعات سلالية مختلفة من الناحية الطبيعية ، ولكن رغم ذلك فقد بقيت حقيقة واحدة ظهرت فى شمال افريقية وفى جميع اجزاء العالم القديم الأخرى التى عثر بها على أدلة لحضارة العصر الحديث وهى أن طريقة حياة هذه البيئة كانت واحدة .

ومن هذه الصورة البربرية المتجانسة بدأت تظهر صورة جديدة لمجتمعات شمال افريقية نتيجة للتغيرات السريعة التى أنتابت هذا الجزء من العالم بقدوم عصر المعدن .

وقد بدأ هذا التغير فى الأقاليم التى منحتها الطبيعة تربة خصبة ومناخاً صالحاً مكنها من انتاج فائض من الطعام بسهولة ، ومن انصراف بعض الجماعات عن التفكير فى مجرد انتاج الطعام الى احتراف التجارة واستيراد السلع والبضائع التى ليس فى حوزتها عن طريق المقايضة ، ومن ثم أخذ نظام التخصص فى الظهور وتقدمت الحياة الاجتماعية وبدأت المدنية .

واذا كان التغير الذى انتاب بعض جهات شمال افريقية بطيئاً فرجع ذلك الى أن انسان العصر الحجرى الحديث قد كرس كل جهوده لانتاج طعام يكفيه هو وأسرته فى تربة خصبة ولم يحدث التغير الا بعد وجود مزيد من المواد الغذائية ، وبعد أن تمكن المزارع نفسه من أستغلال أوقات فراغة والتمتع بالحياة .

وهكذا كان من المستلزمات الأولى لقيام المدنية فى شمال افريقية وجود تربة خصبه سهلة الاستغلال ، متسعة تغدق الرخاء على من يستغلها تحت ظروف مناخية ملائمة .

عصر المعدن فى مصر :

وقد كان هذه الظروف متوفرة فى مصر ، ومن ثم كان على حضارة المدن أن تظهر فى مصر قبل أى جزء آخر من شمال افريقية . فكما لاحظنا فيما سبق أن الصحراء المصرية التى كانت مرتعا خصبا لصيد انسان العصر الحجرى الحديث قد أصبحت فى نهاية هذا العصر غير صالحة لاستغلال الانسان فى كل أجزائها فيما عدا تلك الأودية الجافة التى تقترب فيها المياه الباطنية من سطح الأرض فتنمو بها الأعشاب لتجعل الحياة الرعوية ممكنة .

أما عن وادى النيل ذاته فقد قدمت الطبيعة الامكانيات اللازمة من تربة خصبة ومورد مائى متجـــــدد حضارة راقية ، ومن ثم لم يكن أمام سكان وادى النيل الاوائل سوى أن يبذروا حبوبهم على جانبى النهر بعد أنحسار مياه الفيضان ثم ينتظروا بعد ذلك نمو ونضج المحصول . ونظراً لخصوبة تربة الوادى فكان المحصول الواحد يفى بالحاجة . ومعنى ذلك أن كل قرية كانت مكتفية ذاتياً من الناحية الاقتصادية وكان لديها الايدى العاملة اللازمة لانتاج فائض من الطعام وبالتالى كان هناك وقت فراغ سمح بظهور تخصص حرفى .

ولا بد أن الرغبة فى تبادل المنتجات دفعت إلى وجود سوق يتبادل فيه سكان القرى المختلفة منتجاتهم الامر الذى أدى فيما بعد إلا نمـــــو مدن الأسواق « Market towns » التى تضمن وجودها قيام سلطة محلية ، ولكن رغم ذلك فظلت القرية مكتفية ذاتياً . وبصفة عامة ظلت مصر فى عصر ماقبل الأسرات

أرض المجتمعات القروية حيث كانت كل جماعة منها تختص بزراعة حقولها بمجهوداتها الخاصة .

ومن المحتمل أيضا أن بعض المراكز الدينية التى كان يتجه اليها القرويون إلى عبادة آلهاتها كانت بمثابة مراكز للخدمات يجذب اليها سكان القرى المجاورة، ومن ثم فقد قسمت مصر فى هذه الفترة إلى مجموعات كبرى أو مقاطعات Nomes ، ولكن هذه المقاطعات رغم أنها كانت تلعب دوراً قيادياً هاماً أيام الازمات الاقتصادية إلا أنها لم تنمو لتصبح عواصم سياسية . ولذلك فمن الاوفق أن نذكر أنه لم توجد فى مصر مدن فى فترة ما قبل الأسرات ، ولكن مع توحيد مصر أزدهر نظام الرى وبنيت المقاييس المختلفة على النيل لتكون نقطاً لمراقبة فيضان النهر ، وفرض على الفلاحين العمل فى حفر القنوات للاستفادة من رى الأراضى المرتفعة البعيدة عن مياه الفيضان . وهكذا ظلت مصر بلد القرى الزراعية ومدن الأسواق .

ونظراً لأن الاراضى الخصبة التى كونها النيل على جانبيه كانت عظيمة الاتساع لذلك بدأت الهجرات البشرية تتسرب من الدول المجاورة لاراضى مصر . فوفد الليبيون من الشمال الشرقى ، وقدم الساميون من الشرق ، وجاء النوبيون والليبيون أيضا من الجنوب والجنوب الغربى . وبعبارة أخرى تعرضت مصر مع بداية التاريخ لهجرات بشرية مختلفة هدأت أحيانا وزاد تدفقها فى الأحيان الأخرى . وقد انتشر خليط السكان على طول واد النيل غير أنهم تركزوا فى منطقتين منفصلتين أحدهما فى جنوب أسيوط والأخرى فى الفيوم ومن ثم كان التمييز بين مصر العليا والسفلى .

وفى النصف الثانى من الألاف الرابعة ق.م. وفد إلى مصر موجة جديدة من

الهجرات السامية القادمة من آسيا وحملت معها حضارة أرقى من تلك التى وجدت فى مصر ثم أستقرت بعد ذلك فى مصر السفلى (١). ومع نهاية الألف الرابعة ق.م. ذابت الفوارق الجنسية التى كانت تميز الجماعات الوافدة المختلفة نتيجة للاختلاط والتزاوج حيث نشاهد أن جماجم نقادة ليست بسامية أو ليبية بل هى مصرية . وإذا كانت بعض الأوانى الفخارية تشبه تلك التى مازال يصنعها بعض القبائل الموجودة فى شمال إفريقية إلا أن لغة السكان ولا سيما فى كلماتها كانت تحمل عناصر سامية مختلطة بعناصر حامية وطنية . وربما المرجع الأساسى لهذا التزاوج والتوالد هو مقدرة المصريين على أستغلال الظروف الملائمة فى وطنهم لاقامة إحدى حضارات العالم القديم الكبرى .

ومن بين الحضارات التى ظهرت فى مصر فى هذه الفترة حضارة جرزة أو نقادة الثانية والسمانية والمعادى . وتختلف حضارة جرزة عن حضارة العمرة فى أنها تحمل أثار غزوة قدمت من الشمال الشرقى من خارج البلاد ، غير أنها تشبه الحضارة السابقة فى انتشارها صوب الجنوب إلى النوبة وقلب إفريقية . وتتميز منازل جرزة بأنها بنيت من محلات العمرة ولكنها رغم ذلك لا تحمل الطابع المدنى بمعنى الكلمة (٢) .

أما من ناحية الصناعات الصوانية فقد بلغت القمة فى جرزة بحيث أنها لم تصل إلى نفس الدرجة فى أى مكان آخر من العالم. وقد أختلفت الآت جرزة إختلافاً بسيطاً من ناحية الشكل عن العمرة فى حين كان الاختلاف جوهرى بين فخار جرزة والعمرة إذ أن الفخار قد صنع من صلصال أستخرج من محاجر وليس من

(١) يرجع البعض أن هذه الجماعات أستقرت أولا فى الشمال وأنها غزت الجنوب واستمرت فى سيرها حتى بلاد النوبة ومن ثم توغلت إلى شرق إفريقية وارتريا والى جنوب إفريقية

(2) Alimen, op. cit. P. 120

طمى النيل كما حدث بالنسبة للثانية . ذلك إلى جانب أن الوان الفخار كانت فاتحة ومزركشة فى بعض الأحيـــان برسوم هندسية أو بأشكال بعض الحيوانات المعاصرة .

هذا و يقترح بعض الباحثين أن هناك أتصالا حضارياً قوياً بين جرزة وحضارة جنوب غرب آسيا غير أن البعض الآخر ومن بينهم Alimen يذكر أن حضارة جرزة قد تكونت اساسا فى الدلتا وأنها أقترضت بعض مظاهر حضارتها الأساسية من مرمده بنى سلامة . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن حضـارة جرزة لم تتأثر ولم تستقبل مؤثرات آسيوية وفدت اليها فى فترات متعددة .

وبالنسبة لحضارة السمانية فهذه تمثل آخـر دور من عصر ما قبل الاسرات ، وتمتاز هـذه الحضارة بتقدمها من الناحية المـادية ، وتمتاز بنشاط أتصالهـا مع الخارج وخصوصا الاتصال بالشرق الأدنى الذى تم بطرق عديده . وينتمى إلى هذا الدور أنواع الفخار الاسطوانى الملون الذى وجد فى بعضه آثار الزيوت التى كانت تستوردها مصر من سوريا . وأما صناعة الصوان فانها ظلت قائمة ولكنها أخذت فى الاضمحلال والتدهور السريع نتيجة لاستخدام المعدن. وأهم مايلاحظ عـلى هـذه الحضـارة أزدياد السكان وأرتباطهم بالقرية وزيادة أعتمادهم عـلى الزراعة ، ومن ثم زادت الالات الزراعية بينما أخذت تقل آلات الصيد وبدأت يحل محلها بعض رؤوس النبال البسيطة التى تستعمل فى القتال . ويبدو أن المجتمع المصرى كان فى طـريقة إلى الوحـدة التى بدأت أولا بين المجتمعات الصغيرة التى أرتقت إلى تكوين مجتمعات أكبر حتى أنتهت بتكوين الدلتا على حدة والصعيد على حده ثم أتحادهما وتكوين المملكة المصرية فى عهد الاسرات .

أما عن حضارة المعادى فترتبط بموقع المعادى حيث عثر هناك على بقايا محلة

عمرانية كبيرة تتكون من أكواخ ذات شكل بيضاوى مفتوحة من الجهة الجنوبية الغربية ، يحيط بها قوائم خشبية من جذوع الأشجار شدت حولها أغصان الاشجار الدقيقة والتى كست القوائم من الخارج بطبقة من الطين . ولسنا نعرف على وجه الدقة عما إذا كانت تلك المساكن مسقوفة أو غير مسقوفة رغم أن الغرض الرئيسى من تشييدها هو حماية أهلها من الرياح الشمالية ذات البرد القارس إذ أن الرياح الشمالية تسود فى تلك البقعة طول العام (١) .

ويكاد يكون نظام المساكن واحد إذ يوجد الموقد دائما قرب المدخل وبجواره قدر كبيرة بعضها لحفظ المياه ، والبعض الآخر خزن الغلال وأنواع الطعام . وقد حفرت لتلك القدر حفرات عميقة فى التربة الرملية . وإلى جانب ذلك فقد أستخدمت ايضا فى التخزين بعض المخازن التى كانت عبارة عن حفر عميقة رأسية الجوانب توضع بها بعض الانية الفخارية الصغيرة .

وللانية الفخارية بالمعادى ميزات خاصة تجعلها تختلف عن الأنواع المعروفة فى مصر فى فترة ما قبل التاريخ بعضها احمر اللون ذات شكل مستطيل وقاعدة خلفية ، وبعضها أسود اللون ذات شكل كروى مصقول السطح لها قاعدة ملساء وكلها مصنوعة باليد ، بما فى ذلك القدور الكبيرة على الرغم من حجمها العظيم .

وقد عرف سكان المعادى صناعة النسيج بدليل وجود قطعة صغيرة من خرقة بالية محترقة وجدت على عمق كبير فى الطبقات والحجارة الكثيرة المثقوبة وقطع الفخار المستديرة وهى التى كانوا يستعملونها فى المغزل .

ويظهر أن سكان المعادى كانوا على دراية بفوائد المعدن ومزاياه فى أصنع

---

(١) لدراسة هذه الحضارة يمكن الرجوع إلى البحث الذى نشره الاستاذ عباس عامر تحت عنوان « المعادى قبل التاريخ » وصدر فى القاهرة عام ١٩٣٤ .

الآلات المختلفة ومن ثم فقد وجد مثقاب من النحاس له مقبض من العظام كما وجد سلاح يشبه الأزميل صنع من نفس المعدن (١) .

هذا وقد أعتقد سكان المعاذى فى البعث بدليل دفن الأثاث معهم والذى كان يتكون فى أغلب الأحيان من بعض الأوانى الفخارية وأدوات الزينة والصيد ذلك بالاضافة إلى بعض الحيوانات المقدسة لديهم والتى دفنوها بعناية فى مقابرهم الخاصة .

وعلى الرغم من أن حضارة المعادى قد تبدو لأول وهلة بأنها متصلة بحضارة مرمدة ، وعلى الرغم من أن بعض اثار المعادى تشبه أثار البدارى إلاأنها الرابطة غير قوية بين حضارة المعادى وحضارة العصر الحجرى الحديث لأنها حضارة متأخرة عن حضارة البدارى ومرمدة ذلك إلى جانب أنه من الصعب التكهن بأصل حضارة المعادى فى ضوء الكشوف الاثرية الحالية .

على أى حال فقد ارجع المصريون القدماء ـ الذين جاءوا بعد ذلك ـ كثيرا من التغيرات التى طرأت على حضارتهم فى عصر المعدن إلى الهجوات التى قدمت من الشرق وحملت معها إلى البلاد فنوناً جديدة واتباع حوريس «Followers of Horus» وهذه إشارة إلى الجماعات الآسيوية السامية التى سبق ذكرها ، والتى احضرت معها إلى مصر تقاليد حضارة ارقى وجدت فى العراق .

ومعنى ذلك أن الاتصال الحضارى المباشر بين مصر والعراق أمر لا يمكن التقليل من أهمية فى عصر المعدن غير أن هذا الاتصال لم يكن ميسورا عن طريق

---

(١) يقترح بعض الباحثين بناء على التشابه من ناحية الشكل والتركيب لبعض قطع النحاس التى وجدت فى المنطقة ، والنحاس الموجود فى شبه جزيرة سيناء أن هناك تبادل تجارى بين وادى النيل وسيناء منذ عصر ماقبل التاريخ ويؤيد ذلك وجود قطع من النحاس فى وادى العرابة تشبه تلك التى وجدت فى المعادى .

البر لأن الصحراء السورية جعلت النقل البرى يأخذ طريقاً طويلا حول الهلال الخصيب ، إذأن بقايا المحلات الأولى تبرهن على أن الغرباء قدموا أولا إلى مصر العليا بعد أن نزلوا على ساحل البحر الأحمر حيث تبعوا وادى الحمامات إلى قفط .

وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك محل لاعتبار العناصر الوافدة سومرية إذا ماكانوا من العناصر السامية . والاحتمال الأقرب إلى الصحة إلى أنهم كانوا رجالا وسطاء من بحارة الخليج العربي « الخليج الفارسي » الذين كانوا على صلة وثيقة بسومر . وأن هؤلاء الوسطاء هم الذين انحدر منهم الفنيقيون ، وهم الذين نقلوا أيضاً المعدن من مناجم عمان وسومر ، كما حملوا التقاليد والأفكار والبضائع السومرية إلى مصر (١) .

وقد خضعت الدلتا لنفوذ ليبي قوى أبان عصر المعدن وقبيل حكم الأسرات إذا كانت حضارتها أقل قوة وإزدهارا من تلك التي وجدت في صعيد مصر والتي تمكنت بفضل طريق البحر الأحمر وقفط من أن تستمد عناصر قوتها من سومر وكان نتيجة لذلك أن استطاعة المملكة الجنوبية تحت قيادة مينا من أن تهزم سكان مصر السفلى وتوحد القطرين وتنقل قصبة الحكم إلى منفيس وذلك رغبة منها فى المحافظة على الأقليمين .

وعلى الرغم من أن الدلتا قد أستطاعت أن تحتفظ من الناحية النظرية على الأقل بشخصيتها منذ بداية الألف الثالثة حينما ذابت الفوارق تماماً بين الأقليمين

---

(١) منذ ذلك التاريخ انقطعت العلاقة بين مصر والعراق ولم تتجدد مرة ثانية اللهم عن طريق بعثات دبلوماسية طارئة إلى أن التقى جيشاً البلدين بعد أكثر من ألفى عام فى حرب لم يكن تأثيرها كبيراً على مصر أنظر Hawkes, op., P. 381.

إلا أن العناصر المختلفة للسكان قد ساهمت جميعاً فى اعطاء مصر شخصيتها التى أخذت تتبلور منذ عهد الاسرات .

وعلى هذا الأساس أخذت المدينة المصرية فى هذه الفترة تنهض وتتطور إلى أن وقفت فجأة عقب غزوة الهكسوس لمصر فى القرن ١٨ ق.م غير أن احتلال الهكسوس لمصر لم يدم طويلا إذ تمكن المصريون من إزاحة هذا الكابوس كما تمكن فراعنة مصر سيزوستريس الثالث وامنحتب الثالث من ملوك الاسرة ١٢ من أن يؤكدوا أهمية موقع مصر كقوة إفريقية فبدلا من الاكتفاء كغيرهم من ملوك الأسرات السابقة من توسيع نطاق نفوذهم التجارى والسياسى صوب الجنوب اتجهوا إلى غزو سوريا حيث اخضعوا كل المنطقة الساحلية الممتدة من غزة جنوباً إلى اوجاريت شمالا وربما وصلوا أيضاً إلى سهل العمق .

وقد ترتب على غزو الهكسوس للدلتا أن جعلوا عاصمة ملكهم فى مدينة أفاريس فى شرق الدلتا ، وقد اسهب المؤرخون والباحثون فى تعليل أسباب اختيارهم هذه المنطقة لاقامة قصبة ملكهم غير أننا يجب أن نوضح أنه لم يثبت بعد أنهم من الجماعات السامية[1] رغم أن اقامة عاصمتهم قرب الحدود الشرقية لمصر يتفق مع حقيقة دخولهم لمصر عن طريق سيناء .

وردا على الغزوات الأسيوية المتبربرة نجح المصريون فى مطاردة الجماعات الدخيلة فوصلوا إلى المنحدرات الجنوبية للبنان ثم تقدموا صوب المدن السورية ومن ثم سارع الحيثيون والاشوريون لاسترضاء مصر بطريق شتى . وهكذا

---

(١) لايدل اسم الهكسوس على شىء غير أن مانيتو Manetho يذكر أنهم كانوا من الفينيقيين والعرب وأنهم ليسوا من سلالة واحدة أو من منطقة واحده .

دخلت مصر فى مجال السياسة العالمية بعد أن أحتلت مركزا استعماريا مرموقاً فى الشرق الأوسط .

والخلاصه أنه على الرغم من التغيرات الجذرية التى أنتابت مصر إبان عصر المعدن إلا أن الاقتصاد المصرى منذ بداية تشكيلة اعتمد أساسا على الزراعة ، فالاغلبية العظمى من السكان كانت تعيش وتعمل فى الارض ، وانهم كانوا فى حاجة إلى سوق يتبادلون فيها منتجاتهم ويحصلون منها على الاشياء التى لا يوجد مثيلا لها لديهم . ولا بد وأن المدينة كانت مركزا لأصحاب المحلات التجارية المتعددة ولرجال الحكومة والكهنة الذين الحقوا بخدمة المعبد المحلى ، غير أنه لم يوجد فى هذه المدن تكتلات صناعية كبيرة أو تجارية على نطاق واسع بحيث تخدم تجمع بشرى كبير يسمح فى نفس الوقت بنشأة طبقة متوسطة تمتهن التجارة إذ لا يوجد هنا التنظيم المدنى الصحيح Urban organization الذى يمكن أن نطلقه على المدينة .

وعلى الرغم من الاختلاف الكامل فى النظم الاقتصادية الاساسية للمجتمع المصرى فى الألف الثانية ق . م . وفى القرن ١٩ إلا أننا نستطيع أن نقول أن الاحوال الاجتماعية فى ريف مصر لم تختلف كثيرا فى الفترتين إذ أن اغلب السكان كانوا من الفلاحين المستقرين فى قرى ومدن صغيرة (١) ، وكانت السلطة الادارية تتركز فى يد بعض الافراد المسنين من قبل الحكومة المركزية وحتى فى العاصمة حيث تمثلت هناك كل عناصر الحضارة لم يكن هناك نظام برلمانى أو بلدى . وبعبارة اخرى لم يكن هناك أساسا لروح المدنيه Civil spirit

---

(١) انظر :

W. R. Kermack, Some geographical notes on Ancient Egypt, Scot. Geog. Mag., 1917, Vol. 13, PP. 29 - 30.

التى تعتمد على حق المشاركة فى الحكم ووجود نظام بلدى .

وهكذا لم تتمخض الحضارة المصرية فى عصر المعدن عن التقدم المدنى إذ أن مصر لم تعرف المدن بمعنى الكلمة وذلك على النقيض من بابل وسومر . وبطبيعة الحال كان سبب ذلك كما سبق أن ذكرنا الوضع الاجتماعى للسكان فى مصر الذى اتصل اتصالا وثيقا بطبيعة الارض التى نشؤا عليها وارتبطوا بها .

عصر المعدن فى ليبيا والمغرب .

أما بالنسبة لعصر المعدن فى بقية دول شمال إفريقية فنلاحظ أن هذا العصر كان بداية لفترة جديدة فى حياة بلاد المغرب إذ أن جماعات البربر ظلت تعيش فى حياتها المنتمية لمرحلة العصر الحجرى الحديث على هيئة قبائل مستقرة تعتمد على الرعى والزراعة إلى أن قدمت السفن الفينيقية من شرق البحر المتوسط ورست على الساحل الشمال الإفريقى ومن ثم حدث الالتقاء الأول بين البربر والفينيقيين ، وبدأت الجماعات الأولى تتعرف على معالم عصر المدنية الذى حمله اليهم جماعات من الملاحين المهرة كانوا على دراية بحياة المدن .

وقد امتاز هذا العصر بالنسبة لشمال إفريقية بتداخل الجماعات البربرية والفينيقية السامية الاصل مع العناصر اليونانية والرومانية الهندية الأوربية الاصل وذلك فى المجالات الجنسية والاقتصادية والحضارة. فاحتكاك الفينيقيين بالبربر والتعامل الاقتصادى القائم بينهم على الاستيراد والتصدير تطلب إنشاء محطات ساحلية وموانى ترسو عندها السفن لتحقق ذلك ومن ثم بدأ الفينيقيين أختيار الاماكن المناسبة لهذا الغرض (١) . وبعبارة أخرى فان المدن التى أقامها

---

(١) من الكتب التى تناولت دراسة هذه المنطقة كتاب هاردن

Harden, R., The Phoenicians, London, 1963.

الفينيقيون على الساحل الشمالى لإفريقية لا تمثل تمدين مجتمعات زراعية إذ أن كل هذه المواقع قد أختيرت لانها تقدم أمكانيات رسو السفن ولذلك فقدأسست لاغراض تجارية رغم أنه روعى منذ اللحظات الاولى لقيامها بأن تكون مدن مسورة . والسبب فى ذلك هو رغبة الفينيقيين فى حماية المدن من غارات السكان الأصليين للبلاد ويؤيد صحة ذلك العزلة الجغرافية التى كانت عليها المدن الفينيقية إذ كانت كل مدينة تكون دولة مستقلة . يحكمها ملك خاص ، ورغم ذلك فربما كانت المصالح الاقتصادية المشتركة رابطة قوية جمعت بين هذه المدن فى اتحاد فيدرالى .

المحلات الفينقية :

وقد أمتازت المحلات الفينيقية التى نشأت فى شمال إفريقية فى ذلك العصر بالطابع المدنى القوى إذ لم تأخذ الطابع العام الذى ميز مدن الشرق الأوسط المستقلة ، فلم يكن هناك ثمة محاولة للثراء عن طريق السلب والنهب لأن الفينيقى كان لا يرغب إلا فى السيطرة على منطقة متسعة كافية لتمدة بالطعام ولم يكن يبغى شيئا أكثر من ذلك لان الفينيقيين كانوا تجاراً أولا وقبل كل شىء ، كما كانوا أصحاب حرفة ووسطاء فى نفس الوقت . وكانت أهم سلعهم التجارية الأخشاب المستوردة من لبنان وصناعة الصباغةوالبرونز والعاج والزجاج . وقد تطلب تصنيع هذه المواد البحث عن الخدمات الأصلية المتوفرة فى البيئات الأجنبية ، وكان ذلك من الدوافع المبررة لإقامة مراكزهم العمرانية على الساحل الافريقى.

ومن بين الدوافع الأخرى التى القت بالفنيقيين على الساحل الشمالى لإفريقية أثناء عصر المعدن التحركات والاضطرابات السياسية التى تمخضت عن وفود الشعوب الهند اوربية إلى منطقة الشرق الأوسط فى الألف الثانية ق.م. وبداية الألف الاولى ق.م. ، ورغبتهم فى فرض سيادتهم الاقتصادية والحضارية على

سوريا وفلسطين وذلك إلى جانب القوى الأخرى الحيثية والمصرية والعراقية التى ترغب فى بسط نفوذها على المنطقة .

وهكذا فقد أعتمدت حياتهم كلية على البحر ، ومن ثم فطالما كان البحر مفتوحا أمام سفنهم ، وطالما كانت مجلاتهم مستقرة لايهددها غزو ولا يطمع فى الاستيلاء عليها أحد فانهم لم يكلفوا أنفسهم عبء الاستيلاء على أراضى جديدة . وحتى فى حالة أزدياد إعداد سكان المدن وصعوبة أستيعاب هذه الاعداد داخلها لم يفكروا فى توسيع نطاق نفوذهم نحو اليابس بل نجدهم يحاولوا أنشاء مستعمرات عبر البحار حيث يتمكنوا هناك من إقامة أسواق جديدة .

وقد تحقق البربر من مقاصد الفينيقيين الاقتصادية البحته ومن ثم فقد فتحوا لهم أوطانهم ، ولكن مشاكل البيئة الجغرافيه كان من الصعب تجاهلها ولا سيما وإن استخدام الطريق البحرى تطلب اختيار مواقع ملائمة لتشييد موانىء للسفن ومن ثم حاولوا أكتشاف أنسب المواقع لعملية الاستقرار الاول وأنتهى بهم المطاف لتأسيس أول مركزاً لهم فى السهول الواقعة فى شمال تونس لأنها أكثر صلاحية من السهول الصخرية فى المناطق الأخرى من الساحل الافريقى المغربى ، ولذلك فقد أحتلت منطقة قرطاجة مركز الصدارة بين المراكز الفينيقية الاخرى منذ بداية أستقرارهم فى شمال إفريقية أضف إلى ذلك أهميـــة موقعها الجغرافى القريب نسبيا من الساحل الفينيقى وذلك بالمقارنة بالمراكز الاخرى البعيدة ، كما أن موضع مدينة قرطاجة شكل (١٨) يسمح بالتوغل لحد ما فى الداخل أكثر من المراكز الأخرى حيث تعوق الجبال والهضاب دون تحقيق ذلك بسهولة .

ولهذا كان لموقع قرطاجة الممتاز شكل (١٩) كأحد هذه المواقع أهمية كبرى إذ كانت تستطيع بهذا الموقع أن تتحكم فى مدخل حوض البحر المتوسط لقربها

من مضيق صقلية، وسيطرة على السهول التونسية التى تعتبر أكبر مساحة زراعية فى شمال إفريقية بعد مصر .

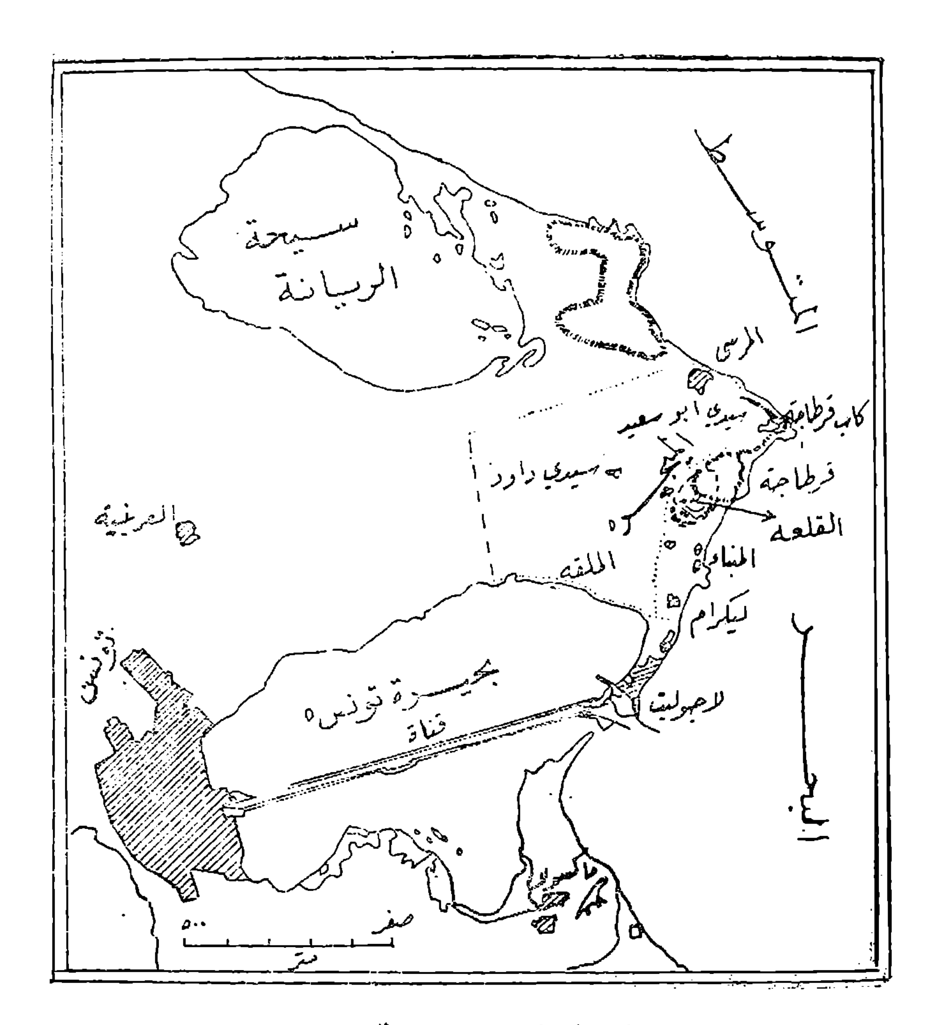


شكل (١٨) صورة أخذت لميناء قرطاجة فى عام ١٩٢٥

وأخذ الفينيقيون منـــذ القرن ١٢ ق. م. يستخدمون موانى ساحل الجزائر كنقط للبريد فى طريقهم نحو قرطاجة مركزهم التجارى الرئيسى . وقد كانت عنابة « بون » ، وفليب فيـــل « اسكيكده » من بين الموانى التى لجأ اليها الفنيقيون. أما الجزائر فكانت تعرف لديهم باسم ايكوزيوم Ikosim (١) .

وقد استمرت عملية تأسيس المحــــلات الفينيقية والهجرة إلى شمال إفريقية بصورة تدريجية إلى أن تم الاستقرار فى حوالى القرن الثامن ق. م. حيث نشأت

(1) Barbour, R.N., Azurvey of North Africa, O.U.P., 1962, P. 207

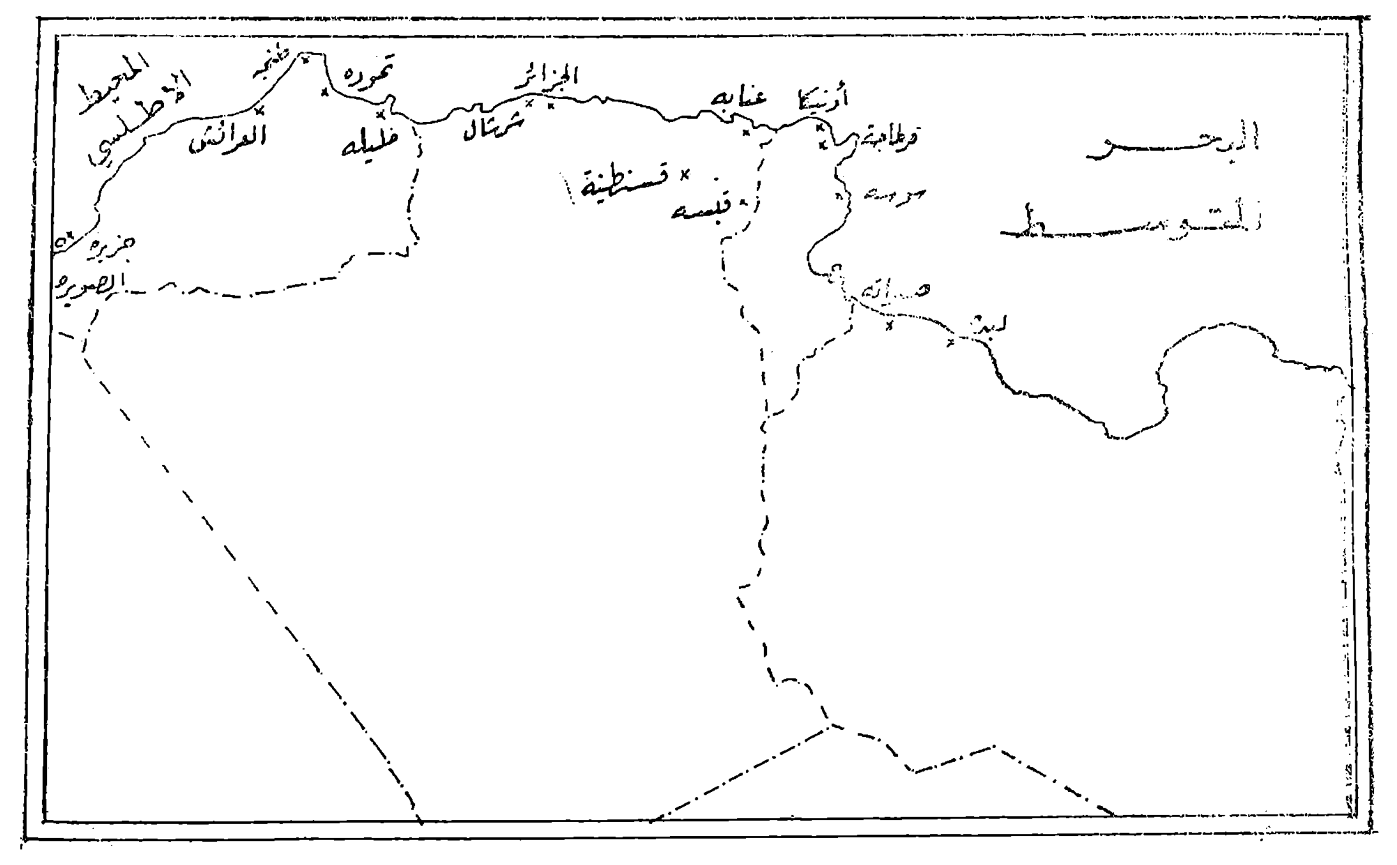


شكل (١٩) موقع مدينة قرطاجة

مراكز كثيرة على الساحل الإفريقى ابتداء من لبدة الكبرة وطرابلس فى الشرق إلى تموذه وليكسوس Lixüs وجزيرة الصويرة فى المغرب شكل (٢٠) .

ظهور اليونانيين فى شمال افريقية .

وقد تميز العصر الفينيقى فى شمال إفريقية بمنافسة اليونانيين الشديدة لهم فى المجال



شكل ٢٠ المدن الفينيقية فى شمال إفريقية

الاقتصادى(١). وهناك اعتقاد بين بعض الباحثين بأن الفينيقيين انشئوا مراكزهم التجارية على الساحل المغربى فى فترة لاحقة لوصول اليونانيين إلى هذه المناطق غير أنه يبدو أن عملية الإنشاء هذه كانت فى وقت متقارب، وقد حدث احياناً أن استقرت العناصر اليونانية فى منطقة ثم تمكن الفينيقيون فيما بعد من الاستحواز على السيادة الاقتصادية بها .

ولقد شملت التجارة الفينيقية الكثير من الصناعات اليونانية ، وتبادل البربر مع الفينيقيين الأول النشاط التجارى فى سلام ثم بدأ البربر يتعرفون عن قرب بالمظاهر الحضارية والتجارية الجديدة الأمر الذى ساعدهم على تطوير حياتهم المادية .

وكما اتصل الفينيقيون بالبربر وبتقالدهم فقد سادت العلاقات التجارية السليمة من ناحية اخرى بين قرطاجة ومصر وذلك عن طريق برقة التى استقر بها بعض العناصر اليونانية قرب نهاية القرن السابع ق. م.

وقد ادى ازدياد المنافسة التجارية والسياسية بين الفينيقيين واليونانيين فى شمال افريقية إلى تدهور العلاقات بينهم واتخاذها الاطار الحربى بدلا من الاطار السلمى وذلك منذ بداية ٦ ق.م. ولا سيما حينما استقرت بعض العناصر اليونانية على الساحل الليبى فى طرابلس وحاولت منافسة القرطاجيين هناك . هذا وقد تكلفت مدينة قرطاجنة بدلا من صور بدور الدفاع عن المدن الفينيقية الأخرى التى نشأت شمال إفريقية ودخلت فى صراع مرير مع اليونانيين بسبب التنافس الاقتصادى والسياسى بينهم. وقد تضمن هذا الصراع الرغبة فى السيادة السياسية على وسط وغرب حوض البحر المتوسط والنزاع بين حكومات المدن في جزيرة

---

(١) رشيد الناضوري — ص ١٧١ .

صقلية على الاستحواذ على هذه الزعامة . وعلى الرغم من شدة جوانب هـــذا الصراع الذي تجلى فى عدد كبير من العمليات البحرية والبرية فقد انتهى ببسط سيادة القرطاجيين على شمال إفريقية .

المجتمع المغربى فى عهد الفينيقيين .

أما عن المجتمع المغربى القديم فى هذا العصر فكان مجتمعاً مختلطاً تتداخل فيه العناصر البربرية المحلية والعناصر القرطاجية الفينيقية إلى جانب العناصر اليونانية بل أيضاً المصرية والاتروية والقبرصية والكريتية والإفريقية والزنجية . فعندما اتصل الفينيقيون بالبربر الذين كانوا لا يزالون فى مرحلة العصر الحجرى الحديث بدأت العلاقات الفينيقية البربرية فى التطور فى المجالات الاقتصادية مما ساعد على انتقال البربر من المرحلة القبلية بمعنى الكلمة إلى مراحل أكثر تقدما نحو تكوين دولة بربرية أثناء العصر القرطاجى . وقد كان للنظام القبلى البربرى اثره على العصبية البربرية التى تعتمد على أساس صلات المصاهرة بين أفراد القبائل . فقد أنفردت كل قبيلة بعصبيتها الخاصة التى عزلتها داخل نطاق محدود يتميز بوجود قلعة محصنة فى مركز منطقة انتشار القبيلة .

وإذا كانت العلاقة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية بين سكان البلاد الأصليين والجماعات الوافدة قد اتسمت بالتفاهم فى بادىء الأمر إلا أن هذا الحال لم يدم طويلا أثناء التنافس القرطاجى اليونانى على السيطرة على شمال إفريقية، ومن ثم فقد حاول البربر القيام بثورات ولكن كانوا بحاجة إلى تعاون وقيادة موحدة ولذلك فقد بدأوا يتجمعون فى شكل مجموعات من القبائل تنظم كل مجموعة منها على شكل اتحاد قبلى إقليمى برأسة أحد قادة هذه القبائل ويطلق عليه لقب « اغليد » Agueilid . وهذه الاتحادات القبلية الإقليمية التى نشأت فى حوالى النصف الثانى من العصر القرطاجى يمكن اعتبارها دولا أو ممالك مثل

موريتانيا فى المغرب الأقصى ومملكة مازيسولة Massasylie فى منطقة نوميديا الغربية ومملكة ماسولة Massylie فى نوميديا الشرقية (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن نشاط المغرب فى هذه الفترة لم يقتصر فحسب على دول شمال غرب إفريقية إذ تمكنوا ايضاً من الاتصال بسكان شمال شرق إفريقية أي بالمصريين القدماء عندما اضطرت العناصر الليبية أو البربرية التحرك شمالا وشمالا بشرق فى محاولة الاستقرار بعضها فى وادى النيل الأدنى على حافة الصحراء ولقد كانت تلك العناصر الليبية الأصل منذ بداية التاريخ المصرى القديم دائمة التسلل إلى مناطق الدلتا والفيوم مدفوعة بغنى الحياة الزراعية المستقرة فى احضان الوادى ومنخفض الفيوم (٢) .

الانتاج الزراعى والصناعى .

أما عن النشاط الزراعى والصناعى فى مجتمعات شمال افريقية إبان عصر المعدن فقد تشكل حسب طبيعة بلاد المغرب التى تتبع أساساً أقليم البحر المتوسط . ومن ثم فقد زرع فى شمال إفريقية الزيتون والتين والكروم والموالح واللوز ذلك الى جانب أهتمام العناصر البربرية وخاصة الليبيين بتربية الاغنام والدواجن ورعى الماشية والخيول والجمال السريعة العدو .

ونظراً لأن الاقتصاد القرطاجى لم يعتمد على الزراعة أعتماداً رئيسياً وذلك لأن نشاطه الاقتصادى ارتكز بصفة خاصة على التجارة الخارجية وما يتصل بها

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٢٢ .

(٢) تمكنت العناصر الليبية المستقرة فى اهناسية بالفيوم والتى تسمى « بالتحنو » من الوصول إلى عرش مصر وتأسيس الاسرة ٢٢ وذلك فى حوالى ٩٥٠ ق. م. على يد شيشنق الأول الذى كان قبل وصوله للعرش يحمل لقب رئيس المشواش العظيم وهى تسمية ترجع فى أصلها إلى منطقة شط الجريد جنوب قرطاجه .

من عمليات التصدير والاستيراد لذا فقد نشطت فى المحلات العمرانية القرطاجية بشمال افريقية المصنوعات المعدنية والعاجية المحلية وأيضا صناعة النسيج والفخار والزجاج وقد كانت للصناعات المعدنية النحاسية والبرونزية أهمية خاصة لما تؤديه من وظيفة تسليح قوات الجيش والاسطول ، وكانت تلك الصناعات تعتمد على المواد الخام المستوردة من شبه جزيرة أيبريا التى نجح الفينيقيون فى أستغلالها منذ بداية الألف الأولى ق. م.

وبالإضافة الى ذلك فقد كان لصناعة السفن شأن كبير فى شمال افريقية لأنها كانت الدعامة الأولى فى حياة القرطاجيين ، علاوة على نشاط الليبيين فى صناعة الانسجة الصوفية والكتانية والجلدية الفخارية والآنية الزجاجية والخرز وخلافه .

والخلاصة أن بلاد المغرب قد شهدت كمصر ابان عصر المدن تغيرات جزرية تمثلت فى الاحتكاك بشعوب مهاجرة حملت معها حضاره مخالفة عن تلك الحضارات التى كانت موجودة فى شمال افريقية . فبالنسبة لمصر لقد ظل المصريون محافظون على طابعهم الزراعى القوى المرتبط بالارض وزراعتها والتعاون لصد غائلة الفيضان ومن ثم فبقيت القرية الدعامة الاساسية للمجتمع المصرى فى هذا العصر ولم تتحول الى مدن بمعنى الكلمة . أما فى بلاد المغرب فقد أثر الفينيقيون بصوره واضحة على تركيب المجتمعات الرعوية الزراعية التى كانت موجوده هناك بعد أن أنتشرت المـــدن الفينيقية بمنازلهم العالية المسقوفة (١). المطلية باللون الابيض. وقد كانت هذه المدن تجمع بين المتطلبات السياسية والمدنية والدفاعية . فهناك السوق والميناء والقلعة والطرق المستقيمة

---

(١) بلغ ارتفاع هذه المنازل فى بعض الاحيان حوالى ستة طوابق .

التى تربط بينها . وهناك أيضا المنافسة الاقتصادية الشديدة بين القرطاجيين والقوى الأخرى الراغبة فى أدخال شمال افريقية فى حوزه نفوذها الاقتصادى والاستعمارى مثل اليونانيين والرومانيين الذين لعبوا دوراً هاما فى صبغ شمال إفريقية بالصبغة اليونانية الرومانية فى الفتره التى أعقبت قفول نجم الفينقيين فى شمال افريقية كما يوضح ذلك الفصل الثانى .

الفصل الرابع

شمال افريقية في العصر اليوناني الروماني

« مصر والاغريق - شمال إفريقية في العصر الروماني - المدن الرومانية في شمال إفريقية - الانتاج الإقتصادي - المجتمع البربري في العصر الروماني »

الفصل الرابع

شمال افريقية فى العصر اليونانى الرومانى

مصر والاغريق :

كان من نتيجة نجاح القرطاجيين فى الحيلولة دون أستقرار العناصر اليونانية والإغريقية فى شمال إفريقية إلى الغرب من خليج سرت أن ركز الفينيقيون جل أهتمامهم لنشر مدنيتهم فقط فى برقة ومصر (شكل ٢٠) ومن ثم فقد تحولت مصر إلى أعظم نافذة ليطل منها النفوذ الأغريقى على داخل « القارة السوداء » ولا سيما بعد غزو الاسكندر الاكبر لها فى عام ٣٣٢ ق.م. [1] وتأسيس مدينة الاسكندرية لتكون منارة للثقافة الاغريقية فى أراضى أغريقية ولتكون قصبة حكمهم عند مصب النيل الكانوبى القديم .

وقد تشجعت فى أثناء الحكم الاغريقى عناصر يونانية عديدة إلى الدخول إلى مصر حيث جاء فى أعقابهم بعد ذلك كل شعوب البحر المتوسط التى تأثرت بالحضارة الاغريقية ، وكلهم قد دخلوا بعد ظهور المسيحية التى أخـذت تنتشر لأول مرة بين القبائل والشعوب دون تمييز عنصرى الامر الذى شجع النزوح إلى أرض الوادى . وفى الحقيقة حتم موقع مصر الجغرافى عليها فى ذلك الوقت أن تتصل وتتأثر بالاغريق كما تأثرت فيما بعد بالعناصر العربية إذ أن الاغريق والعـرب كانا العنصرين الاساسيين اللذين أثرا تأثيراً قويا فى الحضارة المصرية وتكوين الشعب المصرى وذلك بعد أن أضافا اليهم دماء جديدة عن طريق شمال

(1) Smailes, A. E., The geography of towns, London 1938. P. 13.

غرب مصر (١) .

شمال افريقية فى العصر الرومانى :

عقب إنتهاء التنافس أو الصراع بين قرطاجة واليونان حدث صراع مماثل بين قرطاجة وروما انتهى باحتلال الرومان لشمال إفريقية . وكان مصدر الصراع الأخير هو تصادم القوتين الرئيسيتين فى منطقة غربى البحر المتوسط وهما القوة الرومانية والقوة القرطاجية حـــول السيادة السياسية والاقتصادية فى المنطقة . فعلى الرغم من محاولة القرطاجيين الوقوف فى طريق وصول الرومان إلى شمال إفريقية إلا أنهم نجحوا فى منتصف الألف الثالثة ق.م. فى الرسو فى أسبس Aspis شرقى عنابة . ومن هناك أتجهوا نحو تونس وأحتلوها غير أن هذا الوضع لم يدم طويلا إذ تمكن الفينيقيون بعد بضعة أعوام من أزاحتهم من شمال إفريقية إلا أنه بسبب هزيمة القرطاجيين فى الحـــرب اليونانية الأولى فى عام ٢٤١ ق.م. وأنتصار الرومان فيها وفرض سيادتهم على جزيرة صقلية (٢) مكنهم بعد ذلك من العودة ثانية إلى شمال إفريقية بعد هزيمة الجيش القرطاجى على يد سكيبو الإغريقى Scipio Africanus فى الحرب اليونية فى موقعة زاما Zama فى عام ٢٠٢ ق.م. (٣) . هذا وقد انتهت السيادة للرومان فى المغرب الكبير بعد أستيلائهم

---

(١) من أهم الكتب التى تناولت الوضع الحضارى والاجتماعى من مصر فى ذلك الوقت كتاب
Mahoffy J. P. A. history of Egypt, London, 1898, Vol. IV.

(٢) السبب فى هزيمة القرطاجيين هو عدم مقدرتهم على الاندماج الكلى مع البربرى اثنـاء العصر القرطاجى بحيث تجعل منه شعباً قرطاجياً واحداً فى ذلك الوقت ذاك إلى جانب وجـود النزاع التقليدى بين طبقات المجتمع حول الثروة فبينما يتجه البعض إلى الثروة المعتمدة على انتاج الأرض الزراعى يتجه البعض الآخر إلى المكاسب الآتية من التجارة المعتمدة على الاسواق التى يلزمها الابحار الدائم والاستيراد والتصدير .

(٣) تقع بالقرب من ناراجرا Naraggara أو ساقية سيدى يوسف .

على مدينة قرطاجة وتدميرها فى عام ١٤٦ ق.م، وذلك بعد بسط سيادة القوة الرومانية على كافة أقاليم حوض البحر المتوسط الشرقية والغربية . وقد كان هناك فى شمال إفريقية منطقتان لهما أهمية خاصة للرومان الأولى مصر والثانية ولاية إفريقية أو « أقاليم إفريقية » التى ضمت تونس الحالية والساحل الموازى لطرابلس ونوميديا . وفى المنطقة الثانية نشأ ما يزيد على ٥٠ مدينة رومانية . أما فى مصر فيبدو أن تأثير الحكم الرومانى كان ضعيفاً لأن الرومان لم يستطيعوا أن يؤقلموا أنفسهم بسرعة بظروف الكيان المصرى فظلوا أجانب بها . وتحولت مصر عن طريق السخرة والاستغلال الهدام لمواردها إلى منطقة متدهورة بعد أن أستنزفت مواردها الزراعية التى كانت سبباً فى أنتعاشها دائماً والتى صنع الرومان الكثير من أجل أحيائها من قبل (١) .

المدن الرومانية فى شمال افريقية :

وفى بداية الحكم الرومانى قسم المغرب إلى قسيمتين رئيسيتين وهما :

أولا : الولايات الإفريقية وكانت تضم منطقة العاصمة القرطاجية بصفة خاصة ، وقد تحكم فيها الرومان بصفة كاملة .

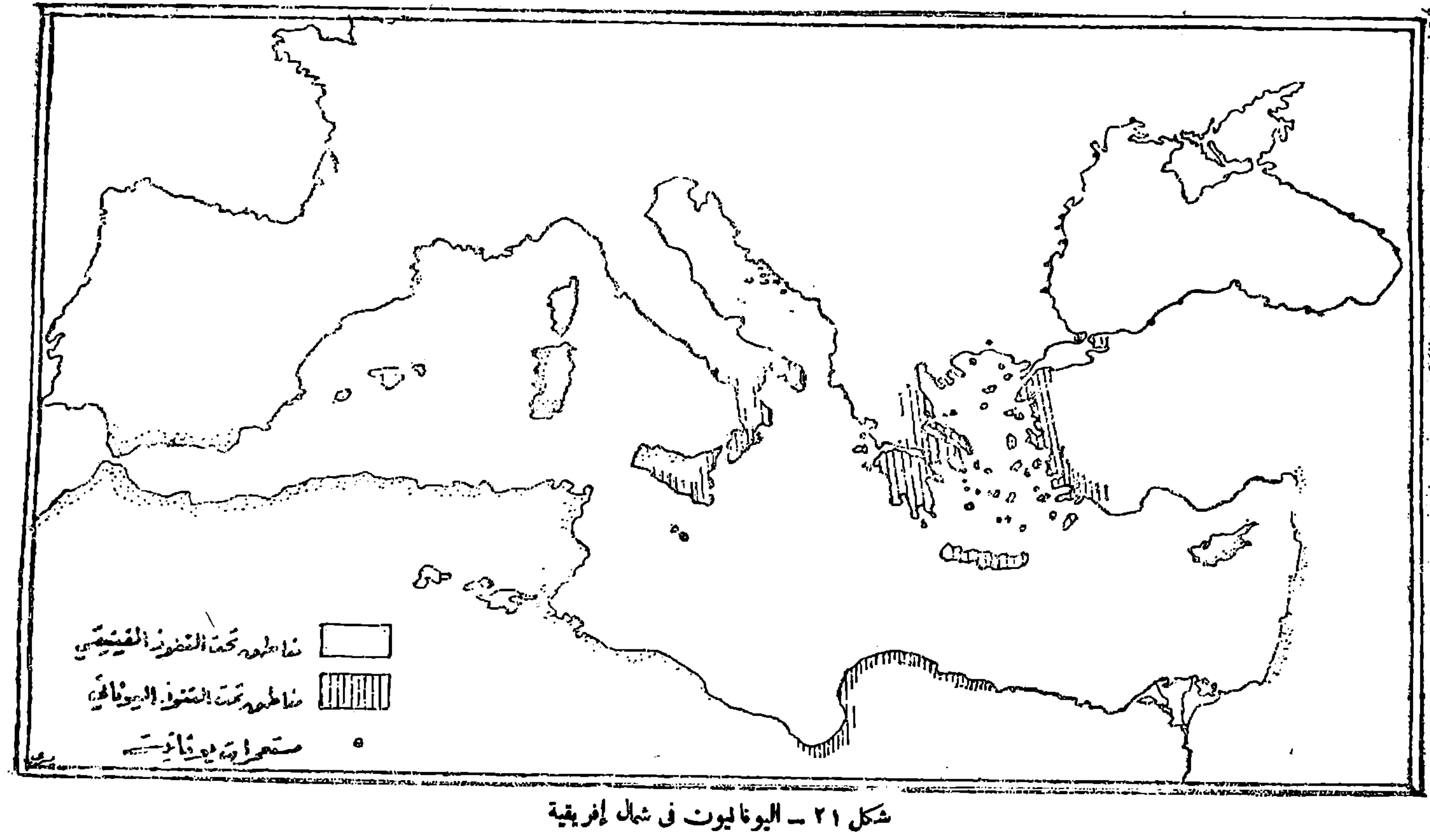
ثانيا : ممالك بربرية تنقسم بدورها إلى ثلاث وحدات سياسية وهى :

أ — نوميديا وعاصمتها قرطة وهى قسنطنية.

ب — موريتانيا القيصرية وتقع فى المنطقة المغربية من الجزائر وعاصمتها شرشال .

---

(١) رولاند أوليفر وجون فيج ، موجز تاريخ إفريقية ، ترجمة دولت صادق — سلسلة دراسات إفريقية — الدار المصرية للتأليف والترجمة — القاهرة — ١٩٦٥ . ص ٦٣ .



شكل ٢١ — اليونانيون فى شمال إفريقية

جـ — موريتانيا الطنجية وعاصمتها طنجة .

وقد أتخذ الرومان فى سبيل بسط نفوذهم على شمال افريقية سياسة إنشاء المعسكرات الدائمة المجهزة بكافة الاحتياجات الرئيسية لجنود الاحتلال الرومانى وكان المعسكر بمثابه مـــدينة عسكرية تتضمن المخازن والاسطبلات وساحات التدريب العسكرى وقد تطلب تشيد هذه المدن الحربية مجهودات ضخمة فى عملية البناء وتزويد المدينة بالمياه والغذاء . الامر الذى أدى فى بعض الاحيان إلى استيلاء الجنود على الاراضى المجاورة وأستغلالها لصالحهم .

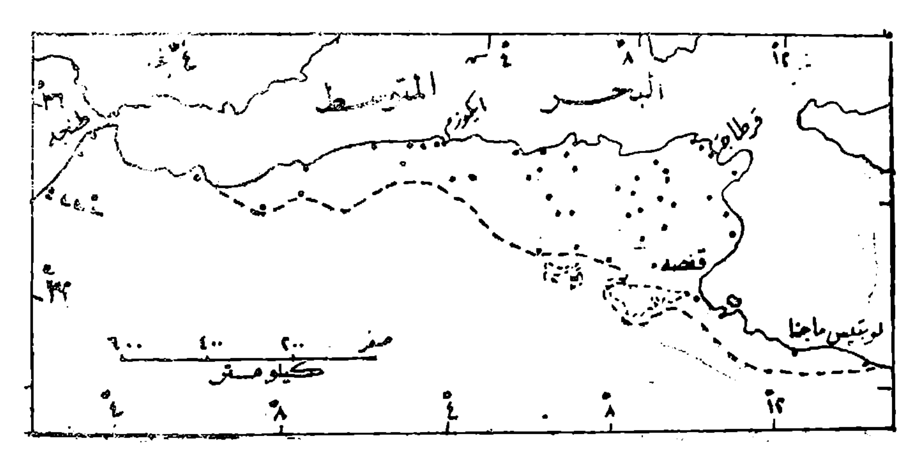
وأرتبط تشيد هذه المدن بانشاء الطرق اللازمة للتحركات العسكرية والمدنية ومن ثم فقد خلف الرومان شبكة طويلة من الطرق التى تعتبر من أهم مخلفاتهم فى شمالى إفريقية . ومن أشهر تلك الطرق الطريق الساحلى الممتد من مدينتى قرطاجة ولبدة فى الشرق الى طنجة فى الغرب ، ومن طنجة الى شالة ، والطرق الداخلية الاخـــرى التى تربط الاقليم الساحلى بتبسه وتمجاد وجميلة وليلى أو قصر فرعون (١) .

على أى حال فمن أبرز الظواهر الخاصة بالعصر الرومانى فى شمال افريقية هو قيام الرومان بانشاء عدد من المدن الرومانية الساحلية والداخلية فى كافة أنحاء المغرب . وقد أختار الرومان فى أغلب الاحيان نفس المواقع التى سبق أن أختارها الفنيقيون والقرطاجيون لإقامة مدنهم . وقد انتشرت هـذه المـدن الرومانية فى الولايات الأربع الرئيسية فى المغرب وهى ولاية موريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية ، ونوميديا وولاية افريقية (شكل ١٨) . وقد أمتدت

---

(١) رشيد الناضورى — ص ٣٢٩

الولاية الاخيرة فى جانبها الشرقى حتى مدينة طرابلس وفى جانبها الغربى حتى مدينة عنابة ، بينما تركزت نوميديا بصفة خاصة فى شرق الجزائر . أما موريتانيا القيصرية والطنجية فتمثل مناطق غربى الجزائر والمغرب الاقصى ويفصل بينهما نهر مولوية . وقد أتخذت مدينة شرشال عاصمة لموريتانيا القيصرية في حين أتخذت طنجة عاصمة لموريتانيا الطنجية .



شكل (٢٢) المدن الرومانية فى المغرب العربى

وقد أنشأ الرومان فى الجزائر مدينة قيصرية Caesarea التى تحمل اليوم اسم شرشال ، كما أستطاع الرومان أن يتوغلوا فى الاقاليم الصحراوية ، ذلك إلى جانب أنهم تمكنوا فى العصر الذهبى لروما Pax Romana من جعل أقليم نوميديا مركزاً لزراعة القمح والحبوب ومصدراً هاما لروما . وبالاضافة الى ذلك فان وجود ما يقرب من ٢٠ أسقفية فى نوميديا فى منتصف القرن ٣ يعطى فكرة واضحة عن تغلغل المسيحية الى هذا الجزء من العالم (١) .

أما فى مصر فقد أستغل البطالمة موارد البلاد المحلية أستغلالا اقتصاديا كاملا ،

(1) Barbour, op. cit., P. 207.

كما أستغلوا أيضا موقعها الجغرافى ولا سيما بعد أن تم نشر الحضارة والمدنية الاغريقية فى حوض البحر المتوسط (١) وقد أقيمت فى هذا العصر عدة موانى على ساحل البحر الأحمر مثل ميناء ميس هورمس والميناء البيضاء وميناء برنس، كما اصبح ميناء الاسكندرية فى ذلك الوقت أهم موانى البحر المتوسط ذلك بالاضافة إلى أن البطالمة كانوا يسيطرون على طرق القوافل فى بترا إلى جانب العقبة التى أعتبرت نهاية طـــرق القوافل القادمة من سوريا ، وفى الحقيقة يعد البطالمة من أول الجماعات الحاكمة التى لفتت الانظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى من الناحية التجارية بين الشرق والغرب .

وقد تضمنت المدن الرومانية فى تخطيطها كافة العناصر الرئيسية الحكومية والخاصة إذ احتوت على متطلبات الحياة العامة فى المدن من حوانيت وأسواق ومنازل ومعاصر للزيوت والمطاحن والساحات والمسارح النصف دائرية والملاعب الدائرية والاسطبلات والحمامات والمكتبات وغيرها من المبانى العامة .

ولقد نشطت هذه المدن الرومانية بعد إنشائها نشاطاً كبيراً وأعطت للبلدان المغربية صفة الحضرية أكثر من الصفة البدوية ، وأجتذبت هذه المدن الكثير من البربر إليها وبصفـة خاصة أولئك الذين كانوا يعملون فى المزارع الرومانية التى كان يمتلكها أثرياء الرومان.

الانتاج الاقتصادى .

ولقد اتجهت السياسة الرومانية فى شمال إفريقية إلى أستغلال أقاليمهـا أستغلالا شاملا فى المجال الاقتصادى إذ عتبروا هذا الجزء ولا سيما مصر مخزنا

---

(١) للدراسة التفصيلية أنظر :
J. G. Milne, Hostory of Egypt under a Roman Rule, London, 1898, Vol. V.

كبيراً للحبوب التى فى حاجة اليها الرومان . لذلك فقد أتجهوا لاعطاء الزراعة عناية خاصة وعملوا على تطوير الزراعة فى شمال إفريقية لتحقيق غايتهم الاقتصادية وقد تطلبت هذه التوسعات الزراعية إقامة المشروعات المائية اللازمة لتحقيق هذا الغرض ومن ثم أهتم الرومان فى شمال إفريقية بعمل السدود لتخزين مياه الرى ، هذا بالاضافة إلى حفر الابار وبناء مجارى المياه الرئيسية والثانوية وكذلك جمع مياه الامطار وتخزينها، وحفر القنوات لرى مختلف الزراعات(١).

وأهتم الرومان أيضاً بعمليات تصنيع بعض المحاصيل الزراعية وبصفة خاصة الكروم والزيتون . وكان دور الرومان فى هذا المجال على نطاق أوسع من القرطاجيين لان المدن الرومانية كانت تعتمد على أقتصاد ذاتى فلكل مدينة مطاحنها ومعاصرها الخاصة بها مما أدى إلى إنتشار الزراعة والصناعة وبالتالى التجارة .

أما عن التجارة فكانت أهم سلعها الحبوب والزيوت والأخشاب إلى جانب بعض العطور وغيرها من السلع التى وجدت روجاً فى النشاط التجارى مع شعوب البحر المتوسط وعلى رأسها الدولة الرومانية . هذا وقد أتجهت التجارة فى هذه الفترة إلى الأقاليم الجنوبية وإلى منطقة النيجر وساحل إفريقية الغربى كما أتجهت أيضاً عن طريق النيل إلى ساحل البحر الأحمر .

المجتمع البربرى فى العصر الرومانى :

أتجه الرومان إلى تقوية كيانهم السياسى والحربى فى شمال إفريقية باحتلال بلاد المغرب كلية وطبع المنطقة بالطابع الرومانى أستكمالا لتحقيق تحويل منطقة

---

(1) Houston, J. M., The Western Mediterranean World, London, 1964, P. 109.

البحر الابيض المتوسط بأسرها الى بحيرة رومانية تحت سيادة مدينة روما العاصمة .

وقد حاول البربر فى ذلك الوقت جمع شمل القبائل غير أن محاولتهم باءت بالفشل اذ أن البربر يضمون عناصر بربرية أستقرت فى المدن وأخذت بحياة المجتمعات المعاصرة سواء كانت قرطاجية الأصل أو رومانيه ، وأخرى لا تزال فى طورها القبلى على حافه الصحراء تحاول الاقتراب من المجتمعات الحضرية ولكنها لم تألف بعد حياة المدن والخضوع السياسى لدولة بربرية متحدة.

وهنا يجب الاشارة إلى أن الظروف الجغرافية كانت مسؤلة إلى حد كبير عن هذا الوضع الانعزالى إذ أن طبيعة البلاد ليست من السهولة والتجانس بحيث تكفل تحقيق مثل هذه الوحدة حينئذ إذ أن كثرة المناطق الجبلية وعدم توفر الطرق الموصلة بينها باعدت بين المجتمعات البشرية المختلفة . لذلك فقد أعطى الرومان أهمية خاصة للموصلات لكى تحقق التحكم الرومانى فى كافة المناطق التى تقع تحت سيطرتها .

هذا وقد وجد الرومان صعوبات شتى فى بسط نفوذهم على شمال شرق إفريقية إذ لم تكن تلك المنطقة تتقبل بسهولة سيادة الرومان عليها بقوة السلاح ولا سيما وأنها تحمل فى طياتها تراثاً حضاريا هائلا .

وقد بدأت قوى الرومان فى شمال إفريقية تنهار فى خلال القرنين الرابع والخامس الميلاد وساعد على سرعة هذا الانهيار دخول الجمل من آسيا إلى شمال إفريقية (١) .

---

(١) رولاند أوليفر — ص ٦٥

فى المناطق الصحراوية المتاخمة لتونس وطرابلس ظهرت عناصر بدوية جديدة ممثلة فى قبائل زناته التى قدمت من مناطق أستبس الصحراء الكبرى على ظهور الجمال لتهاجم وتسلب وتنهب الجماعات المستقرة فى الاقاليم الرومانية الامر الذى أدى إلى ضعف وأضعاف سلطة الرومان على هذه المناطق ولاسيما بعد أن بدأت عناصر البدو الرعاة فى التوسع والانتشار على حساب المدنيات الزراعية المستقرة . وقد عجلت عمليات السلب هذه بغزو الاسبان لشمال إفريقية على يدى قبائل الوندال فى القرن الخامس ، وتبع ذلك اعادة إخضاع هذه المناطق بواسطة العناصر البيزنطية فى خلال القرن السادس .

ومع أنحلال الامبرطورية الرومانية بدأت النهاية لتاريخ شمال إفريقية الذى أرتبط بالبحر المتوسط . هذا ويجب ملاحظة أن الاطراف الشمالية من الصحراء الكبرى قد دخلت — إلى حد ما — ابان العصر القرطاجى الرومانى ضمن مناطق نشاطهم التجارى والدليل على ذلك ازدهار بعض المدن التى كانت تقع على طرق التجارة التى كانت تعبر الصحراء الكبرى مثل مدينة لبتس ماجنا Leptis Magna ومدينة ليكسوس القرطاجية التى تقع على المحيط الاطلسى عند نهاية طرق التجارة عبر صحراء موريتانيا (١) .

وقد كانت العناصر البربرية تمثل همزة الوسط عبر الصحراء بين أقاليم البحر المتوسط شمالا والاقاليم السودانية جنوباً ، فكانت تعبر الصحراء فى مواسم معينة ليتم هذا التبادل ، فكانت تحمل الى الشمال الذهب والدقيق والعاج وريش النعام والجلود فى حين تعود الى الجنوب بمنتجات البحر المتوسط والملح .

والخلاصة أنه كان من نتيجة انتشار مدنية البحر المتوسط فى شمال افريقية

---

(١) المرجع السابق ص ٩٧

أن قويت الفروق بين جماعات البربر التى أستقرت فى سهول وأودية شمال غرب افريقية ، وجماعات البربر الرعاة فى نطاق السافانا والصحراء . وازدادت قيمة هذه الفوارق بدخول الجمل وكذلك بدخول الاسلام بعد ذلك . ومع بدء العصر الاسلامى أصبح بربر الصحراء يتمثلون فى جماعات الطوارق الذين لاتزال روابطهم القبلية مع البربر المستقرين قائمة (١) .

---

(1) Stamp. L. D., Africa, London, 1964 p. 232 - 233.

وأيضا رولاند أو ليفر ص ٦٩ .

الفصل الخامس

شمال افريقية منذ الفتح العربى الى الاحتلال العثمانى

« البربر بين التوحيد وتقسيم بلاد المغرب — العرب فى الصحراء الكبرى — المماليك فى مصر — أسبانيا والبرتغال فى شمال إفريقية العثمانيون فى شمال إفريقية — بداية النفوذ الفرنسى فى شمال إفريقية — مشكلة تلمسان بين والجزائر مراكش » .

الفصل الخامس

شمال افريقية منذ الفتح العربى الى الاحتلال العثمانى

على الرغم من أن غزو العرب لشمال إفريقية لم يمكنهم من إقامة أمبراطورية سياسية ثابته إلا أنه أستطاع أن يحقق تغيرات اجتماعية دائمة بعد إنتشار الاسلام إلى هذه الجهات . فقد جاء عمر بن العاص فى عام ٦٣٩ م إلى مصر فاتحاً فى وقت لم تكن فيه القوة البيزنطية هناك قادرة على أن تصمد أمام التحركات البشرية العربية الهائلة التى تمت خلال القرن السابع فلم تلبث أن أنهارت وأصبحت مصر ونيلها فى أيدى العرب ومن ثم فقد أسس عمر بن العاص أول مدينة عربية فى شمال إفريقية وهى الفسطاط التى تقع إلى جانب بابليون فى موقع يسهل الدخول اليه من سوريا ومن الصحراء العربية حيث تكمن مصادرة القوة العربية المركزية . وتبع ذلك سيطرة العرب على بقية الأراضى المصرية وإعادة وضع الحدود الجنوبية التاريخية للبلاد عند الشلال الأول بتحصين أسوان ضد غارات النوبيين (١) .

وقد أخذ المسلمون فى مصر شأنهم فى البلاد الأخرى النظام الادارى الذى أتبعته الحكومات السابقة إذ أحتفظ العرب لانفسهم فى مصر بالحقوق التى كانت للرومان والبيزنطيين من قبلهم . فكان الحاكم المسلم يبعث فى أواخر كل عام قبيل موسم البذر الجديد ببيان سنوى إلى كل منطقة وفيه نص على مقدار مايتعين عليها تقديمة للدولة من محاصيلها ، وكان رؤوساء المناطق مسئولين عن جباية

---

(١) رولاند أوليفر ــ موجز تاريخ إفريقية . ص ٧٨ .

هذه الضرائب عيناً . ولم يكن للفلاحين مورد مالى غير تجارة الحنطة التى كانت تراقب على الدوام مراقبة دقيقة من قبل الدولة . فقد كانت محاصيل الحنطة تنقل إلى بيادر أميرية حيث تعقد الصفقات (١) .

ومع بداية القرن الثامن كان العرب قد شملوا بانتشارهم كل إفريقية شمال الصحراء الكبرى . فقد وصل العرب إلى برقة بعد مصر ، كما تمكن عقبة بن نافع بمعاونة البربر فى الوصول إلى جنوب تونس (٢) أو كما يطلق عليها العرب اسم « أرض النفاق » (٣) حيث شيد هناك مدينة القيروان التى جعل منها مركزاً تتقدم منه العمليات العسكرية إلى الأجزاء المجاورة .

وبعد غروب قوة البيزنطين من شمال إفريقية بفضل الأسطول العربى الجديد وقعت قرطاجة فى أيديهم فأنشأوا فى مكانها بدلا منها تونس التى أخذت تنهض بنفسها وتتطور بسرعة .

ولم يتمكن العرب حتى عام ٧٠٥ م من أن يوحدوا كل الاقاليم التى ضموها إلى نفوذهم فى شمال إفريقية اللهم إلا سهول تونس الخضراء التى أستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم عليها من القيروان . ولقد كانت نوميديا تمثل دائما مركز المعارضة لأى نفوذ أجنبى وظلت على ذلك لمدة قرون . أما فى الأجزاء

---

(١) كارل بروكمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى ـ بيروت ـ ١٩٦٥ . ص ١٠٢ .

(٢) اوقع البربر بعقبة بن نافع عند تهوذا على اطراف الصحراء الكبرى حيث قتلوه فى عام ٦٨٣ هـ . والواقع أن المسجد الذى يضم رفاته فى المنطقة التى تحمل اسمه « سيدى عقبة جنوب بسكرة هى أقدم أثر من فن العمارة الاسلامية فى افريقية ويعود فى وقت كانت فيه العمارة لاتزال بسيطة ـ المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٣) رولاند ـ ص ٨٧ .

من المغرب فقد دهش العرب لمدى السهولة التى تقبلت بها القبائل البربرية لتعاليم الاسلام ومن ثم فقد كاتف البربر العرب فى زحفهم إلى شبه الجزيرة الايبرية ابتداء من القرن الثامن الميلادى .

هذا ولم يألف العرب فى هذا العصر التقسيم التقليدى الذى يشطر المغرب العربى إلى أربع أو ثلاث وحدات سياسية منفصلة إذ كانوا يطلقون على مراكش اسم المغرب الاقصى ، والجزائر اسم المغرب الأوسط بينما سموا القسم الشرقى من المغرب بتونس أو إفريقية . ولكن لم تتحدد بالضبط مضامين هذه الاسماء من الناحية الجغرافية ذلك لأنه لا توجد حواجز طبيعية بين حدود كل من تونس والجزائر والمغرب إذ يلاحظ أن التقسيمات الجغرافية لشمال إفريقية تتخلل الأقطار الثلاثة عرضاً وتمتد بمحاذاة البحر (١) .

على أى حال فقد ترتب على وصول العرب الى المغرب أن سيطر التجار البربر على جزء كبير من تجارة الشرق العربى والأجزاء الآسيوية القريبة منها وذلك بعد أن أصبحوا حكام وجنود الشعوب العربية فى سوريا وأجزاء من الجزيرة العربية .

وفى منتصف القرن الثامن الميلادى تولى العباسيون الحكم بدلا من الأمويين فانتقلت عاصمة الحكم من مدينة دمشق إلى مدينة بغداد (٢) . ولقد كان لتحول مركز الامبراطورية اداريا وروحيا الى الشرق نتائج هامة فى افريقية فبدأ الانحلال يدب فى أوصال الاقاليم الغربية اذ بدأت الجماعات البربرية فى المغرب تنزع نزعة أستقلالية مستغلين الخلافات الداخلية بين المسلمين ومن ثم أصبحت

---

(١) صلاح العقاد — المغرب العربى — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٦٦ — ص ٩ .

(2) Nutting "A." The Arabs, London, 1964, p. 92-93.

معظم القبائل الموجودة على هوامش مراكز الاستقرار والذين كانوا يقومون بالتجارة والرعى مع السودان من الخوارج (١) .

وقد كانت هناك مجتمعات كاملة من الخوارج ذات ممالك خاصة ازدهرت خلال القرنين الثامن والتاسع كما فى سجلماسة أعظم مراكز القوافل فى جنوب مراكش ، وكذلك فى طرابلس وتونس وربما حول تاهرت فى وسط المغرب وأيضا مدينة العباسية التى شيدت على بعد ثلاثة أميال جنوب القيروان والتى جعلت قاعدة لامارة ابراهيم الأغلب . وقد ذهب بعض البربر أبعد من ذلك وتسببوا فى فرط عقد الكيان العربى فى شمال افريقية بسبب جنوحهم نحو العزلة والاقليمية المتطرفة ، وينهض على ذلك مثلا « أدريس بن عبد الله » الذى أختارته الجماعات البربرية فى مراكش ليكون أمامهم فى عام ٧٨٨ ، ومن ثم تحولت هذه الإمامه إلى مملكة كبيرة فى غرب المغرب لتتخذ أول مدينة وطنية لها فى فاس .

ومع نهاية القرن الثامن أستقبلت قبائل كتامة وهم أحد فروع القبائلة الذين كانوا يعارضون باستقرار الحكومات المستقرة بالمغرب أحد الشيعة المعارضين للحكم العباسى فى بغداد وأسمه « المهدى » (٢) الذى وفد من اليمن ونصبوه خليفة

---

(١) كان أهل شمال إفريقية من البربر يظهرون الأستياء من حكم العرب وذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة الرعاية الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين ومقاتلين متحمسين فى الحرب المقدسة . وهكذا وجد رسل الخوارج المقبلون من العراق إلى إفريقية النفوس مستعدة لتلقى تعاليمهم ، فحرضوا البربر على الخليفة الأموى وحركوهم لدفع راية العصيان انظر بروكلمان ص ١٥٩ .

(٢) اسمه الحقيقى ابا عبد الله وقد استطاع فى احد مواسم الحج بمكة أن يحظى بمبايعة جماعة من قبيلة كتامة فأمروه على انفسهم وسار معهم إلى بلادهم . وقد استقرت الامور لابى عبد الله فى رقادة عاصمة بنى الاغلب وتولى زمام الحكم فيها فترة من الزمن — أنظر بروكلمان ص ٢٥١ .

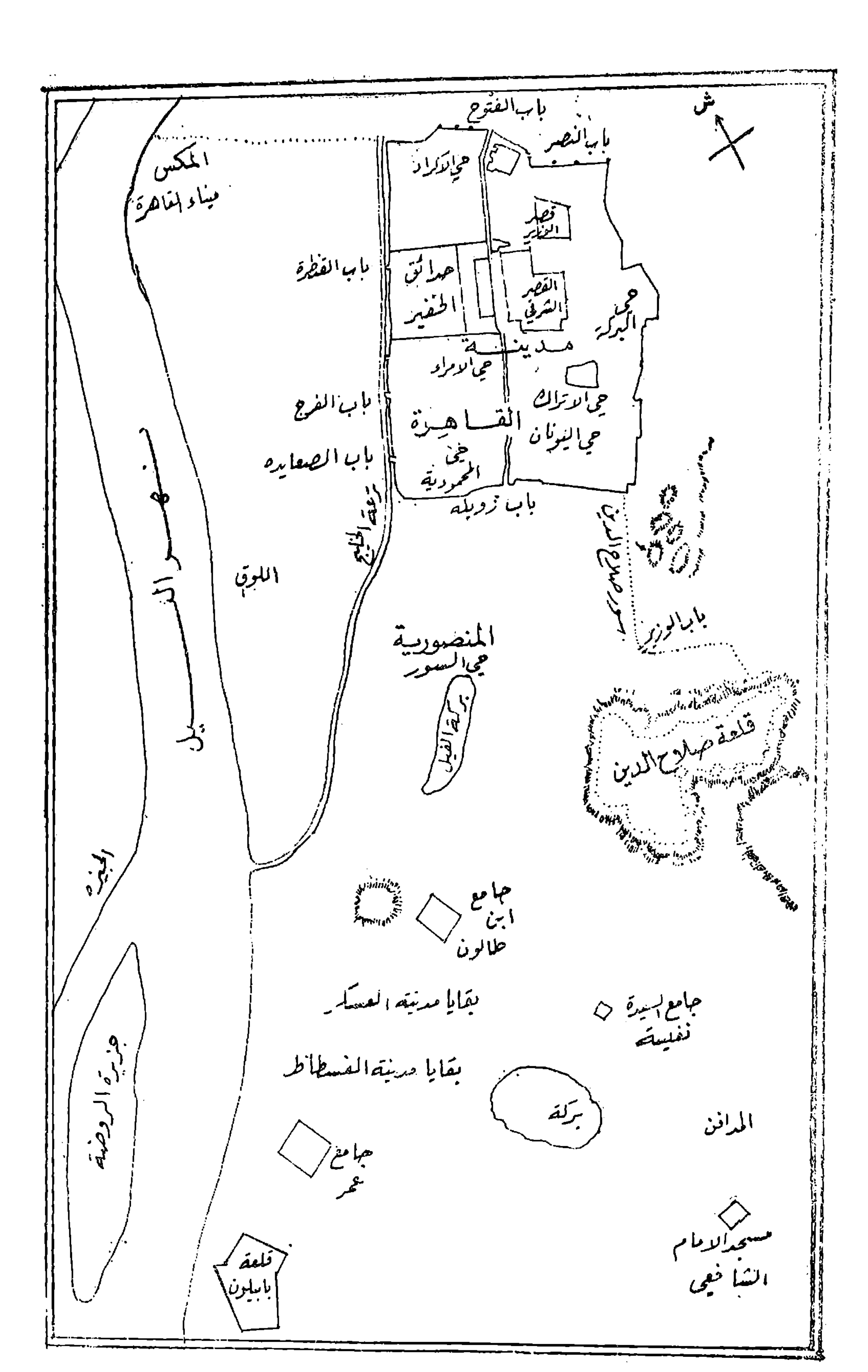
وزعيا للبربر عام ٩١٠ ومن ثم أنتقلت عاصمتهم من القيروان إلى مدينة المهدية المحصنة فى الشرق وذلك لتحقيق الزعامة الاسلامية التى تتطلع اليهما الفاطميون وهو الاسم الجديد لاسرة هذا الوافد .

أما فى تونس فقد كانت أحسن حظاً من بقية بلاد المغرب إذ تمكن الأغالبة وأقرباؤهم العرب من الاحتفاظ بالحكم ولذلك تمكنوا من أعـــادة الحياة الزراعية والاقتصادية التى ورثوها عن الرومان خلال الحكم الاسلامى الجديد إلا أن هذه الظروف رغم كل هذا لم تكن تشبه فى أزدهارها مثلها فى مصر فقد كانت التغيرات السياسية فى مصر أقل خطراً عن بلاد المغرب العربى ومن ثم فقد أسس العباسيون مدينة فاخرة زاخرة بالقصور أطلق عليها اسم « العسكر » على أمتداد الفسطاط فى أواخر القرن الثامن الميلادى (١) . وذلك لتكون قصبة حكمهم غير أنه لما تولى أحمد بن طالون زمام الأمور فى مصر ٨٦٨ م . أنشأ مدينة جديدة على طراز سامرآ إلى الشمال الشرقى من العاصمة المصرية القديمة فوق قطعة من الأرض أقتطعت لضباطه وجنوده وموظفيه . وقد سميت هذه المدينة باسم القطائع (شكل ٢٣) . ولقد نقل إلى مدينته هذه حضارة العراق وفنونها ، وكانت هذه مزيجا من العناصر الفارسية والهيلينية (٢) . وقد تبع ذلك أن وقعت مصر تحت نفوذ الفاطميين فى عام ٩٦٩ م . فتولى الخليفة الفاطمى « المعز » حكم البلاد من القاهرة التى تجاور العسكر والفسطاط .

---

(1) J. B. Clubb. The Great Arab conquests. London, 1963. 241 - 245 & East (G.), an historical geography of Europe, London. 1950. P. 195 Oliver (R.), Ashort history of Africa Penguin African library, 1962. PP. 77-78.

(2) El-Gowhary, Y. Urban Studies in The Nile Delta From The Beginnings of The 19 th Century Onwards,
Astudy in Historical giography. ph. D. Thesis, Unpublished, Readings, 1964. Vol. L. PP. 47 - 49.



ش
باب الفتوح
باب النصر
المكس
ميناء القاهرة
حي الأكراد
قصر
باب القنطرة
حدائق الحفير
القصر الشرقي
حي البركة
مدينة
حي الأمراء
حي الأتراك
باب الفرج
القاهرة
حي اليونان
باب الصعايدة
حي المحمودية
باب زويلة
اللوق
المنصورية
حي السور
باب الوزير
بركة الفيل
قلعة صلاح الدين
الجيزة
جامع ابن طالون
بقايا مدينة العسكر
جامع السيدة نفيسة
بقايا مدينة الفسطاط
جزيرة الروضة
بركة
المدافن
جامع عمر
قلعة بابليون
مسجد الامام الشافعي

على أى حال فلم يتمكن الفاطميون فى شمال إفريقية من السيطرة على مواطن البربر الأصلية . ومن ثم فقد ظهرت ممالك الصنهاجة المستقلة . وكان رد الفاطمين على ذلك هو ارسال عدد من القبائل البدوية المشاغبة من مصر العليا لمضايقتهم ، فارسلوا اليهم قبائل بنى هلال البدوية (١) . التى وصلت المغرب فى عام ١٠٦١ . ولقد كانت غزوات الهلالية تمثل هجوماً تقـــوم به قبائل بأكملها تستهدف الاستحواذ وسلب مناطق جديدة للرعى ، فكانت كأسراب الجراد — كما يقول أبن خلدون — تحطم كل ما يقف فى طريقها . ومن ثم أخذت ممالك صنهاجة التى وقع عليها مسئولية التقدم الزراعى والمدنى فى السهل الساحلى الإفريقى حينئذ تعانى من التلف والخراب الذى أخذ يحل بمواطن إستقرارها ولذلك بدأت قبائل زناته تظهر فى الأفق .

ولقد ظل العرب حتى ذلك الحين يمثلون فى المغرب أعداداً ضئيلة نسبيا تمثل القشرة العليا للسكان ولكنها أختلطت شديداً مع البربر . ونظراً لإستمرار وفود قبائل بنى هلال وبنى سليم إلى المغرب فقد أختطلت قبائل زناته وأستعربت ولهذا فإن مجتمع البربر أخذ فى الانحلال بالتدريج من الشرق وليصبح ممثلا فى جماعات متنافسة تجمع بين صفات العرب والبربر تتصارع فيما بينها ولاسيما وأن جماعات البربر تعودت على المعيشة فى المناطق الجبلية الحصينة حيث القبالة والأوراس(٢).

البربر بين توحيد وتقسيم بلاد العرب :

قامت فى المغرب فى أثناء القرن ١١ م . دولة المرابطين أو كما يطلق عليهم فى بعض الأحيان «شعب جزيرة الرباط» الذين تمكنوا عن طريق مدينة مراكش

---

(1) Barbour. O.P, Cit., P. 297.

(٢) رولاند — ص ٩٠

الحديثة أن يقيموا أمبراطورية قوية تسيطر على النصف الغربي من المغرب وتقف سداً منيعا أمام قبائل زناته التي زعـــزعت نهاية الطرق الصحراوية التجارية المراكشية . غير أنه بمرور الزمن فقد المرابطون أرتباطهم بالصحراء وقوتهم العسكرية ومن ثم تمكنت قبائل مصمودة البربرية في جبل أطلس بمراكش والتي على عداء مع قبائل صنهاجة أن تساعد قبائل زناته على تأسيس دولة الموحدين لتحل محل المرابطين وذلك في خلال النصف الأول من القرن ١٢ . وفي النصف الثاني من القرن ١٢ ضمت تونس إلى المغرب لتكون تحت لواء حكومة بربرية واحدة ومن ثم أصبح المغرب حينئذ قوة لها حسابها في حوض البحر المتوسط .

وقد تحققت على أيدى الموحدين في هذه الفترة أعمال عظيمة — من وجهة النظر الجغرافية — فمسحت أراضي المغرب من أجل ضرائب منظمة وعادلة حسب إنتاجية الفرد وأصبحت مراكش وفزان وتلمسان والرباط مدنا جميلة متحضرة بفضل أحتكاك الثقافة الأسبانية بالعربية في شمال إفريقية .

ورغم كل ذلك فقد فشل الموحدون في ذلك الوقت في نشر مفهوم مضمون الدولة والحياة الحضرية بين القبائل البربرية العديدة وخصوصا أنهم كانوا دائبين على التمييز في جميع مجالات النشاط بين قبائل مصمودة وزناته من جهة وبين باقي البربر من جهة أخرى . وكان هذا الفشل معناه ضعف مقاومتهم لتهديد البدو المستمر من جهة ولاضطراد زيادة القوة الاسبانية من جهة أخرى . ولتفادى ذلك قسم الموحدون حكومة أمبراطوريتهم مع أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣ إلى قسمين شرقي وغربي حيث أعطوا للحفصيين (١) حكم الجزء الشرقي من الامبراطورية من تونس .

---

(١) الحفصيون احد العائلات البارزة التي ظهرت بين جماعات الموحدين .

وقد أستطاع الموحدون أن يصدوا تيار الجماعات البدوية المتدفقة اليهم ونجحوا فى ذلك نجاحا كبيراً ، ولكن الحروب ضدهم زادت حدتها بعد تحطيم وحدة المغرب ومن ثم أخذ الجزء الغربى من المغرب العربى يقاسى من جراء هزيمته مع أسبانيا عام ١٢١٢ ومن جراء سيطرة قبائل زناته على المداخل الشرقية لمراكش فى حين أصبحت تونس تحت حكم الحفصين كجزيرة مستقلة عن بقية أجزاء المغرب العربى .

على أى حال أنفرط عقد المغرب العربى فى النصف الثانى من القرن ١٣ وغابت شمس أمبراطورية البربر إذ أضمحلت دولة الموحدين وحل محلها بالتدريج دول ثلاث ، دولة الحفصيين فى تونس ، وبنى عبد الواد فى المغرب الأوسط ، وبنو مرين فى المغرب الأقصى . وقد حاولت كل من دولتى تونس والمغرب أن تبسط نفوذها على كل المغرب بأثره وتأسس دولة كبيرة على نمط الموحدين .

وقد كانت دولة الحفصيين ، أسبق الدول الثلاث ظهوراً وأوسعها إنتشاراً حيث أعلن تكوينها رسمياً فى عام ١٢٣٧ وأستمرت دولة مزدهرة فى عام ١٥٧٤ بفضل سهول تونس الزراعية وتجارتها مع جنوب أوربا والسودان . وقد أتسع نفوذ هذه الدولة فامتد من طرابلس إلى طنجة وانتهى أمر هذه الدولة بوضع نفسها تحت حماية الغزاة من أسبانيا .

أما دولة بنى عبد الواد فقد ظهرت فى منتصف القرن ١٣ واتخذت من تلمسان حاضرة لها وقد أزدهرت هذه المدينة فى هذه الفترة إذ كانت مركزاً ثقافياً ، كما أشتهرت بحدائقها الغناء التى كانت تصدر منتجاتها عن طريق الموانى الساحلية (١) ولم تحكم دولة عبد الواد سوى الجزء الغربى مما يقابل الجزائر حاليا . وقد كانت

---

(١) صلاح العقاد ، ص ٢٢ .

هذه الدولة مطمع تونس والمغرب الأقصى ، كما كانت مدنها الساحلية تكون جمهوريات مستقلة أشبه بالجمهوريات القائمة على الساحل المواجة لإيطاليا ، ومن ثم فقد أدى هذا التفكك إلى طمع الصقليين فى الجزائر فغزوا بعض مدنها الساحلية وأحتلوها فترة خلال القرن ١٤ ولم تتحقق للجزائر وحدتها الإقليمية إلا فى العهد العثمانى .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين سكان هذه الدولة بعض القبائل الزناتية التى كانت تمثل عناصر رعوية ترعى الماشية غير عابثة بثراء تونس ومراكش فى الشرق والغرب على التوالى . هذه الجماعات كانت لا تنتظم تحت سلطة الحكومة إذ كانت عبارة عن قوة بسيطة من البدو تهدد آمن المجتمعات الحضرية الآمنة .

أما فى الغرب فى مراكش فعاصرت الدولتين السابقتين دولة بنى مرين التى ينتمى أصحابها إلى قبيلة زناته البربرية ، وقد بدأ ظهورهم فى جنوب مراكش فى بداية القرن ١٣ ، ثم إنتشر نفوذهم إلى فأس ومكناس وأخيراً أستولوا على مدينة مراكش فى عام ١٢٦٩ ، وقد ورث المرينيون بحكم موقعهم الجغرافى تقاليد سياسة الموحدين فى الأندلس القائمة على تقديم المساعدات للمسلمين هناك . وللاسف دب الخلاف بين المرينيين ودولة بنى الأحمر (١) حول تملك بعض الموانى على شاطىء الأندلس مما عرض مراكش لغزو الدول المسيحية ولا سيما بعد أن سقطت سبته فى أيدى البرتغاليين عام ١٤١٥ (٢) .

وبالنسبة لليبيا يلاحظ أن مدينة طرابلس كانت منذ بداية الفتح العربى أهم مركز من مراكز العمران والنشاط فى ليبيا ، حتى أن البلاد كلها كانت تعرف

---

(١) دولة بنى الاحمر هى اخر الدول الاسلامية التى قامت بالاندلس .
(٢) المرجع السابق ١٢ .

بأسمها ومع ذلك فلم تكن ترتبط دائما بعلاقات قوية بالأجزاء الداخلية كما لم تكن سيطرتها دائمة أو تامة على هذه المناطق . أما فزان فعلى الرغم من أن بعض الكتاب العرب ذكروا أن الفتح العربي وصل إليها فى القرن ٧ م . فإن حكومتها ظلت مستقلة تحت أسرة بنى خطاب البربرية وكانت عاصمتهم هى زويلة أما برقة فأخذت روابطها مع طرابلس تقوى بعد الفتح العربى وذلك لوقوعها على الطريق الرئيسى بين المشرق العربى من جهة البلاد التى فتحها المسلمون فى المغرب العربى من جهة أخرى (١) .

العرب فى الصحراء الكبرى :

أما بالنسبة للصحراء الكبرى فلم يتمكن العرب قبل غزو الهلالية للمغرب من السيطرة على الصحراء الكبرى سيطرة مباشرة وذلك لأن أعدادهم كما سبق أن ذكرنا قليلة بحيث لم يكونوا الا القشرة العليا من السكان فحسب ، وكان شأنهم شأن الرومان والقرطاجيين من قبلهم يميلون الى ترك الصحراء والتجارة بها لجماعات الطوارق . على أى حال فمع بداية القرن الحادى عشر كانت عملية انتشار الإسلام قد أنتقلت بصورة واضحة فى الأجزاء العربية من الصحراء الكبرى الى أفراد قبائل صنهاجة الطوارقية التى كانت تتحكم فى طرق القوافل بين غانا ومراكش لتمكنهم من القيام بدورهم فى تنشيط تعاليم الدين من جديد وكان لهذا الدور نتائج بالغة الأهمية لكل من المغرب العربى والسودان الغربى على السواء (٢).

فقد لعبت تجارة السودان عنصراً هاماً فى التجارة المراكشية إذ كان تجار المغرب

---

(١) عبد العزيز طريح — من ص ٣٨٥ إلى ص ٣٨٩ .
(٢) رولاند — ص ٩١ .

يأتون من السودان وهم حاملين معهم كميات كبيرة من الذهب ذلك إلى جانب أن تجارة السودان حققت لهم الوفير من الربح ذلك لأنهم إلى جانب مبادلتهم القائمة على أستبدال تراب الذهب بسلع مراكش كانوا يبيعون منتجات السودان للتجار الأوربيين .

ولبلاد المغرب علاقات وثيقة تربطها بالسودان التى كانت فى نظر المغاربة تكون البلاد الواقعة فى حوض السنغال والنيجر . وترجع هذه للعلاقات إلى بداية إنتشار الإسلام فى تلك المناطق فى القرن الخامس الهجرى . فقد أخذ المسلمون من المغرب على عاتقهم مهمة نشر الإسلام فى تلك المنطقة ، وأصبحت المراكز الإسلامية فى غرب إفريقية صورة مصغرة لحضارة المغرب .

وقد تأكدت هذه الصلات الروحية عن طريق التجارة الصحراوية ونشاط القوافل التى كانت تجوب هذه الصحارى حاملة معها المنسوجات وغيرها من منتجات الحضارة وفى الطريق كانت القوافل تعرج على واحة تغازة حيث يكثر الملح وهو أهم ما كان يطلبه سكان السودان ويتبادلون به تراب الذهب ثم تعود القوافل حاملة الرقيق ومنتجات السودان من ريش النعام والعاج وغير ذلك .

ولعل من أهم الآثار التى تراكها المراكشيون من جراء حملتهم على السودان أو دولة سنغى فى عام ١٥٩٣ (١) . هو قيام حكومة مراكشية فى وسط حوض النيجر مدة قرنين ، وظهور طبقة من المولدين فى السودان نتيجة لتزواج الجنود

---

(١) ترجع اسباب هذه الحملة إلى أن سكان واحة تغازة يدينون لمملكة سنغى المعاصرة للسعديين فى مراكش، كما تعود أيضا لاهتمام المنصور بالجنوب منذ بداية حكمه حيث عمر مدينة مراكش واحتل الواحات الجنوبية من توات تمهيداً لضم السودان ولذلك أنتهز فرصة استنجاد أحد أمراء هذه المملكة على أخيه الحاكم وأعد حملة لفتح السودان فى عام ١٥٩٠ .

المراكشيين بالنساء من أهل للبلاد كما أن هذه الحملة تعد من الذكريات التاريخية التى يثيرها المغرب فى الوقت الحاضر حين يطالبون بموريتانيا وبعض أجزاء من أراضى السنغال ومالى (١).

المماليك فى مصر :

لم يتمكن الفاطميون من أن يعمروا فترة طويلة فى شمالا إفريقية إذ ما لبث أن تدفق على الامبرطورية الاسلامية من الشرق الاتراك السلاجقة فسقطت بغداد فى أيديهم فى عام ١٠٥٥ وتبعتها دمشق فى عام ١٠٧٠ ثم قامت الحروب الصليبية بعد ذلك بحوالى ٢٨ عاماً . وكان على مصر أن تخضع إن آجلا أو عاجلا إلى الصليبيين ولكن بفضل صلاح الدين الايوبى الذى تولى حكم مصر فى عام ١١٧١ تمكن من أن يجعل مصر درعاً قوياً يحمى به إفريقية من التدخل الأجنبى وذلك حتى منتصف القرن ١٣ حينما تمكنت العناصر الجركسية والمماثلة فى المماليك الذين وفدوا من أسواق الرقيق فى وسط آسيا والتحقوا بجيوش الأيوبيين أن يقيموا الخلافة العباسية من جديد فى القاهرة واستطاع بيبرس وقلاون (١٢٦٠ — ١٢٩٠) صد المغول عن إفريقية كما قضوا على الجماعات الصليبية أيضاً .

وبالرغم من الحكم المملوكى كان يثبت تفوقاً ظاهرياً على نظم الحكم الأخرى القائمة إلى جواره منذ نهاية القرن ١٤ تقريباً إلا أن القوة الحقيقية كانت فى طريقها إلى الزوال فالنضال المستمر من أجل الاحتفاظ بمركزهم فى مصر شغلهم عن العناية بأمور الرى والزراعة التى تعتبر دعامة. وأساس القوة والثراء فى مصر فأدى ذلك بهم إلى الحضيض إذ أتلف المماليك أثناء حكمهم مركز

---

(١) صلاح العقاد — ص ٦١

الدولة التجارى وذلك بابتزازهم للتجارة وأحتكارهم لها .

اسبانيا والبرتغال فى شمال افريقية :

يتداخل العامل الاقتصادى مع التعصب الدينى فى دفع البرتغاليين والأسبان نحو السياسةالتوسعية التى أتبعوها فى شمال إفريقية منذ أحتلال الأسبان لمدينة تطوان عام ١٤٠١ والبرتغالى لمدينة سبتة فى عام ١٤١٥ (١) .

ويظهر أثر العامل الاقتصادى بوضوح إذا ما عرفنا أن مراكش أقترنت دائما فى أذهان البرتغاليين بغنينا وبتشييد أقتصاد الامبرطورية البرتغالية ، إذ كان هدف القائمين بأعمال الكشف الأستعمار فى ساحل إفريقية العربى هو أن يتزودوا من مراكش بالقمح والخيل ليشتروا بها الذهب من الرؤساء الإفريقيين الذين يتعاملون مع المحطات البرتغالية ثم يستخدمون هذا الذهب لشراء التوابل من الشرق الأقصى .

أما الدافع الدينى فكان سبباً فى أتجاه الحملات البرتغالية (٢) لاحتلال مدينتى سبتة وطنجة على ساحل البحر المتوسط ، وقد أحتلت المدينة الأخيرة فى عام ١٤٣٨ . ويبدو أن الهدف من توسيع البرتغاليين فى شمال إفريقية عن طريق ساحل البحر المتوسط وليس عن طـــريق ساحل مراكش المواجهة للمحيط الأطلسى هو شطر المغرب الإسلامى إلى قسمين تمهيداً لاجتياح أراضيه .

وقد أتسع نطاق الغزو البرتغالى للمغرب فى النصف الثانى من القرن ١٥

---

(١) لم تسفر حملة الأسبان على تطوان عن احتلال دائم للمنطقة وذلك على النقيض من حملة البرتغال على سبتة التى كانت أبعد أثرا فى تاريخ البلاد ، فمنذ ذلك التاريخ ومدينة سبته ترزح تحت الحكم الاجنبى سواء كان برتغالياً أم اسبانياً .

(٢) يسرى الجوهرى — الكشوف الجغرافية — الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١٢٨ .

حيث شمل هذه الفترة موانى البحر المتوسط والأطلسى على السواء . فنى عام ١٤٦٨ وضع البرتغاليون حمايتهم على آزمور ثم أحتلوا أصيلة فى عام ١٤٧١ ، وبعد ذلك أمتد أطماعهم إلى الجزائر فأقاموا مؤسسة تجارية فى وهران فى الفترة ما بين عامى ١٤٨٣ - ١٤٨٧ وحاولوا فرض معاهدة على مملكة تلمسان . وفى بداية القرن السادس عشر تحول أهتمام البرتغاليين الى ساحل مراكش الجنوبى بعد تفوق الاسبان عليهم فى الساحل الشمالى ومن ثم أصبحت وطأة الحكم البرتغالى فى الجنوبى أقوى منها فى الشمال وأكثر توغلا فى الأراضى الداخلية إذ أمتد نفوذهم إلى مدينة مراكش ذاتها كما أسسوا ميناء مزعان .

وليس معنى ذلك أن الاسبان لم ينافسوا البرتغاليين فى جنوب مراكش إذ تذكر المصادر الاسبانية أن حاكم الجزر قد أقام محطة للصيد وتجارة الرقيق فى مكان سموه سانتا كرز دى ماربكينا Sainta Cruse deMarequcena وأنهم أحتلوه منذ عام ١٤٧٧ إلى ١٥٢٤ [١] .

على أى حال فقد أنصرف أهتمام الأسبان منذ نهاية القرن ١٥ إلى الساحل المغربى على البحر المتوسط ولا سيما بعد أن عقدت معاهدة بين أسبانيا والبرتغال فى توردى سيللاس قسمت بمقتضاها المغرب إلى منطقتين. الأولى تقع إلى غرب حجر باديس وقد تركت للبرتغال والثانية تقع إلى شرق هذه النقطة ويتولى الأسبان فيها مهمة حرب الاسترداد وكان الاسبان يحتلون حينئذ ميناءى سبتة ومليلة ، فاتجهوا شرقاً إلى ساحل الجزائر حتى طرابلس .

---

(١) لايعرف المغاربة اسم هذا المكان كما أنه يصعب تحديد موقع هذه المحطة غير أنه بسبب تجديد الأسبان المطالبة بهذا الموقع منذ عام ١٨٦٠ وذلك بناء على الحقوق التاريخية المشار إليها ، فقد تحايل الخبراء الأسبان وأدعوا أنها تقابل منطقة سيدى إفنى حاليا ـ للدراسة التفصيلية أرجع إلى صلاح العقاد ص ١٥ .

وقد قامت أول محاولة لتنفيذ خطة الاسبان فى شمال إفريقية فى عام ١٥٠٥ حينما نزلت أول الحملات الاسبانية فى ميناء المرسى الكبير فى غرب الجزائر غير أن التغلغل الحقيق على سواحل إفريقية لم يبدأ إلا بعد عام ١٥٠٨ حينما أستولى الاسبان على حجر باديس ، وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية فى أيديهم ، وفى عام ١٥١٠ دمر ميناء طرابلس وأضطرت موانى دلس والجزائر (١) إلى دفع جزية للاسبان،وكانوا قد أقاموا أمام هذه القرية حصناً على صخرة مواجهة يعرف بالبينون (٢) . وتبع ذلك أن عقدت مملكة تلمسان مع الاسبان معاهدة صلح فى عام ١٥١٢ أعترفوا فيها باستيلاء الاسبان على عدة موانى فى غرب الجزائر .

والخلاصة أن التفكك السياسى فى شمال إفريقية قد بلغ مداه فى أوائل القرن ١٦ ومن ثم فقد سهل على الغزاة الاسبان الاستيلاء على أهم موانى الجزائر إلى جانب موانى مراكش التى أحتلت فى الفترة ما بين عامى ١٥٠٩ و ١٥١٠ .

وقد تمكن المراكشيون فى خلال القرن ١٧ من تخليص الجيوب الساحلية من النفوذ الاسبانى الذى ظل بها نحو قرنين من الزمن . فاشتروا موانى المعمورة « المهدية ألآن » فى عام ١٦٨١ وأصيلة فى عام ١٦٩١ ولكنهم فشلوا أمام موانى سبتة ومليلة.وهذا لم يبق من الجيوب الأوروبية سوء الميناءين السابقين بالاضافة إلى فرغان التى كانت تحت سيطرة البرتغاليين ولم تسترد إلا فى عام ١٧٦٦ .

أما طنجة فقد أستردها البرتغاليون بعد أستقلالهم عن الأسبان فى عام ١٦٤٠

---

(١) كانت الجزائر فى ذلك الوقت عبارة عن قرية ساحلية صغيرة .

(٢) تطلق كلمة بينون على الجزر الساحلية أو الرؤوس الداخلية فى البحر والتى اعتاد الأسبان فى إفريقية أن يبنوا فوقها الحصون فمثلا يسمون حجر باريس باسم Ponn de Uulés

ثم شعروا بعجزهم عن الدفاع عنها ، فنحها ملك البرتغال لشارل الثانى ملك انجلترا بمناسبة تزويج أبنته له ، وفى عام ١٦٨٤ ضرب المراكشيون عليها الحصار فانسحب الانجليز منها .

العثمانيون فى شمال أفريقية :

فى خلال القرن السادس عشر دخل الاتراك العثمانيين إلى مصر فى عام ١٥١٨ ومن ثم فعن طريق موقع مصر الجغرافى تمكنوا من التقدم فى شمال إفريقية حتى المغرب وإلى الجنوب الشرقى حتى البحر الأحمر . ولذلك فقد أصبحت طرابلس وتونس والجزائر كلها ولايات فى الامبراطورية العثمانية. ولقد كان مجىء العثمانيين الى شمال افريقية بمثابة نجده أنقذت البلاد من الغزو الأوربى وعملت على توحيد البلاد سياسيا .

وقد قسم الاتراك الجزائر الى ثلاث مقاطعات ورثها عنهم الفرنسيون . وهذه المقاطعات هى وهران فى الغرب وميديا أو تيطرى فى الوسط وقسنطينة فى الشرق أما الجزائر فكانت تكون وحدة مستقلة عن المقاطعات الثلاث . وقد كان اقليم القسنطينة أكبر الولايات الجزائرية ، ويليها اقليم وهران الذى كانت عاصمته فى بادىء الأمر معسكر « مقر الأمير عبد القادر » ثم نقلت الى وهران بعد جلاء الأسبان عن الميناء فى عام ١٧٩٢ . أما الإقليم الثالث فكانت عاصمته ميديا . وكانت هذه الأقاليم الثلاثة مقسمة بدورها الى قيادات التى كان توزيعها يتفق فى بعض الأحيان مع أسس جغرافية وفى البعض الآخر حسب توزيع القبائل (١) .

---

(١) ابقت الادارة الفرنسية على هذه الوحدات الادارية وخاصة فى المناطق التى لم ينتشر اليها الاستعمار الاوروبى . هذا وما زالت تعرف المراكز فى شمال إفريقية حتى الوقت الحاضر باسم القيادات .

وقد ازدهرت مدينة الجزائر فى العهد العثمانى وخاصة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وقدر سكانها فى ذلك الوقت بنحو ١٠٠ ألف نسمة ولكن شأنها أخذ يتضاءل منذ القرن ١٨ حتى عندما تم استيلاء الفرنسيين عليها عام ١٨٣٠ كان عدد سكانها حوالى ٣٠ ألف نسمة فقط . وقد وصفها أحد الرحالة الأسبان الذى زارها فى عام ١٥٨٠ فذكر أنه أنتشرت بها القصور المشيدة على الطراز الاندلسى والتى كان يجلب اليها الرخام من ايطاليا ، وقد عجت هذه القصور بأجمل ما أبدعه الفن الاوربى من تحف ، والتى كان يسلبها القراصنة من الفن الأوربى (١) .

أما طرابلس فقد ظلت فى حوزة الاتراك على حين لم تبق تونس فترة طويلة فى يدهم ولكنها ظلت فى أيدى الجماعات الصغيرة التى تعتبر من بقايا القراصنة الانكشارية الاناضوليين الذين فتحوا البلاد أصلا باسم الامبرطورية العثمانية . وقد أعتمدت تونس فى ذلك الوقت على التجارة والملاحة السليمة بعكس الجزائرية التى كانت تستمد موارد البلاد بصورة أساسية من حركة الجهاد فى البحر . وكانت تونس على صلات تجارية بواسطة افريقية وأستخدمت موانيها لتصدير بضائع تلك المنطقة لإوروبا . هذا وقد كانت تونس بحكم موقعها الجغرافى أكثر أتصالا بالعالم العثمانى من أى ولاية أخرى فى شمال افريقية كما كانت أشد تأثراً بالتيارات السياسية والاجتماعية التى شهدتها الولايات العربية فى المشرق خلال القرن ١٩ .

وقد كانت الدول الأوربية تنظر بعين القلق لتوحيد شمال إفريقية تحت سلطة دولة إسلامية كبيرة مثل الدولة العثمانية لذلك فقد دعى البابا لتأليف حلف

---

(١) المرجع السابق ٣٢ .

مسيحى هدفه الاحتفاظ لأوربا بمركزها الأمامية على الساحل الإفريقى .

وفى عام ١٥٧١ التقت القوى العثمانية بأساطيل هذا الحلف فى موقعة «ليبانتو» التى تعد من أهم المعارك فى تاريخ منطقة البحر المتوسط إذ دارت هذه الموقعة قرب جزيرة مالطة وتغلبت فيها قوى الحلف المسيحى وترتب على ذلك توقف النفوذ العثمانى فى الحوض الغربى للبحـــر المتوسط ، واحتفاظ الأسبان ببعض الجيوب الساحلية فى شمال إفريقية . ومع نهاية القرن ١٦ قلت حدة الصراع بين الدولة العثمانية وأسبانيا ولا سيما عقب إنحـــلال الحلف المسيحى بعد معركة ليبانتو وأنصرفت حكومة الأستانة عن الاهتمام بشئون المغرب . ذلك إلى جانب أن الأسبان أنسحبوا من الجيوب الجزائرية والتونسية وطرابلس لسببين وهمـــا :

أ — صعوبة تموين المدن الساحلية التى يتركز فيهـا الأسبان نظـراً لامتناع السكان عن التعاون معهم الأمر الذى أدى إلى نقلهم المؤن عبر البحر المتوسط .

ب — قيـام المنازعات بين السلطتين العسكرية والمدنية حـول إدارة هـذه الجيوب ومن ثم فقـد وقعت بين الأسبان والبـاب العالى معـاهدة عام ١٥٨١ بمقتضها وضع حد للنزاع بين العثمانين والأسبان فى شمال إفريقية . غير أن النزاع بين أسبانيا ونيابة الجزائر كان يتجدد باستمرار طوال القرنيين ١٧ و ١٨ وذلك بسبب إحتلال الأسبان لوهران والمرسى الكبير .

ويبدو أن الأسبان قرروا الاحتفاظ بهذين الجيبين على أمل إتخاذهما قاعدة للوثوب على بقية شمال إفريقية حينما تسمح الظروف بذلك . ولكن مثل هـذا الظروف لم تأتى فأبدى الأسبان رغبتهم لترك وهران عام ١٧٨٥ فى نظير الحصول على حصن صغير لحماية التجارة فى وهران غير أن الجزائريين رفضوا

هذا الطلب وانتهى الأمر بجلاء الأسبان عن وهران فى عام ١٧٩١ بعد حدوث زلزال دمر المدينة فى عـــام ١٧٩٠ . وقد سمح لأسبانيا بأقامة وكالة تجارية فى بلدة جـامع الغزوات (١) التى تعـرف باسم نيمور Nemours ، ويكون لهـا حق إستيراد القمح . وبانتهاء مشكلة وهران مهد السبيل لعقد معاهـــدة صلح مع أسبانيا فى عام ١٨٠٢ .

بداية النفوذ الفرنسى فى شمال أفريقية :

بدأ النفوذ الفرنسى فى شمال إفريقية فى أواسط القرن ١٦ حينما منحت الجزائر بعض الامتيازات التجـارية لفرنسا . وذلك بعـد أن أخـذ الفرنسيون يحـلون تدريجيـاً محـل تجـار جنوه الذين سبقوهم فى أستغـلال مصـايد الساحل الشمالى لإفريقية .

وقد أختار الفرنسيون موقعاً بين قالة وعنابه لإنشاء ما عرف باسم حصن فرنسا فى ميناء قالة وهو عبارة عن مركز تجارى محصن أعترفت الدول العثمانية بملكيته لفرنسا عند تجديد الامتيازات فى عام ١٩٠٤ ، هذا وعلى الرغم من المنازعات التى حدثت بين فرنسا والجزائر فى القرنيين ١٧ و ١٨ إلا أنها تمكنت من الاحتفـاظ بامتيازاتهـا التجـارية هناك وخصوصاً بعـد أدمجت مؤسساتهـا التجارية فى شركة واحدة تحت اسم الشركة الملكية الإفريقية فى عام ١٧٤١ .

أما فى تونس فكانت الدويلات الايطالية تلعب الدور الرئيسى فى علاقاتهـا منذ العصور الوسطى فكان تجار جنوة والبندقية يترددون على ساحلها ويقيمون الفنـادق ، ولذلك كان عـلى فرنسا أن تزيح مؤسسات جنوة التى تعمـل فى صيد

---

(١) ميناء مشهور لصيد الاسماك بالجزائر وتوجد به مصانع لتجفيف الاســـماك وحفظه وتعليب السردين وتصديره .

الأصداف والتى كانت تتركز فى طبرقة . و بلفعل أستطاعت فرنسا بفضل صداقتها مع الباب العالى أن تنشأ فى تونس شركة تجارية منافسة لايطاليا وفى نفس الوقت أى منذ عام ١٥٧٩ بدأ التجار الفرنسيون فى الظهور فى بنزرت . وتبعاً لذلك تعرضت فرنسا لحملات لويس الرابع عشر التى كانت موجهة أساساً ضد الجزائر ومن ثم فقد فرضت فرنسا عليها معاهدة فى عام ١٦٨٥ تتعهد فيها تونس باحترام الامتيازات الفرنسية بما فى ذلك تحديد الضريبة الجمركية على البضائع الفرنسية بحد أقصى قيمته ٣ بالمئة . وقد جددة هذه المعاهدة فى عام ١٧٢٨ وتبعت بعقد معاهدات أخرى مع معظم الدول البحرية مثل هولنده والدنمارك وأنجلترا وجميعها تأكد أمتيازات هذه الدول لصيد الأصداف وإقامة الحصون لهذا الغرض على بعض المراسى والجزر مثل طبرقة وتانكرت (١) .

مشكلة تلمسان بين الجزائر ومراكش :

تقع تلمسان فى غرب الجزائر قرب الحدود المراكشية ، وترتبط كثير من أسرها بصلات القرابة مع أهل فاس ولذلك فعندما أحتلت القوات الأسبانية المدينة عام ١٥٤٣ بعد تدهور أحوال الأسرة الزيانية إتجه أهل تلمسان إلى مراكش لكى تتدخل لحمايتهم من الأحتلال الأسبانى . ولما كانت السياسة الأسبانية تقوم أساساً على عدم التوغل فى الداخل فسرعان ماتركوا المدينة ليقوم المراكشيون بالأستيلاء عليها الأمر الذى أستاء له العثمانيون فى الجزائر وخصوصا أن هذه المدينة كانت تقع نفوذهم . وفى الواقع إن موقع هذه المدينة جعل أهلها يترددون بين القوتين الرئيسيتين فى شمال إفريقية وهما القوة

(١) المرجع السابق — من ص ٤٤ إلى ص ٥٢ .

السعدية فى مراكش والعثمانية فى الجزائر وانتهى الأمر باحتلال الحاكم العثمانى بالجزائر لتلمسان فى عام ١٥٥٠ ، وأستمرت منذ ذلك الوقت جزءاً من الولاية العثمانية ولكنها بقيت مع ذلك مثار نزاع بين دولة مراكش وحكومة الجزائر ونشأت بينهما مشكلة حدود .

الفصل السادس

شمال افريقية فى العصر الحديث

« الفرنسيون فى الجزائر - الفرنسيون فى تونس - الفرنسيون والاسبان فى مراكش ، الايطاليون فى ليبيا - أستقلال دول شمال إفريقية »

الفصل السادس

شمال افريقية فى العصر الحديث

شهدت افريقية تغيرات سياسية هامة منذ أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر ، وكان لهذه التغيرات رد فعل قوى على المظهر الحضارى فى هذه الرقعة من العالم . ففى مصر لم يكن النظام المملوكى قادراً على الصمود أمام رغبة القوى الأجنبية فى أحتلال مصر ومن ثم تمكن الفرنسيون من الاستيلاء على الدلتا فى نهاية القرن الثامن عشر غير أن رغبة بريطانيا أبعاد منافسيهم عن مصر مهدت الطريق لارتقاء محمد على عرش مصر فى عام ١٨١١ .

فى هذه الفترة تحولت مصر الى دولة مستقلة حديثة بعد أن كانت مجرد ولاية عثمانية متأخرة من ولايات القرون الوسطى ذلك بالاضافة الى أن مصر وضعت يدها على السودان ومن ثم تحولت السيادة التركية على موانى البحر الأحمر الى سكان مصر .

ولقد غزا محمد على السودان فى عام ١٨٢٠ حيث أسقط سلاطين الفوج فى سنار ، وكان غرضه الرئيسى هو تزويد الجيش المصرى بعناصر سودانية ، وأستغرقت حملات محمد على جنوب الخرطوم ثلاثين عاما غزا فيها البلاد الدنكا والشلوك والبارى وذلك بعد أن أقام فى عام ١٨٢٩ مركزاً حربيا فى غندكرو .

وفى الخمسينات أقيمت عدة بيوت تجارية أهلية فى الخرطوم ، عاصمة

السودان الجديد وتمكنت من أن تأخذ تجارة الرقيق من الحكومة كما تمكنت أيضا من السيطرة على تجارة العاج التى كانت حينئذ تجارة رائجة واسعة الانتشار وقد حاول بيكر أن يسيطر فيما بعد على هذه التجارة وذلك بدفع الحدود المصرية الى الجنوب من غندكرو أو الى أوغندة الشمالية حيث لاقى فى هذا الصدد نجاحا محدوداً. وقد أدرك غوردون الذى خلفه كحاكم للمديرية الاستوائية أن التوجيه الصحيح للجنوب هو الشمال وليس صوب الساحل الشرقى وبالرغم من ذلك فقد باءت محاولات مصر للتوغل جنوبا بالفشل ، قبل أن تضع ثورة المهدى فى عام ١٨٨١ نهاية لحكم مصر فى السودان عموما (١).

أما داخل مصر نفسها فتغير المظهر الزراعى اذ تحولت نظم الرى وملكية الأراضى والادارة والضرائب الى أنظمة جديدة ، كما أدخلت زراعة المحاصيل الصيفية ، فادخلت زراعة القطن والنيلة وقصب السكر (٢).

وقد أدى ضعف خلفاء محمد على الى فتح أبواب مصر أمام المغامرين الاوربيين الراغبين فى الثراء وذلك لكى ينهبوا أقتصاد البلاد فأستطاع البريطانيون فى خلال الخمسينات من القرن الماضى مد خط حديدى بين الاسكندرية والقاهرة ثم مد خط آخر الى السويس وذلك تسهيلا لسرعة نقل البريد الى الهند [٣].

وفى عام ١٨٦٩ فتحت قناة السويس لتصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر

---

(1) Longrigg " S.H." , The Middle East, A social geography, London, 1958, P. 73.

(٢) لدراسة الوضع الاقتصادى والتغيرات الزراعية التى انتابت مصر فى هذه الفترة إرجع إلى Issawi, C., Egypt : an Economic and Social analysis, London, 1947 and la couture (J), Egypt intransition, London, 1958 - Issawi, (C.), Egypt at mid century, London, 1954.

(3) Early Cromer, Modern Egypt. London, 1906, Vol. 2. P, 310.

ولتقدم للعالم طريقا ملاحيا جديداً أقصر من الطريق الطويل الذى كان يدور حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند . وقد كان ثمن القناة بالنسبة لمصر غالياً إذ كلفها فقدان حريتها والخضوع للنفوذ الفرنسى والبريطانى .

وقد أدت التغيرات والأحداث السياسية التى طرأت على مصر إلى سلسلة من النتائج على ساحل شمال إفريقية إذ أحتلت فرنسا الجزائر فى عام ١٨٣٠ بحجة القضاء على اعمال القرصنة التى كانت لا تزال أثارها موجودة بين عامى ١٧٩٣ و ١٨١٥ ، فى حين سارع الأتراك فى إستعادة نفوذهم على طرابلس فى عام ١٨٨٥ وأعلن الفرنسيون حمايتهم على تونس فى عام ١٨٨١ .

أما مراكش فنظراً لإهمية موقعها الجغرافى على البحر المتوسط فقد ظلت محافظة على أستقلالها حتى القرن العشرين إذ لم تجرؤ أى من بريطانيا أو فرنسا أو أسبانيا على التدخل فى الأمور المراكشية خوفاً من إثارة بقية الدول ، هذا على الرغم من أن الخلافات القبلية كانت تقسم مراكش وتمزقها منذ أيام السعديين .

الفرنسيون فى الجزائر :

هذا وقد أقتصر التدخل الأوربى المباشر فى شئون شمال إفريقية خلال القرن ١٩ على نشاط فرنسا فى الجزائر غير أنه بينما كان من السهل على الفرنسيين الأستيلاء على مدينة الجزائر وإحتلال عدد من الموانى الهامة إلا أنه لم يكن من السهل إخضاع القبائل العربية والبربرية فى الداخل . إذ ابرم الأمير عبد القادر مع الفرنسيين إتفاقية فى عام ١٨٣٧ وبمقتضاها أعترف الأمير بسلطة فرنسا على الجزائر ووهران ، فى نظير أعتراف فرنسا بسلطة الأمير على القسم الأكبر من وهران وكل إقليم تيطرى أى على مساحة توازي ثلثي المساحة الكلية للجزائر

باستثناء الصحراء إذ لم يحتفظ الفرنسيون إلا بعـــدد من المراكز الساحلية مع الأراضى المحيطة والتى تختلف كل منها عن الأخرى من حيث الإتساع ، وكانت الجزائر أكبر المناطق الساحلية حيث أنها ضمت سهل المتيجة . هذا وقد تخلت فرنسا عن بعض الحصون التى كانت قائمة فى داخل أراضى الأمير وأهمها قلعة تلمسان المشهورة .

وقد أتبع الفرنسيون سياسة صارمة فى إقتلاع القبائل من أماكنها بالقوة ووضع مستعمرين أوربيين محلهم ، غير أن ذلك لم يكن حلا معقولا للمشكلة . الاستعمارية إذ لم يكن من الميسور طرد جميع العرب والبربر نحو الصحراء وكان من الضرورى إحتلال الجبال والسهوب الداخلية ووضع خطة شاملة لتوزيع القلاع والحصون فى أنحاء البلاد .

وبفضل الامتيازات التى أعطيت للمهاجرين أخذ يفد على الجزائر عدد كبير من المدنيين الاوربيين ، ومن ثم قفز عدد المستوطنين فى الجزائر من ٢٨ ألفاً فى عام ١٨٤٠ ألفاً إلى ١٠٩ ألفا فى عام ١٨٤٨ . ومن بين هؤلاء كان ٥٠ ألفا من الفرنسيين أى أن ما يزيد على نصف المستوطنين كانوا ينتمون إلى بلدان أخرى وقد أتوا فى الغالب من الطبقات الدنيا فى بلدان البحـــر المتوسط مثل إيطاليا ومالطة وأسبانيا . وقد أحتفظ الأسبان الذين كانوا أغلبية ساحقة فى وهـــران بكيانهم ولم يندمجوا مع الجماعات الفرنسية (١) .

وقد صاحب هذه الهجرة الكبيرة الاستيلاء على مساحات كبيرة من الاراضى الزراعية وخصوصا بعد أن أصدر الفرنسيون قانونا فى عام ١٨٤٥ يخول لهم حق الاستيلاء على أراضى القبائل العاصية وأراضى « العرش » والتى تعنى فى

---

(١) صلاح العقاد ص ١٤٦ .

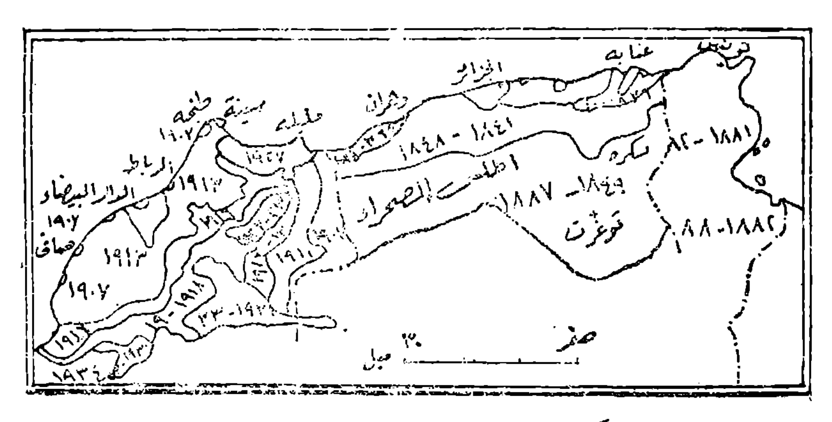
شمال إفريقية مراعى القبائل التى تستغلها فى سبيل الانتفاع . ذلك إلى جانب أستيلائهم على أراضى الدومين « أراضى الدولة » والأوقاف « أملاك الحبوس » وقد بلغ مجموع الأراضى التى صادرتها الحكومة من القبائل العاصية حوالى نصف مليون هكتار .

وقد زاد تيار الهجرة بعد عام ١٨٤٨ فارتفع عدد المهاجرين من ١٣١ ألفا فى عام ١٨٥١ إلى ٢٩٥ ألف عام ١٨٧٠ ومع هذه الزيادة أخذ التفاوت بين عدد الفرنسيين والأوربيين يتسع فى بين جملة المستوطنين فى عام ١٨٧٠ لم يزد عدد الفرنسيين عن ١٣٠ ألفاً . وقد واجهت فرنسا كثيراً من المشاكل الاقتصادية من جــــراء فتح باب الهجرة أمام المستوطنين الأوربيين وطرد الجزائريين من أراضيهم الزراعية نحو الصحراء . وقد كانت النتائج الاقتصادية للاستعمار الفرنسى فى الجزائر حتى عام ١٨٧٠ تافهة ويؤيد ذلك أن الجزائر لم تصدر إلى فرنسا سوى كميات ضئيلة من القمح والحبوب رغم أن تعريفة جمركية خاصة قد تقررت بين البلدين منذ عام ١٨٥١ لكى تسهل للمستوطنين بيع منتجاتهم والسبب ان السلطات الفرنسية بعد أن صادرت المساحات الشاسعة من الأرض وعجزت عن أستغلالها وذلك فى عام ١٨٥٤ دعت أصحابها لكى يعودوا للعمل فيها كأجراء ولكنهم كانوا يرفضون وكان ذلك عاملا لاضعاف الإنتاج ذلك بالإضافة الى أنه مع التكاليف الباهظة التى أقتضاها الأستعمار لم تستطيع منتجات الجزائر أن تنافس مثيلاتها فى فرنسا .

وقد بلغ الاستعمار الفرنسى فى الجزائر دورته فى الفترة ما بين عامى ١٨٧٠ و ١٩١٤ اذ تمكنت فرنسا من القضاء على مقاومة القبائل الجزائرية فى عام ١٨٧٩ ومن ثم أصبح من الممكن أستعمار السهول الشمالية التى تستقبل قدراً منتظما من المطر الشتوى « اقليم التل » والتى أجليت القبائل عنها وضمتها الى

حكومة فرنسا المدنية . أما عن بقية الجزائر فكان من الصعب السيطرة عليها وكان ذلك سببا فى عدم رغبة الفرنسيين فى الهجرة الى تلك المناطق (شكل ٢٤) .

على أى حال فقد سادت سياسة أدماج الجزائر فى فرنسا ولا سيما فى الفترة ما بين عامى ١٨٧١ و ١٨٩١ وكان من أهم أهداف سياسة الإندماج هو فتح أراضى الجزائر كلها للاستعمار الأوربى بعد انكماش المناطق العسكرية وجعلها قاصرة على الصحراء والواحات فحسب . ومن ثم فقد وجهت فرنسا جل أهتمامها فى هذه الفترة إلى تهجير اعداد كبيرة من الفرنسيين إلى الجزائر لكى يخلقوا نوعاً من التوازن بين أعدادهم واعداد العناصر الأوربية الأخرى فى الجزائر وقد واكبت هذه السياسة الاستيلاء على أراضى سكان الجزائر وإغراء المهاجرين بالثروة التى لا تتوفر فى أوطانهم الأوربية .



شكل ٢٤ — إخضاع الاوربيين لبلاد المغرب

على أى حال فقد بلغ معدل الهجرة السنوية من دول أوربا إلى الجزائر فى الفترة ما بين ١٨٧١ و ١٨٨١ حوالى ١٢ ألف سنويا كما بلغ عدد الفرنسيين المهاجرين حوالى نصف عدد جملة المهاجرين فى عام ١٨٨٠ والذين بلغ عددهم حوالى ٣٥٠,٠٠٠ مهاجر بينما كون الأسبان والايطاليين والمالطيين النصف

الآخر (١) . ومعنى ذلك أن الفرنسيين لم ينجحوا فى هذه الفترة من تغليب عنصرهم على العناصر الاوربية الأخرى رغم أن حكومة فرنسا وجدت فى الجزائر المهجر الطبيعى الذى تستطيع أن تعوض به سكان الالزاس واللورين عما فقدوه من أملاك فنظمت لهم مراكز زراعية ورحلت على حسابها حوالى ١٠٨٣ أسرة منهم ، ولكن لوحظ فيما بعد أن حوالى ثلث هؤلاء المهاجرين أستقروا فقط فى الجزائر فى حين عاد الباقون إلى فرنسا (٢) . هذا مع ملاحظة أنه كلما زاد المهاجرين نجاحاً فى خلق المزارع وإقامة الخزانات وإنشاء الطرق ومد السكك الحديدية إزداد بغض السكان الاصليين لهم المتركزين فى أراضى فقيرة .

وهكذا احتفظ الأوربيون من الأجناس الأخرى بأغلبية فى الجزائر إلى أن تدخلت فرنسا بواسطة التشريع فحاولت فى عام ١٨٨٩ أدماج الاوربيين فى الجنسية الفرنسية من جهة والحد من هجرة العناصر غير الفرنسية من جهة أخرى وذلك على أعتبار أن كل مولود فى الجزائر يحمل اصلا الجنسية الفرنسية مالم يطلب عند بلوغه الرشد الاحتفاظ بجنسيته الأصلية (٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن التجنس القانونى لم يفلح فى أدماج اليهود من الناحية الاجتماعية فى البيئة الفرنسية ، كذلك أحتفظ الأسبان والجماعات الايطالية بتقاليدهم الخاصة ولا سيما وأن تركز الجماعات الأخيرة فى قسنطينة جعلهم يشعرون بتضامن من أشقائهم خارج الجزائر ولذلك ظهر بينهم نزعة

---

(١) رولاند أو ليفر ص. ١٦٢ .

(٢) صلاح العقاد — ص. ١٥٩ .

(٣) نتيجة لهذا المرسوم ارتفع عدد الفرنسيين فى الجزائر من ١٨ر١٩٥ نسمة فى عام ١٨٨١ إلى ٩٣١ر٥٦٢ فى عام ١٩١١ بينما لم يرتفع عدد الأروبيين بما فيهم الطليان والاسبان من ٣٠٤ر١٨١ إلى ١٢ر١٨٩ فى عام ١٩١١ .

سياسية إنفصالية لم يوجد لها نظير لدى الاسبان فى وهران .

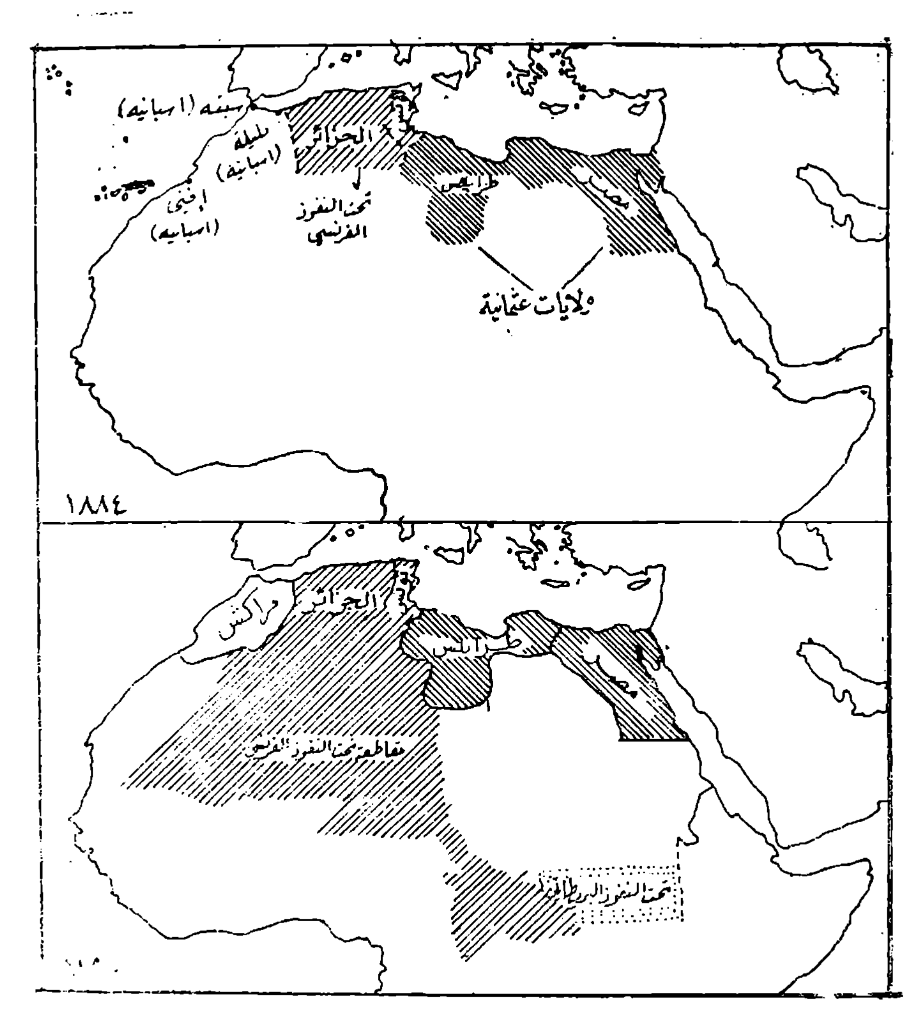
ولم يقتصر التغير الذى انتاب الجزائر فى ذلك الوقت على أعداد كبيرة من الاوربيين بل أيضاً كان هناك تغيراً جزرياً أخر حدث بالنسبة لتوزيع الأراضى الزراعية . فى عام ١٨٧١ ، كان لدى الادارة الفرنسية فى الجزائر ٢٠٠ ألف هكتار أضيف إليها ٥٠٠ ألف هكتار أخرى صودرت بعد الثورة الجزائرية فى عام ١٨٧١ ، ومع ذلك لم تكتف فرنسا بهذه المساحة بل أستولت على نحو ٤٠ بالمئة من ملكيات الجزائريين نتيجة لنظام الملكية العقارية الجديدة الذى سنته فى عام ١٨٧٣ (١) . وهكذا انتشرت المراكز الاستعمارية فى مناطق لم تشهدها من قبل مثل وادى الشلف فى وهران والهضاب وسطيف . وبلغ مجموع ما أنشىء من قرى أوروبية نحو ٢٦٤ قرية فى مدى عشر سوات (شكل ٢٥) .

هذا ولم تفلت مراعى الأطلس الجنوبية من إستغـــلال المستعمرين . أما الغابات فقد أعلنت ملكا للدولة ، وأصبحت الادارة الفرنسية تستغل منتجاتهـا وأهمها أعشاب الحلفاء لحسابها الخاص .

وقد اسفرت سياسة فرنسا عن انتشار الأستيطان الأوربى فى الجزائر حيث تركز المستوطنين فى المدن وكونوا أغلبية السكان فى مدينتى وهران والجـــزائر وذلك لوجود دوائر الحكومة هناك وهى قاصرة على الاوربيين ولقيام الغالبية منهم بالعمل فى مجال الصناعات . ذلك بالأضافة إلى أنهم تغلغلوا أيضاً فى القطاع الزراعى فقدر عدد المشتغلين به فى العقد الرابع من القرن العشرين بحوالى ٣٧٠ الفاً من بين ٩٠٠ الف وبلغ مجموع الملكيات الزراعية التى بيد المستوطنين ١/٣

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .



شكل (٢٥) شمال إفريقية فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٤ و ١٨٩٥

الأراضى الصالحة للزراعة ولكنها تزيد عن تلك النسبة من حيث الانتاج ، فقد قدر انتاج الهكتار الذى يستغله المستوطن بحوالى ٨/٠ نظيره فى يد الجزائرى (١).

---

(١) المرجع السابق ص ١٧١ .

الفرنسيون فى تونس

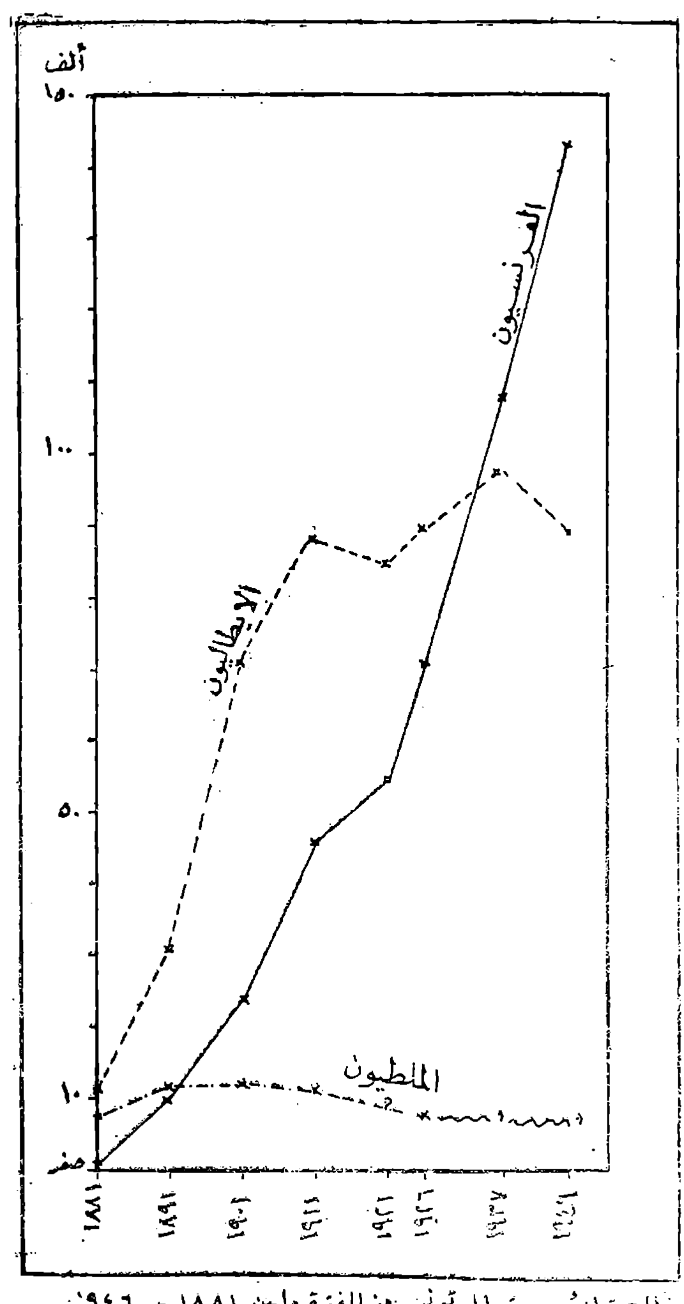
بمجرد أن أحتل الفرنسيون تونس فى عام ١٨٨١ أخذوا يفكرون فى أحسن الوسائل لهجرة العنصر الأوربى إليها واستيطانها . ورغم التسهيلات العديدة التى منحت للمستوطنين من أجل أمتلاك الأرض إلا أن عدد المهاجرين الفرنسيين كان قليلا إذ أن أغلبهم كان ينتمى إلى كبار الرأسماليين الذين يشترون مساحات واسعة من الأرض ويؤجرونها للسكان الأصليين أو الأوربيين من اجناس أخرى . ومن ثم فقد ظل الايطاليون محتفظين بالأغلبية بين طوائف المستوطنين رغم اغرائهم بالتجنس بالجنسية الفرنسية لأن الحكومة الايطالية تدخلت فى الأمر إلى أن أتاحت هزيمة أيطالية فى الحرب العالمية الثانية لفرنسا تنفيذ سياستها . هذا ويبين (شكل ٢٦) تزايد الأوربيين بمختلف جنسياتهم من الفترة مابين عامى ١٨٨١ و١٩٤٦ .

هذا ويجب ملاحظة أنه نظراً لضآلة كثافة السكان فى تونس عند فرض الحماية عليها فإن سياسة الهجرة الأوربية كانت شديدة الخطورة على تونس التى لم يزد عدد سكانها حينئذ على مليون ونصف نسمة [١] كان معظمهم يتركز فى الأقاليم الساحلية بينما كان الداخل متفرقاً من السكان . ويبدو أن استيلاء الأوربين على قسم كبير من الثروة الزراعية ومعظم الصناعة ثم الثروة المعدنية بأكملها قد حال دون تقدم التونسيين المادى .

وقد ضم الفرنسيون فى عام ١٨٩٢ الأراضى البور إلى ملكية الدولة ومن ثم وضعوا أيديهم على مساحات شاسعة فى الجنوب من صفاقس حيث استطاع

---

(1) Raymond (A.), La Tunisie - Que sais-je ? Presses Universitaires de France, 1961, P. 44.



الهجرة الأوروبية الى تونس من الفترة ما بين ١٨٨١ - ١٩٤٦

(شكل ٢٦)

الأربيون أن يشاركوا فى أنتاج الزيتون وهو من أهم موارد السكان الأصليين قبل الحماية . وقد استمرت الحماية على اتباع سياسة أغتصاب الأراضى حتى بلغ ما يمتلكه الاوربيون ما يعادل ٥/١ مساحة الأراضى المزروعة التى تقدر مساحتها حينئذ حوالى ٣٫٨٦٦٫٠٠٠ هكتار . ومع ذلك فإن نصيب الأوربى فى المنتجات الزراعية كان نحو ٣ بالمئة من مجموع الثروة الزراعية مع ملاحظة أن المنتفعين بهذه القيمة لايزيدون على خمسة الآف شخص ، بينما يعتمد معظم الشعب التونسى فى معاشه على ثروة بلاده الزراعية .

الفرنسيون والأسبان فى مراكش

أحتفظت القبائل المغربية باستقلالها حتى عام ١٩٠٢ وذلك بسبب منافسة الدول الأوربية غير أن بريطانيا وفرنسا وصلتا إلى وفاق فى عام ١٩٠٤ ، واشترت فرنسا سكوت الالمان بتنازلها عن جزء كبير من ارض الكونغو لمستعمرة الكاميرون الالمانية ومن ثم خـــلا الجو لفرنسا واسبانيا لاقتسام مراكش [١] وكانت منطقة النفوذ الاسبانية حسب اتفاقية عام ١٩٠٤ تشمل القسم الشمالى من مراكش الذى تحتل الجزء الاكبر منه سلسلة جبلية يفصلها وادى غمارة إلى كتلتين شرقية وتعرف بالريف [٢] وغربية وتعرف بالجبالة أو البقالة والمنطقة الاخيرة أوفر مطراً واخصب تربة من المنطقة الاولى .

أما من ناحية الأستغلال الاستعمارى فقد أعتبر الفرنسيون مراكش سوقاً

---

(١) حسن صبحى — التنافس الاستعمارى الاوربى فى المغرب (١٨٨٤ ـ ١٩٠٤) الاسكندرية ـ ١٩٦٥ ـ من ص. ٦١ .

(٢) يبدو أن كلمة الريف مستمدة من المعنى الشائع لها فى المغرب وهو يدل عـلى طرف الشىء أو نطاقها الخارجى . وبلاد الريف بالمعنى المحـدود الآن تمتد بمحاذاة البحر الى مسافة طولها ١٢٠ ميلا وعرضها ٢٥ ميلا .

رائجة لبضائعهم ذلك إلى جانب أن مستوطنى الجزائر أخذوا فى استغلال اقليم المولوية فى شرق مراكش ، كما وفد عدد كبير من فرنسا على سهل الشاوية اخصب مناطقها وامتلكوا منهـــا مساحات واسعة . وبدأت بعض المزارع الأوربية تنتشر حول مدينتى فأس ومكناس ولكنها لم تتوغل وراء هذه المناطق إلا بعد أن أستتب فيها الأمن .

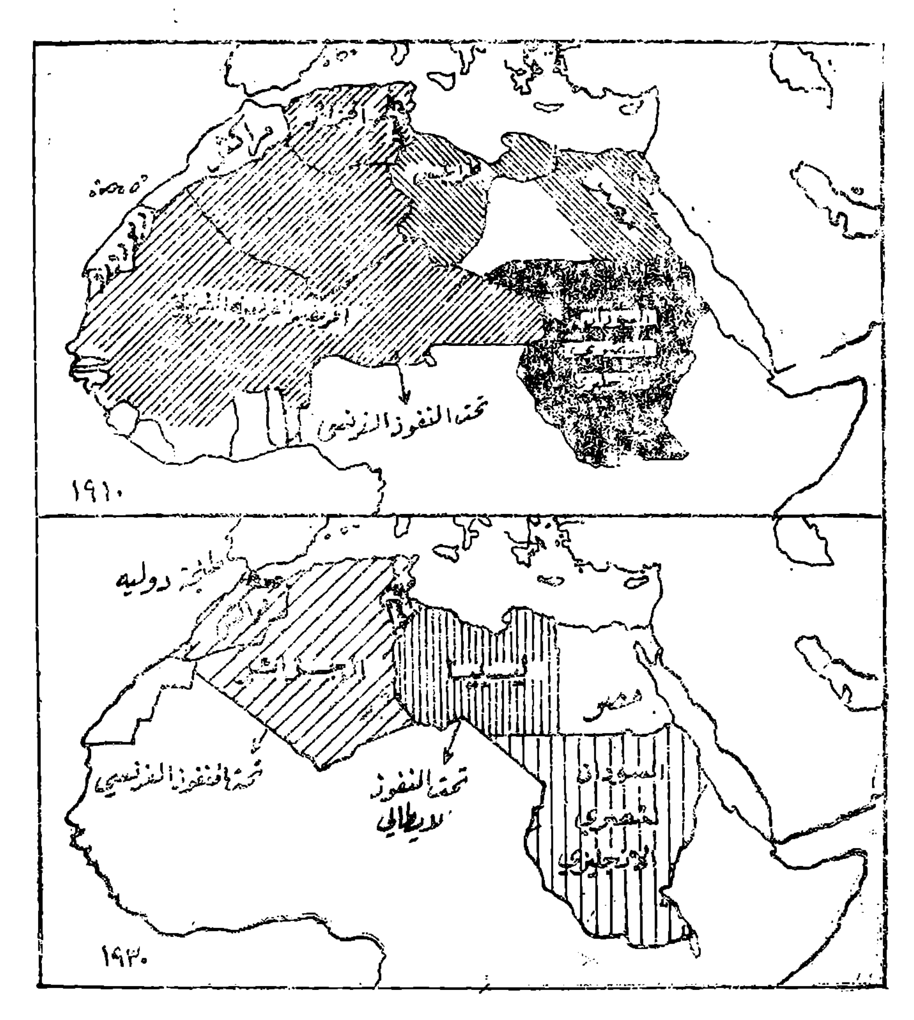
ولعل من أهم الصعاب التى واجهت الاستعمار الزراعى فى مراكش هو أن معظم الأراضى كانت ملكا مشاعاً للقبائل أو موقوفة ومن ثم فخوفاً من أثارة الرأى بانتزاع ملكية الأراضى الأخيرة أصدر الفرنسيون فى عام ١٩١٩ مرسوما بمقتضاه يجوز استغلال أراضى القبائل غير المزروعة فى مقابل ايجار اسمى .

وقد تبع ذلك فى أثناء العقد الرابع من القرن الحالى نشاط حركة الاستعمار الحر حتى بلغت الملكيات الزراعية الأوربية فى أوج اتساعها نحو مليون هكتاراً وهى مساحة كبيرة نسبياً حيث أن مجموع الاراضى الزراعية فى مراكش لا يتجاوز خمسة ملايين هكتاراً . هذا مع ملاحظة أن الزراعة فى مراكش تعتمد على تنظيم دقيق لتوزيع المياه ومن ثم فكثيراً من الاضطرابات وقعت نتيجة الادارة للملاك الفرنسيين عن توزيع المياه .

الايطاليون فى ليبيا

حتى عام ١٨٧٩ لم يكن هناك من دول شمال إفريقية من أصبح مستعمرة فرنسية سوى الجزائر ، أما بقية شمال إفريقية فلم تكن قد خضعت بعد للنفوذ الاوربى فيما عدا بعض بوادر التدخل الاوربى فى مصر وتونس والذى انتهى باحتلال الانجليز لمصر فى عام ١٨٨٢ والفرنسيين لتونس فى عام ١٨٨١ . أما ليبيا فقد اتجهت ايطاليا لغزوها واقتطاعها من الامبراطورية العثمانية المتداعية وذلك فى عام ١٩١١ بعد أن دفعها المد الاوربى فى شمال شرق إفريقية واجبرها

لفترة ما على حصر مستعمرتها فى الساحل الحــار الجاف فى أرتريا والصومال (الشكل ٢٧) .



شكل (٢٧) دول شمال إفريقية فى الفترة ما بين عامى ١٩١٠ — ١٩٣٠

وقد كانت مستعمرة ليبيا الايطالية ضمن مناطق الصراع الانجليزى الايطالى فوضعت تحت الادارة العسكرية البريطانية فى عام ١٩٤٢ وبعــد ذلك بتسع سنوات كونت اجزاءها الثلاثة طرابلس وبرقة وفزان مملكة متحدة على رأسها

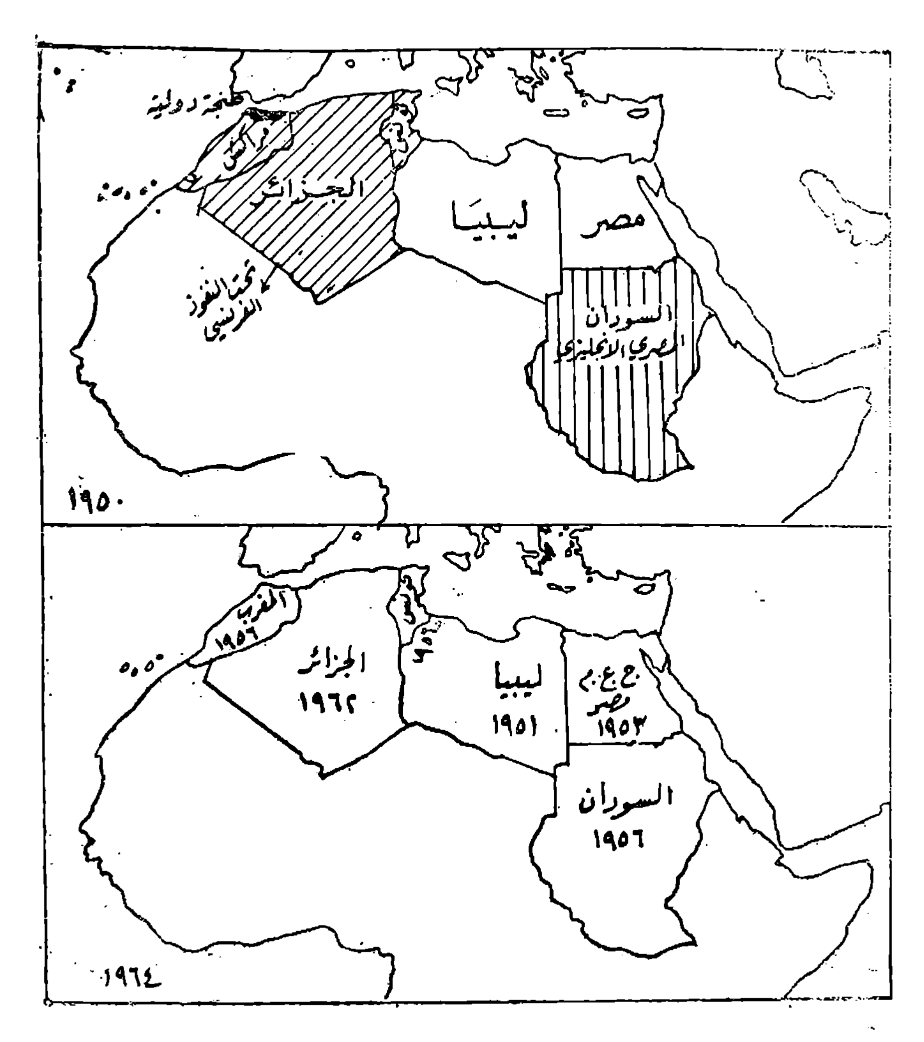
الملك أدريس السنوسى القائد الروحى لطائفة السنوسية التى لعبت دوراً هاما فى مقاومة الإحتلال الإيطالى .

استقلال دول شمال افريقية

كانت الفترة ما بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٩ هى الفترة التى قبض فيها الاوربيون على مجريات الامور فى دول شمال إفريقية إذ لم يكن هناك أى دولة فى مركز المسئولية الحقيقية . وقد تأثرت الاحداث فى شمال إفريقية فى خلال القرن العشرين بأمرين هامين أولهما نمو القومية العربية وثانيهما الصراع السياسى بين الدول الاوربية . فقد كانت جيوش الحلفاء تحارب جيوش دول المحور على طول الساحل فى شمال إفريقية فى الفترة ما بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٣ ، كما كان البريطانيون يعملون على تحطيم الامبراطورية فى شمال وشرق إفريقية . (شكل ٢٨) .

وقد كان لهذه الحروب اثراً غير مباشر فى استقلال اقطار شمال إفريقية ، فلقد انتهت الحماية البريطانية على مصر فى ١٩٢٢ حيث اصبحت منذ ذلك التاريخ مصر مستقلة اسميا إذ كانت الجيوش البريطانية لاتزال فى السويس ، ومن ثم فقد عقدت المعاهدة المصرية الانجليزية فى عام ١٩٣٦ و بمقتضاها انسحبت جيوش الاحتلال إلى نطاق ضيق على جانبى قناة السويس وأخيراً خرج البريطانيون من منطقة القنال فى عام ١٩٥٦ . أما بالنسبة لفرنسا فى المغرب الكبير ، فقد كانت الجزائر — كما سبق ذكرنا — تعتبر جزءاً من فرنسا من الناحية النظرية على الاقل إذ كانت البلاد تحكم لصالح المستوطنين الاوربيين الذين لم يعطوا أى فرصة إقتصادية للجزائريين الذين أغتصبت اراضيهم ومن ثم بدأ تيار متدفق من الهجرة الجزائرية إلى فرنسا ابتدأ من عام ١٩١٢ .

وقد كانت الجزائر وتونس مسرحا لعمليات حربية واسعة . فى خلال فتر



شكل (٢٨) دول شمال إفريقية من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤

الاحتلال الالمانى القصير لتونس اطلق سراح بورقيبة الذى قبض عليه حينما تزعم القبائل الثائرة ضد فرنسا ، ولكن فى عام ١٩٤٣ عاد الفرنسيون للسلطة مدة ومن ثم اتجهت تونس نحو مصر بعد تكوين جامعة الدول العربية . وقد بدأت حركة المقاومة الفرنسية منذ عام ١٩٥٢ وبعد عامين من حرب العصابات

وافق الفرنسيون على منح تونس الحكم الذاتى ، وفى عام ١٩٥٧ اصبحت تونس جمهورية .

أما فى الجزائر فقد اعلنت جبهة التحرير الجزائرية الحرب العلنية على الفرنسين فى عام ١٩٥٤ وكان من نتيجة ذلك أن أعترفت فرنسا فى عام ١٩٥٩ بحق الجزائريين فى تقرير المصير (١) ، ونجحت الحكومة الفرنسية فى عام ١٩٦٢ فى أعلان وقف اطلاق النار وأعلان استقلال الجزائر .

أما فى مراكش فقد كان الوضع السياسى بها مختلفا عن تونس والجزائر فعندما وصل الفرنسيون إليها فى عام ١٩١١ كان نفوذ السلطان مقصوراً على السهول إذ أن إخضاع القبائل الجبلية لم يتم إلا فى عام ١٩٣٤ . على أى حال لم تبدأ حركة الاستقلال إلا بعد أن تم انشاء دولة بالمعنى الصحيح . فى عام ١٩٥٥ قامت ثورة فى مراكش تطالب بعودة سلطانها . وقد رأى الفرنسيون عدم جدوى معارضتهم فاعيد السلطان إلى عرشه واعترف بالاستقلال التام لمراكش عام ١٩٥٦ وتمكنت مراكش بعد ذلك بقليل من استعادت مدينة طنجة والحمية الاسبانية .

(1) Ben Wattenbery & Rolph Lee Smith, The New Nations of Africa, N. y. 1963, P. 26.

الفصل السابع

التطور التاريخى واثره على التكوين الحالى لسكان شمال افريقية

« نظرة عامة — سكان مصر — العناصر النوبية — البجاة — المجموعة الشمالية — الليبيون »

الفصل السابع

التطور التاريخي وأثره على

التكوين الحالي لسكان شمال افريقية *

على الرغم من أن شمال إفريقية قد تعرض فى خلال تاريخه الطويل إلى هجرات بشرية متعددة أضافت دماء جديدة إلى سكانها ، وعلى الرغم من وقوفه أمام تيارات سياسية وثقافية كثيرة كان لها أثراً بالغا فى تخطيط الحدود السياسية القائمة الآن بين دولة المختلفة ابتداء من الجمهورية العربية المتحدة فى الشمال الشرقى إلى المغرب الأقصى أو مراكش غرباً ، وعلى الرغم من هذا وذاك إلا أن شمال إفريقية قد أحتفظ بسمات جنسية وثقافية خاصة جعلت التقارب بين دولة المختلفة فى أمور متعددة أمر حتمى وضرورى . وتعتبر سلالة البحر المتوسط من أهم السلالات التى دخلت فى التكوين الأساسى لمعظم شعوب شمال إفريقية . فمع بداية العصر الحجرى الحديث وفد من جنوب آسيا جماعة تحمل الزراعة عرفوا باسم الليبيين الذين تمكنوا من نشر حضارتهم الزراعية فى شمال إفريقية .

ومن المعروف أن العناصر القوقازية التى وفدت إلى شمال إفريقية قد قدمت من ثلاثة طرق أولها برزخ السويس الذى جاءت عن طريقه الجماعات السامية التى أمتلأت بهم شبه الجزيرة العربية فى الشمال والجنوب ومن ثم هاجروا الى افريقية بطريق السويس وباب المندب . وذلك لأن استخدام برزخ السويس كان محدوداً فى مرور الهجرات قديما بسبب كثرة المياه الضحلة والمستنقعات به وفى

الدلتا ، ولذلك لم يستخدم على نطاق واسع الا فى العصور الحديثة .

أما الطريق الثانى فيتمثل فى باب المندب الذى تدفقت منه السلالات الحامية التى هاجر بعضها جنوبا الى بلاد الصومال والجالا والبعض الآخر هاجر شمالا — بعد أن جفت المستنقعات فى سهول أرتريا الجنوبية — حيث أتجهوا الى الاقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر ، وكثير من هذه العناصر أتجهت نحو النيل نفسه .

وبالنسبة لبوغاز جبل طارق وهو المسلك الثالث للقارة الإفريقية فلم يستخدم كمدخل للقارة الا فى عصر الحديد وفى العصور التاريخية حينما أصبح طريقا للهجرات من أوربا الى افريقية ، بينما كانت وظيفته القديمة فى العصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث كمخرج لسكان شمال افريقية نحو أوروبا .

ومن هذا يبدو أن سكان شمال افريقية ينتمون أساسا الى المجموعة القوقازية غير أننا يمكن أن نميز بين مجموعتين وهما .

أ — المجموعة الشرقية من القوقازيين .

ب — المجموعة الشمالية من القوقازيين .

ويطلق على المجموعة الاولى فى بعض الأحيان اسم الارتيريون ، وهم المجموعة الشرقية من سلالة البحر المتوسط بإفريقية وتضم المصريون القدماء والبجاة فى منطقة البحر الأحمر ، ومعظم سكان الحبشة (الا مهرا والجالا والصومال والدناقل) والنوبيين أو البرابرة . وتتكلم هذه الجماعات اللغة الحامية التى تنقسم الى ثلاث مجموعات رئيسية وهى: البربرية والقشاوية فى شمال افريقية ، والمصرية القديمة والقبطية المشتقة منها . والكوشية فى شمال افريقية ، ذلك الى جانب الجماعات الحبشية . وكل هذه الجماعات تنتمى أصلا لسلالة البحر المتوسط غير أنها أختلطت قليلا بالدماء الزنجية .

أما عن تكوين سكان مصر فنلاحظ أن موقع مصر الجغرافى لعب دوراً كبيراً فى تعميرها بالسلالات البشرية إذ أن وقوعها فى الركن الشمالى الشرقى من قارة إفريقية على مقربة من برزخ السويس من ناحية ومن باب المندب من ناحية أخرى جعلها تتأثر كثيراً بالهجرات الآسيوية الوافدة إلى افريقية . ثم أن وجود نهر النيل وطرق القوافل بالصحراء ساعد على أختلاطها بالجماعات الزنجية جنوبا ولذا فالأثر الزنجى يظهر فى منطقة النوبة .

وينتمى المصريون القدماء أو المصريين الأوائل الذين عاشوا منذ عهد ما قبل الأسرات فى العصر الحجرى الحديث (٣٠٠٠ ق.م.) إلى مجموعات الحاميين الشرقيين الذين ينتمون إلى سلالات البحر المتوسط ذات القامة النحيفة المتوسطة ، والرأس الطويل ، والجبهة الضيقة ، والوجه الطويل الضيق ، والشعر الأسود أو الاسمر القاتم .

وقد تسربت دماء كثيرة مختلفة إلى مصر فى العصور التاريخية ، ففى عهد الدولة القديمة ظهـــر فى أثناء حكم الأسرة الثالثة بمصر عنصر عريض الرأس مستدير الوجه عرف فى مصر باسم السلالة الجيزاوية، وهو عنصر أرمينى أدخل تغيرات جنسية كبيرة على شكل المصريين منذ عهد بناة الأهرام حوالى ٢٥٠٠ ق.م. وقد ظل شرق الدلتا ميدأنا للهجرات الآسيوية الأخرى . ففى حوالى الألف الثالثة ق.م. وفدت من فلسطين هجرة يهودية أستقرت فى أرض جوش بالشرقية ، ولم يقتصر الامر على هذا فحسب بل تأثر المصريون فى هذه المنطقة ببعض الهجرات العربية السامية ، غير أن هذه المؤثرات لم تحدث تغيراً جوهرياً فى التكوين الجنسى للمصريين إذ أن كل الجماعات الوافدة كانت تنتمى إما لسلالة البحـــر المتوسط الطويلة الرأس أو السلالة الاناضولية العريضة الرأس ، وبعبارة أخرى لم يكن هناك ثمة خلاف بين الصفات الطبيعية للشعوب الوافدة وبين الأساس الجنسى

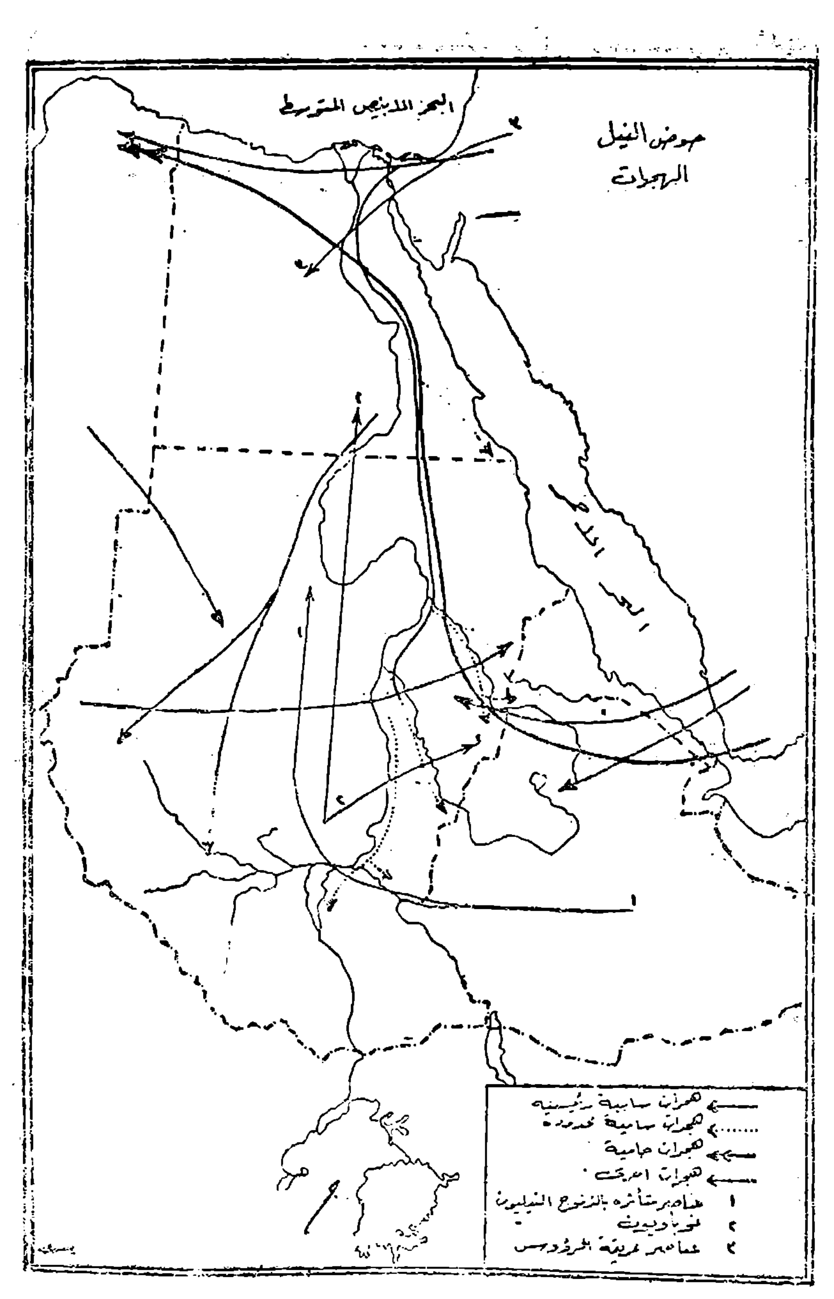
سكان مصر (شكل ٢٩) .

وفى العصر اليونانى والرومانى وفد إلى الدلتا كثير من اليونانيين واليهود الذى أستقروا فى مدينة الاسكندرية التى أسسها الاسكندر الأكبر فى عام ٣٣٢ ق.م. وفى مدن الدلتا الأخرى . وقد أنصهرت كل هذه الجماعات فى بوتقة الوطن المصرى بعد أن خلفت وراءها بعض صفات الشقرة الخفيفة بين المصريين فى لون العين وفى لون البشرة .

ومع دخول الإسلام فى القرن ٧ م. إلى افريقية قدمت إلى مصر الهجرة العربية الكبرى التى جاءت على أفواج كثيرة تشمل جماعات تنتمى الى سلالة البحر المتوسط وجماعات تأثرت بالسلالة الأرمنية العريضة الرأس . ومن أمثلة القبائل التى وفدت الى مصر قبائل قريش وحمير ولخم وجهينة وقيس ، وقبائل بنى سليم وبنى هلال التى جاءت من الشمال وشمال افريقية فى العهد الفاطمى ، وكذلك قبائل كتامة وزويلة وبعض قبائل البربر .

وقد أندمجت بعض هذه القبائل العربية فى السكان المصريين الذين أعتنقوا الدين الإسلامى وتكلموا اللغة العربية ، وهكذا أصبحت التفرقة الجنسية صعبة بين العرب والأقباط فى مصر اذ أن كليهما من سلالة البحر المتوسط والسلالة الأرمينية ، ويمكن القول أن الشكل المصرى العام كان من القوة بحيث أستوعب كل الأشكال التى دخلت الى البلاد .

ويجدر بنا أن نذكر أن المصريين قد تأثروا أيضا ببعض الدماء التركية التى تدفقت الى القاهرة وغيرها من المدن ، ذلك بالاضافة الى أن ثمة اختلاطاً طفيفاً قد حدث بين المصريين وبين العناصر المتزنجة التى تتاخم مصر فى الجنوب ، وزاد على هذه المؤثرات قوة بعض عناصر الرقيق التى أدخلت العناصر المتزنجة فى تكوين



شكل (٢٩) الهجرات إلى حوض النيل

بعض المصريين ونتج عن ذلك وجود بعض أفراد شعرهم مفلفل أو شديد التجعد وشفاههم مكتنزة .

وبصفة عامة يمتاز المصرى بالقامة المتوسطة (حوالى ١٦٦ سم) والأنف المتوسط والرأس الطويل (النسبة الرأسية ٧٤٫٥) والبشرة السمراء التى تزداد كلما أتجهنا جنوباً حتى تصل الى اللون البنى القاتم فى أقصى الصعيد وفى اعالى النيل . أما الشعر فهو فى العادة شديد التموج وبدرجات متفاوته ، ولونه فى الغالب أسود أو قاتم .

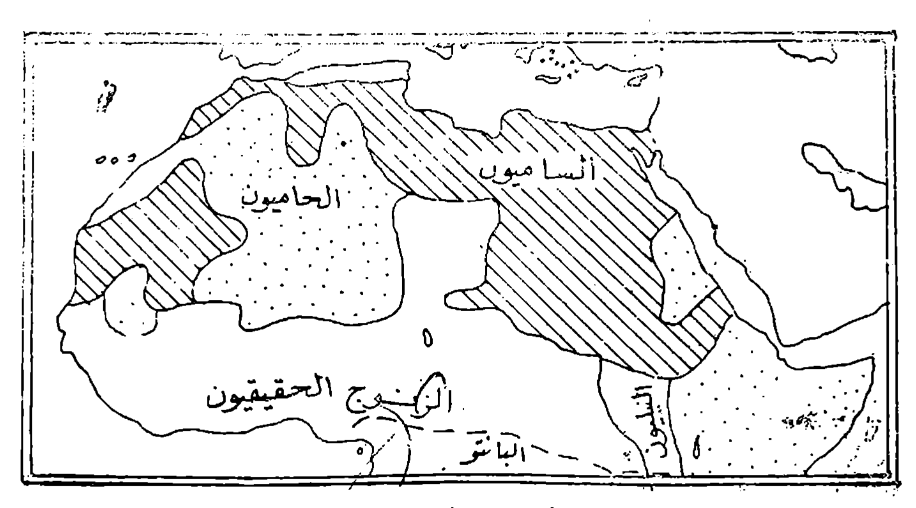
أما عن العناصر النوبية التى تعيش فى جنوب مصر وشمال السودان فتمتاز بأن لون بشرتهم أكثرة سمرة من المصريين ، كما أن وجوههم أطول وأضيق ، وهم نتيجة أختلاط بين المصريين القدماء والبجاة والجماعات الزنجية وبعض الجماعات الليبية القديمة . ولذلك نجد تقاطيعهم حامية رغم تأثرهم بدماء زنجية فى عهد الدولة القديمة والوسطى وفى أيام البطالمة . وقد أستمر الأثر الزنجى واضحاً حتى الوقت الحاضر بين الأفراد النوبيين ، مع ملاحظة أن منطقة النوبة السفلى « النوبة المصرية » منطقة غير مأهولة الآن وذلك بعد نقل سكانها الى كوم امبو نظراً لاغراق أراضيهم بمياه السد العالى .

ويشبه البجاة النوبيين فى أنهم يعتبرون من أقدم الجماعات القوقازية الموجودة فى افريقية ، وهم بحكم بيئاتهم البعيدة عن طرق المهاجـــرة أنقى جنسيا من النوبيين اذ لم يتعرضوا كما تعرض النوبيون للاختلاط بعناصر غريبة عنهم . وقد لاحظ أكثر من كاتب أن هناك شبهاً قوياً فى الصفات الجنسية بين البجاة وبين المصريين القدماء مما يدل على قدم عنصر البجاة ، وعلى أنهم أستوطنوا البلاد التي يسكنوها اليوم منذ آلاف السنين . وموطن البجاة يتألف فى الوقت

الحاضر من الأراضى التى تقع بين البحر الأحمر شرقاً ونهر عطبرة ثم النيل غرباً .
وتشابه البجاويين فى صفاتهم الجنسية لا يدع مجالا للظن بأن هناك عناصر أخرى قد دخلت فى تكوينهم الجنسى اللهم إلا القليل جداً الذى جاء عن طريق بعض القوافل التجارية فى الأطراف الشمالية أو عن طريق الاتصال بالحبشه فى الاطراف الجنوبية . وقد تمكن البجاوى عن طريق الأبل من عبور مسافات كبيرة فى الصحراء الشرقية ، وتمكن من الاتصال بوادى النيل وسكانه حيث تعلم منهم الزراعة وأستئناس الحيوان .

وعلى الرغم من أن البجاة ظلوا محتفظين بطابعهم فى العهد العربى إلا أن كثيراً من التجار العرب تزوجوا بنساء من البجاة ، وأقاموا بينهم حتى أندمجوا فيهم ، ولم يكن من بد أن يتأثر البجاة بالإسلام والثقافة العربية تأثراً شديداً ، ومن ثم أعتنقوا جميعاً الدين الإسلامى ، وأصبح أكثرهم يعرف العربية معرفة تامة .

وأما فيما يختص بتكوين المجموعة الشمالية فنلاحظ أنهـا تشمل الجماعات التى



شكل ٣٠ — المجموعتان الحامية والسامية فى شمال إفريقية

تتكلم الحامية فى برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب — وتعرف اللغة الحامية فى هذه المناطق باسم لغة البربر « Libyco - Berber » ، كما يتحدث بهذه اللغة أيضا جماعات الطوارق والتيبو فى الصحراء الكبرى ، وجماعات الجوانش Guanches فى جزر كناريا (شكل ٣٠) .

ويعد البربر من أقدم السلالات المعمرة فى شمال إفريقية إذ كثيراً ما تظهر بينهم صفات إنسان أفالو Afalou القديم الذى يرجع إلى العصر الحجرى القديم الأعلى ، هذا من جهة كما تظهر بينهم أيضاً صفات طراز البحر الأبيض المتوسط الأطلسى الذى ترجع حضارته إلى العصر الحجرى الحديث . فالقاعدة الجنسية لشمال إفريقية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجماعات العصر الحجرى القديم الأعلى الذين يعتقد بأنهم حاميون وفدوا عن طريق الباب الشرقى لإفريقية .

وفى العصر الحجرى الحديث خرج من الحوض الشرقى للبحر المتوسط فى فترة متأخرة — كما يرى كون — جماعات تتحدث لغة البربر التى لا يزال يتحدث بها فى الوقت الحاضر كثير من سكان شمال إفريقية . هذه الجماعات كانت تمثل فرعاً من سلالة البحر المتوسط الذى حمل معه معرفة الزراعة وأستئناس الحيوان .

ويطلق المؤرخون على سكان شمال إفريقية غرب مصر اسم الليبيين وأحسن الأمثلة جماعات البربر التى تقطن التلال فى الجـــزائر ، وقبائل الشاوية فى مرتفعات أوراس . وتصور نقوش المملكة المصرية القديمة (أى حوالى ٢٥٠٠ ق.م.) الليبيين باللون الأصفر ، وتبينهم شقر الشعر ، زرق العيون ، ذوى لحية شقراء . وقد أستمر هذا التقليد خاصاً يصور الليبيين فى العصور المتأخرة بعد ذلك ، فظهرت على جدران معابد طيبة التى ترجع إلى ١٣٠٠ ق م. كما أشار اليها اليونانيون فى القرن الرابع ق م. ومن المهم أن نلاحظ وجود صفات الشقرة

حتى الوقت الحاضر بين البربر الحديثين .

وقد كانت هذه الجماعات الليبية القديمة تنتشر فى مساحات واسعة ، وكثيراً ماكانت حدودهم تصل إلى مصر إذ أن التاريخ القديم يحدثنا عن جماعات التحنو أو الليبو Lebu الذين كانوا يغيرون على غرب الدلتا من آن إلى آخر ولا يبدو لهذه الجماعات أثر فى ليبيا فى الوقت الحاضر غير أن لهم بقايا منعزلة فى شمال غرب إفريقية .

وأما عن أصل الليبيين فمن الناحية اللغوية ينتمون إلى الحاميين ، كما أنهم من الناحية السلالية يشبهون جيرانهم المصريين وغيرهم من الشعوب التابعة للفرع الشرقى من الحاميين ولهذا فليس من المعقول أن نفترض نشأة خاصة لليبيين ونذهب للقول بأنهم أكتسبوا اللغة الحامية عن طريق الغزو فى عصور قديمة إذ تدل الشواهد على أن المصريين لم يظهروا فى أى وقت من الأوقات فى إفريقية الكبرى أو فى موطن الشعب الليبي حيث أن سيطرتهم على الليبيين كانت محدودة وقاصرة فقط على بعض القبائل الشرقية ، وحتى فى هذا المجال كان تأثيرهم ضعيفاً واهيــــا .

وترتبط مشكلة أصل الليبيين بوجود صفة الشقرة فى تونس والجزائر ومراكش ومصاحبة الحضارة الميجاليثية للبربر فى شمال إفريقية . فمن حيث صفات الشقرة فليس من المعقول أن تكون نشأتها إفريقية بل الاقرب الى الصحة المناطق الشمالية ، كما أن الآثار الميجاليثية المتناثرة على ساحل شمال إفريقية غرب مصر هى نفس الآثار الموجودة فى آسبانيا والبرتغال وغرب فرنسا وبريطانيا والدانمارك ، بل أيضا فى بعض جزر البحر المتوسط ، مثل هذا التشابه يدعونا للبحث عن نشأتهم فى أوروبا أكثر من إفريقية وعلى أى حال فالشواهد السابقة جعلت أوروبا

تقاسم إفريقيه فى مجال البحث عن أصل الليبيين .

ورغم أن معظم الباحثون يرجعون صفات الشقرة فى شمال إفريقية إلى غزوات الوندال فى عصور قديمة إلا أن هناك من يرجع هذه الصفات إلى عامل أو أكثر من العوامل الآتية :—

أ — وفود عناصر شقراء إلى ليبيا عن طريق الشرق بعد أن طرد الهكسوس من مصر .

ب — جاءت عن طريق جنود المرتزقة الذين أحضرهم الرومان فى الغالب إلى افريقية .

جـ — ربما جاءت من أوروبا عن طريق جبال طارق .

د — وجود سلالة تتصف بصفات الشقرة فى شمال افريقية أرسلت حملة منها صوب مصر وأخرى صوب الشمال الغربى حيث ظهرت صفات الشقرة فى هذه الجهات .

فالتاريخ الجنسى لشمال افريقية يشير الى وجود غزوات متتالية من الرعاة المتحدثين باللغة الحامية الوافدين من غرب آسيا الى المناطق التى شغلها زراع العصر الحجرى الحديث . فقد ذكر هيرودوت أن أحفاد الفارسيين أدخلوا الحصان والسيف الى شمال افريقية ، كما أن زراعة المدرجات المعتمدة على الرى قد جاءت الى هذه المناطق عن طريق اليمن .

ويبدو أن من أولى الموجات البشرية التاريخية التى وفدت الى هذه المنطقة موجات الفنيقيين الذين قدموا من سواحل شرق البحر المتوسط عن طريق البحر واستولوا على تونس ، وأسسوا قرطاجة فى النصف الثانى من القرن ٩ ق.م. ،

ثم أنتشروا على طول الساحل الشمالى لبلاد المغرب . وقد أمتاز هؤلاء الفينيقيون بالراس الطويل أو المتوسط، والجبهة العريضة ، والأنف الضيق والبشرة السمراء والقامة الطويلة .

وعقب ذلك وفد اليهود الى بلاد المغرب فى عدد من الهجرات حدثت ابتداء من القرن ٣ ق.م. وأستمرت حتى القرن ١٦ م. وقد سكنت العناصر اليهودية القديمة التى تسمى أنفسها بالشيتم الاجــزاء الداخلية . بينما العناصر اليهودية الحديثة التى طردت من أسبانيا عقب خروج العرب منها سكنت المدن والجهات الساحلية . أما عن الرومان فيحدثنا التاريخ عن المنافسة الكبيرة بين قرطاجة وروما فى أسبانيا وفى غرب البحر المتوسط عموما وعن تحطيم الرومان لقرطاجة عام ١٤٠ ق.م. ، وتحول شمال افريقة إلى مستعمرة رومانية ، وكيف أدخلت قبائل زناته – التى وفدت الى شمال افريقية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع الميلادى — الجمل الذى ساعد الطوارق على الأستقرار فى الصحراء . وبعد ذلك جاءت الموجة العربية الكبرى التى حملت الاسلام الى شمال افريقية فى القرن السابع الميلادى ، حيث توقف النفوذ الأوربى « اليونانى والرومانى » الذى لم يعاود الظهور الا بعد أن غزا الفرنسيون الجزائر .

وقد كانت هناك موجتان من موجات الهجرة العربية الرئيسية الى شمال افريقية ، الأولى حدثت بعد وفاة الرسول مباشرة أو فى أوائل انتشار الإسلام ووفدت من شبه الجزيرة العربية ، والثانية وقد كانت أوسع انتشاراً وأكثر أهمية من الأولى وذلك بسبب ضخامة اعدادها وقد حدثت فى خلال القرن الحادى عشر الميلادى على أيدى قبائل بدوية من الصحراء السورية .

وكان من نتيجة هذه الموجة أن أندفعت كثير من جماعات البربر صوب

الصحراء حيث أستقروا فى مناطق غير ملائمة للمعيشة أو فى مناطق الزنوج التى أخضعوها . وتبع ذلك أن بعض جماعات البربر أختلطت بالجماعات الزنجية فتغيرت صفاتها الجنسية ولا سيما فى إقليم الفولتا ، بينما تمكن البعض الآخر من أن يحافظ إلى حد ما على نقاوة سلالته .

وقد أستعربت جماعات من البربر بسهولة وأعتنقوا الدين الإسلامى وأشتركوا فى فتوحاته . وكان من أهم القبائل العربية الوافدة الى شمال افريقية بنى هلال وجهينه ، وقد وفدت الأولى خلال القرن العاشر الميلادى بينما قدمت الثانية فى القرن ١٢ الميلادى ، كما وفدت أيضاً الجماعات العربية العائدة من الأندلس فى القرن ١٥ م. وقد أندمجت كل الهجرات السابقة فى السكان الاصليين وأختلطت بعض القبائل العربية ببعض الدماء الزنجية ، وكان أختلاطهم أكثر وضوحاً من أختلاط البربر بالزنوج .

وعلى أى حال فمن الصعب أن نضع حداً حضارياً أو جنسياً واضح المعالم بين الجماعات التى تتكلم العربية والجماعات التى تتكلم البربرية ، وذلك لأن الحاميين والساميين ينتمون إلى سلالة واحدة وهى سلالة البحر المتوسط . ولذا فيذكر عدد كبير من البربر الذين أستعربوا أنهم من أصل عربى شأنهم فى ذلك شأن سكان البلاد الأخرى التى أعتنقت الإسلام .

وجماعات البربر التى تعيش فى المناطق الجبليه فى تونس والجزائر تشتغل بزراعة المدرجات ، بينما الجماعات التى تتكلم اللغة العربية فى المناطق السهلية والهضبة تحترف الرعى . ويشمل بربر الجبال قبائل الشاويا الذين يعيشون فى جبال أوراس والقبائل Kabyles فى المناطق الساحلية فى شرق الجزائر ، والشلوح والريفيون والبربر وجميعهم من أهل الجبال الذين أعتصموا بجبال أطلس . أما قبائل صنهاجة

فهى إحدى قبائل البربر التى فقدت لغتها البربرية وتعيش فى شمال مراكش ، وهم يشبهون بربر أطلس الوسطى ويشتغل بعضهم بالرعى والبعض الآخر بالزراعة ، كما أنهم يمتازون بالقامة الطويلة جداً ، والوجه الطويل والأنف المقعر .

ورغم أن الشقرة نادرة بين البربر إلا أنهم تبعاً للصفات الهيكلية — يشبهون تماما النورديين . فالشقرة لاتظهر بصورة واضحة إلا بين قبائل الريفيون فى مراكش ، ولون البشرة فى الغالب أبيض مشرب بحمرة ، والنمش نادر الوجود ولون العين بنى فاتح أو أخضر ، والشعر مموج أو مجعد ، وفى بعض الأحيان لونه أسود وإن كان بصفة عامة يميل لونه إل البنى أو البنى المحمر ، وشعر اللحية أقل كثافة من شعر الرأس ولونه أحمر .

ومن ناحية طول القامة فيمكن أن نميز فى شمال إفريقية ثلاثة طرز وهى : —

أ طراز طويل القامة ويمتاز بالرأس الطويل مع تناسق فى الوجه والأنف والملامح . ويشبه هذا الطراز السلالة النوردية بأوروبا ويسود فى وسط تونس وتمتد منطقة انتشاره غرباً حتى الجزائر .

ب طراز قصير القامة عريض الرأس والوجه ، قصير الأنف نسبيا « النسبة الأنفية ما بين ٧٠ — ٧٢ » . ويتمثل هذا الطراز فى جماعات بنى مزاب ، وجماعات القبائل بالجزائر ، وسكان جزيرة جربا والساحل المقابل لها .

جـ — طراز متوسط القامة ويمتاز بالرأس الطويل والنسبة الأنفية المتوسطة، والشفاه الممتلئة ، والبشرة السمراء . وبعض جماعات هذا الطراز تعيش نقية نسبيا فى الجهات الجبلية فى شمال تونس ، أو فى مقاطعة قسطنطينة فى شرق الجزائر وحول مدينة الجزائر . ويرجع سلجمان

أغلبية سكان شمال إفريقية إلى هذا النوع فى حين يرى كون Coon أنه من التعسف تقسيم المغاربة الشرقيين أو البربر على اساس جنسى واقترح تقسيمهم إلى اربعة اقسام على اساس بيئى ولغوى .

القسم الأول ويشمل الرعاة المتنقلين الذين يعتمدون فى حياتهم على الهجرة الفصلية وتشمل القبائل التى تتكلم اللغة العربية وتقطن السهول والهضاب .

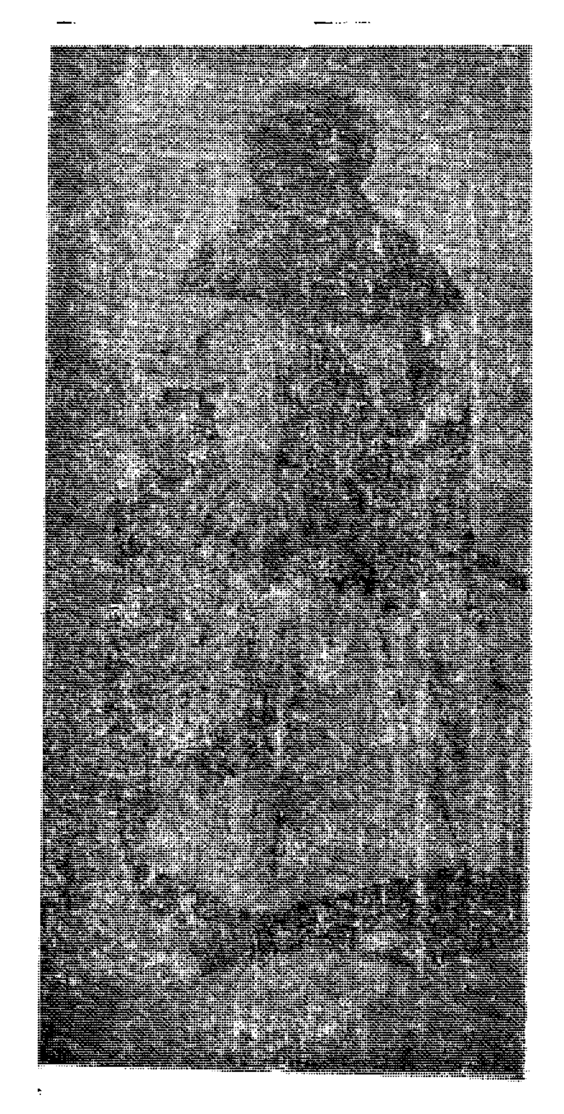
القسم الثانى يضم سكان واحات الصحراء الكبرى (غرداية — بسكره وتوات ووغات وفيجيج) والمزاب الذين يتكلمون البربرية .

والقسم الثالث ويشمل بربر الجبال زراع المدرجات وهم قبائل الشاويا والقبائل .

اما القسم الرابع فيضم سكان المدن وهم خليط من عدة اصول تختلف من مدينة لأخرى منهم مسيحيون ويهود وزنوج وبقايا رقيق واتراك نتيجة للحكم العثمانى السابق .

واهم قبائل المغاربة الشرقيين جماعات القبائل والشاويا وبنى مزاب . ويطلق كلمة القبائل kabyles على الجماعات المغربية التى تسكن الجبال الساحلية ، وهم يشبهون الشاويا إلا أنهم أقصر قامة (١٥٦ سم) والنسبة الراسية مابين ٧٦ ، ٨١ . ورغم وجود حالات شقرة بينهم إلا ان السمرة هى السائدة للون البشرة والشعر والعيون .

ويسكن الشاويا جبال اوراس ويشبهون العناصر النوردية إلى حد كبير فى القامة وشكل الراس والوجه ولون البشرة إلا انهم يختلفون عنهم فى سواد الشعر والعيون ، ويسكن بنو مزاب واحة غرداية وهم اميل للقصر (١٦٣ سم) والبشرة سوداء رغم أن بعض العناصر الشقراء تظهر بينهم .



(شكل ٣١) الطوارق

وأما مغاربة الغرب فنلاحظ أن المستعمرين من البربر يقطنون المناطق المنخفضة والسهول بينما الهضاب المرتفعة وسفوح السلاسل الجبليـــة التى تغطى مساحة كبيرة من مراكش يحتلها المتكلمون بالبربرية . وقـد قسم بعض الكتـاب مغـاربة الغرب إلى أربع مجموعات وهى : —

١ — جماعات الريفيين وصنهاجة والغـــومارا والجبليون ، وجميعهم يسكنون الشريط الساحلى المطل على البحر المتوسط والجبال الواقعـــة إلى الجنوب من تطوان .

٢ — الشلوح على طول وادى سوس وفى جنوب غرب مراكش .

٣ — البربر ويقطنون السفوح الشمالية والوسطى لسلاسل أطلس العظمى .

٤ — الجماعات التى تسكن فى أقصى جنوب مراكش ويطلق عليها « الحراثيون » أو « الدراعيون » .

هذا ويلاحظ أن نسبة الأختلاط بالزنوج تزداد بين الجماعات الأخيرة حتى أن من يراهم يعتقد أنهم زنوج رغم أن لغتهم حامية ، كما أن جماعات الريفيون هم أكثر جماعات المغاربة الغربيين شبها بالنوردين ، وربما كان ذلك راجعا لقرب هذه المنطقة من أوروبا .

أما من سكان الصحراء الكبرى فأهم قبائلهم الطوارق (١) أو الملثمون (شكل ٣١) الذين يتجولون فى مساحات كبيرة من الصحراء ويمكن أن نعتبرهم برير . وقد أستطاعت الطبقة الارستقراطية بينهم أن تحتفظ بشخصيتها ونقائها الجنسى رغم مجاورتها للجماعات الزنجية فى الجنوب . هذا وينتمى أيضاً إلى هذه المجموعة التيبو سكان مرتفعات تبستى وقد أختلطوا بالعناصر الزنجية فى السودان الاوسط ، بينما الشماليون منهم يشبهون إلى حد كبير البربر رغم أن قوامهم أغلظ .

(1) Briggs, L. G., Tribes of the Sahara, Cambridge, 1960, P. 124.

الفهرس والمراجع

فهرس الخرائط واللوحات

فهـرس الموضوعات

رقم الصفحة

الفصل السابع :

المراجـــع العربية

١ - دنيان نوان - التوزيع الجغرافى لسكان المغرب - مجلة المجمع العلمى - المركز الجامعى للبحث العلمى بالرباط - السنة الأولى - العدد الثانى ١٩٦٤ .

٢ - هرست - موجز حوض النيل - القاهرة ١٩٤٨ .

٣ - حسن صبحى - التنافس الاستعمارى الاوربى فى المغرب (١٨٨٤ - ١٩٠٤) - الاسكندرية - دار المعارف - ١٩٦٥ .

٤ - يسرى الجوهرى - السلالات البشرية - الطبعة الثانية - ١٩٦٧ .

٥ - يسرى الجوهرى - الكشوف الجغرافية - الطبعة الثانية - ١٩٦٧ .

٦ - يسرى الجوهرى - اضواء على العصر الحجرى الحـديث - ثلاثة فصول مترجمة من كتاب ما قبل التاريخ وبداية المدنية - تأليف ج . هاوكس - بيروت - ١٩٦٨ .

٧ - يوسف ابو حجاج - السد العـالى والتنمية الاقتصادية - المكتبة الثقافية عدد ١١٣ - القاهرة - ١٩٦٤ .

٨ - محمـد السيد غلاب وصبحى عبد الحكيم - السكان ديموغرافيـا وجغرافيا - القاهرة - ١٩٦٣ .

٩ - محمد محمود الصياد ومحمد سعودى - السودان - القاهرة - ١٩٦٦ .

١٠ - محمد عبد الغنى سعودى - الوطن العربى دراسة لملامحـة الجغرافية - بيروت - ١٩٦٧ .

١١ - عباس عمار - وحدة وادى النيل ، أسسها الطبيعية والاثنوجرافية والثقافية والاقتصادية - نشرت فى وحدة وادى النيل أسسها الجغرافية وأثرها فى التاريخ - القاهرة - ١٩٤٩ .

١٢ - عبد العزيز طريح - جغرافية ليبيا - الاسكندرية - ١٩٦٢ .

١٣ - صلاح العقاد - المغرب العربى - القاهرة - ١٩٦٦ .

١٤ - رولاند أوليفر وجون فيج - موجز إفريقية - ترجمة دولت صادق - سلسلة دراسات إفريقية - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة - ١٩٦ .

١٥ - رشيد الناضورى - تاريخ المغرب الكبير ، العصور القديمة ، الدار القومية للطباعة والنشر - الاسكندرية - ١٩٦٦ .

المصادر الاجنبية

1 — Alimen, H., The Prehistory of Africa, London, 1951.

2 — Ashford, D.E., Political change in Morocco, New Jersey, 1961.

3 - Ayrout, H.B., The Egyptian Peasant, Boston, 1963.

4 — Baer, G., A history of Landownership in Modern Egypt (1800 - 1950), London, 1962.

5 — Ball, J., Problems of the Libyan desert, Geographical Journal, Jan., 1927.

6 — Ball, J., Contribution to the geography of Egypt. Cairo 1939.

7 — Barbour, N., A survey of North West Africa, London, 1962.

8 — Barbour, K. M., The Republic of the Sudan, London, 1961.

9 — Ben Wattenberg & Rolph Lee Smith, The New Nations of Africa, N.Y., 1963.

10 — Birot P. & Dresch J. La Méditerranée et La Moyen-Orient, Paris 1953.

11 — Castany, G., Quaternaire, Rome, 1954. Vol. 11.

12 — Childe, G., Social evolutfon, London, 1951.

13 — Childe, G, What happened in history, Middlesex. 1943.

14 — Childe, G., Urban revolution, Town planning Review, 1950.

15 = Church H., Africa and the island, London, 1964.

16 — Clarke. J., The Maghreb. The Rural landscape, in the Western Mediterranean World, Edit. by Housten T.M.. London, 1964.

17 — Club, J.B., The Great Arab Conquests, London. 1963.

18 — Cole, S. Races of Man, London, 1963.

19 — Cressey, G.B., Crossroads. Chicago, 1960.

20 — Cromer, Early, Modern Egypt, London, 1905.

21 — East, G., An historical geography of Europe, London, 1956.

22 — Depois. T., L'Afrique du Nord, Paris, 1964.

23 — El-Gowhary, Y., Urban Studies In the Nile Delta from the beginning of the 19th century onward. A study in Historical geogrephy, unpublished Ph. D. Thesis, Reading, 1964.

24 — El-Gowhary, Y., The Ancient Capitals of Egypt 4241 B.C. – 332 B.C. Bulletin of the Faculty of Acte. Alexandria University, Vol. XIX, 1965.

25 — Fitzeraid, W. Africa, A social, economic and Political geography. of its major regions., London, 1961.

26 — Gautier, E.F., Le Sahara, Collection Payat, Paris, 1959.

27 — Gendaarme, R., L'économie de l'Algcria, Paris 1959.

28 — Gordon, D C , The passing of the French Algeria London, 1966.

29 — Hamdan, G., Medieval urbanism in the Arab World, Geography, 1962, Vol. XXVII.

30 — Hance, W A , The geography of Modern Africa, London, 1965.

31 — Harden. R , The Phoenicians, London, 1963.

32 — Hawkes J. & Woolley L., Prehistory and the beginnings of eivilization, London, 1964.

33 — Housten, J.M., Maghreb, its landforms and ecological features. In the Western Mediterrenean World, London, 1964.

34 — Hurst, H.E., The Nile, London, 1957.

35 — Huzayyin S.A., Changes in Climate, Vegetation and human adjustment in the Sahara — Arabian belt with a special reference to Africa, In Man's Role in changing the face of the earth edit. by Thomas, Chicago, 1956.

36 — Huzayyin (S. A.), Recent Physiographic Stage in the Lower Nile Valley, In Proceedings of Pan-African Congress on prehistory, Oxford, 1947.

37 — Huzayyin, (S. A.), The Place of Egypt in Prehistory, Cairo, 1941.

38 — Issawi, C., Egypt : An economic and social analysis, London, 1947.

39 — Issawi, C., Egypt at Mid Century, London, 1954.

40 — Issawi, C., Egypt in Revolution, an economic analysis, London, 1965.

41 — Kermack, W.R., Some geographical notes on Ancient Egypt, Scotish Geographical Magazin, 1917, Vol. 13.

42 — Kubbah, A., Libya its oil industry and economic system, Iraq, 1958.

43 — La Couture (J.), Egypt in transition, London, 1958.

44 — Longrigg (S.H.), The Middle East, A Social geography, London, 1958.

45 — Jomard, E. F., Memoire sur la population de l'Egypte, Ancienne et Moderne, description de l'Egypte, Paris,1829.

46 — Mahoffy, J P., A history of Egypt, London, 1898, Vol. IV.

47 — McBurney, C. B.M., The stone age of Northern Africa, A Pelican book, 1960.

48 — Miller, E. w. A Geography of Manufacturing, London, 1962.

49 — Milne, J G., History of Egypt under a Roman Rule, London, 1898, Vol. IV.

50 — Mountjoy A.B. A note on the 1947 population of Egypt Geography, 1949, Vol. XXIV.

51 — Murdock, G. P., Africa its people and their culture history, London. 1959.

52 — Nuting, A., The Arabs. London. 1964.

53 — Oakly, K., on Man's of fire with comments on tool-making and hunters, In social life of early Man, Edit. by S. Washburn, N.Y., 1962.

54 — Oakly, K., The earliest tool-makers, Antiquity, Vol. XXX, 1956.

55 — Oliver (R.), Ashort history of Africa, Penguin African library, 1962.

56 — Parker, G., The geography of economics: A World Survey, Longmans, London, 1965.

57 — Pearson, S.V., The growth and the distributon of population, London, 1965.

58 — Pounds & Kingsbury, An Atlas of Middle astern Affairs, Methuem, 1964.

59 — Raymond, A., La Tunisie — que sais-je ?, Presses Universitaires de France, 1961.

60 — Ruhlman, A., Prehistoric Morocco, In Proceedings of the Pan-African congress on prehistory, Oxford, 1647.

61 — Thompson, Caton, Kharga oasis in Prehistory. 1952.

62 — Thompson, Caton, The Levalloisian industries of Egypt, Proc. Prehistory, Soc, 1946, Vol. 12.

63 - Thompson (C.) & Gardner (E.W.), The desert Fayum London, 1934.

64 - Sauer, O., Agricultural origins and dispersals, N.Y., 1952.

65 — Sergi [G.], The Mediterranean Race, Turin, 1908.

66 - Skrobucha, H., Sinai, N.Y., 1966.

67 — Smailes, A.E., The geography of towns, London 1933.

68 — Sollas, W.J., Ancient hunters, London, 1924.

69 — Stamp, L. D., Africa : A study in tropical development, London, 1964.

70 — Stevens, G. G., Egypt : Yesterday and today, contemporary civilization series, N.Y., 1963.

71 - Stevens, C., The economy of Morocco, Harvard, 1964.

72 - Sutton, L.J., The climate of Helwan, Cairo, 1926.

73 - Zartman, I. W, Government and Politics in Northern Africa, London, 1964

74 Zeuner, F E, The Pleistocene period, London, 1959

75 Villard, H. S., Libya — The New Kingdom of North Africa, N Y., 1956.

76 - Walker, D.S., The Mediterranean lands, London, 1960.

مطبعة خميس عثمان
١٤ شارع الميناء الشرقية
ت ٢٩٨٤٨ اسكندرية